

همسة عابرة

أقوى من الزمن

يوسف السباعي



يوسف السباعى

همسة غابرة
أقوى من الزمن

يطلب من مكتبة مصر

٣ ش-كامل صدقى - الفجالة

مقـدمـة

هذه مجموعة من القصص التاريخى القديم تقوم هياكلها على عمد من الأحداث التاريخية المشهورة ، قدم رسومها فى مجلة «بريتانيا أندايف» الرسام الإنجليزى ماتانيا تحت عنوان «قصص قديمة يعاد قصها ثانية» وقد قدمتها إلى قراء العربية عام ١٩٤٥ فى مسامرات الجيب معيدا قصتها «ثالثة» آخذا منها المحور التاريخى والجو الزمنى .

وأنا حين أقدمها فى هذا الكتاب أضيف توأما ثالثا لكتابىْ « هذا هو الحب» و «سمار الليالى» إذ يجمع الثلاثة رسوم ماتانيا الرائعة . ولوحاته التاريخية المتقنة التى سجل فيها كل سمات العصر ودقائقه وتفاصيله ومميزاته .

وإذا كان ماتانيا قد قدمها بعنوان قصص قديمة يعاد قصها ثانية فإنى أكره أن أقدمها بعنوان قصص قديمة يعاد قصها ثالثة ، وأجد فيها نوعا من الرقة يجعلنى أسرها «همسة غابرة» .. فى أذن القارىء .. من همسات الماضى الحالم البعيد .

يوسف السباعى

نهاية بطل

« بعد لحظات .. سأنطلق إلى حياة قد خلت من
هذه القيود . وليس فيها نكران للجميل ولاجحود »

— ١ —

انقلبت ظلمات الدار أضواء باهرة ، وتحولت دياجيرها المعتمة إلى سناء وبهاء ، واختفت من حجراتها المناسج العتيقة ، والأنوال البالية . وصمتت أصواتها الكئيبة التي كانت أشبه بنعيب البوم أو نحيب الثكالى ، ليحل محلها رنين الكئوس وضحكات النشاوى ويشع في جنباتها بريق الصهباء وإشراقها .

ووقف (دومينكو كولومبس) يحك ذقنه ويسائل نفسه ! أى حمق دفعه إلى أن يقضى مامضى من عمره أسير تلك الأنوال الهرمة ، وسجين ظلماتها ، ولم لم يحاول — قبل اليوم — أن يحطمها ويضع مكانها هذه الدنان المليئة بعصير الكرم ورحيق العناقيد ؟

كان ذلك عام ١٤٧٠ ، عندما حول كولومبس منسجة إلى حانة ، وكان ابنه الأكبر كريستوف كولومبس لايزل في السابعة عشرة ، فتى قوى الجسد ، متين البنيان ، يرى فيه أبوه خير عون له .

وكانت دار السيد كولومبس تقع على مقربة من ميناء جنوا ، وكانت جنوا وقتذاك مركز التجارة فى حوض البحر الأبيض ، ولها أسواق فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأعلامها تخفق فى ربوع البلاد حتى الهند الصينية .

ولقد أثبتت الأيام أن الرجل كان حكيما عندما قرر أن يحول منسجه إلى حانة ، ولم يكن هذا الأمر يحتاج منه إلى كثير جهد : بضعة مقاعد خشبية ، ومناضد مستطيلة ، ورفوف مثبتة بالحائط ، ودنان ملأت الحجرات وبلغت قارعة الطريق .

وبدأ يفد على الحانة ألوان متباينة من الرجال : بحارة مغامرون وتجار من كل جنس ودين ، وبائعوا رقيق ، وقراصنة سفاكون .. وفى هذا الجو الصاخب ، وبين هذا الخليط العجيب نشأ كولومبس الصغير ، والتقط ذهنه معظم معلوماته عن جغرافية العالم – ففى كل قصة وصلت مسامعه عن الأراضى البعيدة المجهولة كان يجد حافزاً يدفعه إلى أن يحسن ويعدل فى تلك الخرائط الابتدائية التى كانت موجودة فى ذلك الحين ، ولم يكن يوجد فى ذلك الوقت إلا كتب قليلة مخطوطة باليد ، لايقتنيها إلا أثرياء القوم ، ومع ذلك فقد وقع فى حوزة الفتى كتاب استطاع أن يلهب حواسه ، ويؤجج مشاعره وهو «يوميات» مركوبولو الرحالة الفينيسى الذى تمكن منذ مائتى عام أن يجوب ربوع اسيا ، فاكتشف أرض التتار ، ووصل إلى مملكة خان الأكبر . وكانت اليوميات تصف سلسلة من المخاطرات الجريئة والعادات الغريبة . والمقابلات مع مختلف الملوك ، وحياة أجناس عجيبة من المخلوقات البشرية والحيوانات ، مما أشعل رغبة الفتى الكامنة .

واستطاع كريستوف بموارده المحدودة أن يتعلم الحساب ورسم الخرائط ، وكان بطبيعة نشأته منذ الطفولة بحاراً ماهراً وكان من الواجبات الملقاة على عاتقه منذ أن فتح أبوه الحانة أن يجوب ساحل الرفييرا العاصف ، منقبا عن

الخمور في مختلف الموانى ، يقضى الساعات الطوال بين الشراع وبين كتبه وخرائطه .

ومرت ثلاث سنوات والفتى يجد نفسه مرغما على أن يقضى حياته فى تفريغ الدنان ، وملء الكئوس ، وخدمة زبائن الحانة ، وتنظيف مناضدها . وكثيراً ما كان يقف شارد الذهن مصغيا إلى قصة مغامرة يقصها أحد الزبائن على أصحابه ، فلا يوقظه من شروده إلا صيحة أبيه . لقد كان يعيش فى عالم آخر من أحلامه وأمانيه ، ورويداً رويداً أحس أنه غريب عما حوله .

كان أكثر مايشغل الفتى تلك النظرية القائلة بكروية الأرض ، وبمضى الأيام أضحى يعتقد اعتقاداً جازماً بصحة هذه النظرية ، وبأنه لو أبحر فى اتجاه الغرب فلابد أنه واصل إلى الساحل الشرقى للقارة الآسيوية . وبدأ هذا الحلم يساور نفسه ، وقوى الأمل الذى يضىء مستقبل حياته .

وفى ذات يوم أحس أن من العبث أن يفنى عمره فى التمنى والتطلع ، واستقر رأيه على أن يقدم مشروعاً إلى « السناتو » ولم يكن ذلك المشروع الذى تقدم به أكثر – فى نظر أعضاء المجلس – من محاولة صبيانية خيالية ، لفتى أهوج طائش ، فكان نصيبه الرفض والسخرية ، ولم يفت ذلك فى عضده بل زاده عناداً وإصراراً . وكان يحس أنه ينقصه الكثير من خبرة البحار وتجاربها فبدأ يخوض غمارها ملتحقاً بالسفن التجارية ، ولم تتعد رحلاته بادىء الأمر البحر الأبيض ، حتى عام ١٤٧٦ إذ أبحر على إحدى سفن الأسطول التجارى إلى إنجلترا .

ووصلت القافلة إلى جبل طارق ، ثم جاوزته واتجهت شمالا ، وحركت رؤية المحيط الثورة الكامنة فى نفس الفتى ، وخفق قلبه بشدة ، وكان الطقس معتدلا والساحل يبدو على مدى البصر . وفى يوم ١٣ أغسطس لم تكد سفن

الأسطول تلف حول رأس سان فينسان حتى واجهها أسطول آخر وسرعان ما أعطيت إشارة الخطر . فقد كان الأسطول لأحد جبابرة القراصنة ، وكان مجرد ذكر اسمه يثير الهلع في النفوس ، وهو كولون الفيس الأميرال الفرنسي .

وأطبق أسطول القرصان على فريسته واحتدم وطيس القتال ومرت عشر دقائق دون أن ترجح كفة أحد الفريقين . فبدأ كولون في استعمال القنابل المحرقة ، رغبة منه في أن يجهز على خصمه ، وسرعان ما شبت النيران في أسطول جنوا ، وانتقل الشرر منها إلى أسطول القرصان ، وفي لمح البصر أضحى البحر كأنه قطعة من الجحيم .

وأغرقت السفن إلا سفينتين ، واستطاع كريستوف مع فريق من الرجال أن يتعلقوا بحطام السفن حتى حملتهم إلى الشاطىء البرتغالي ، وكانت تجربة قاسية للفتى ، ولكنها زادته ولعاً بالمخاطر وركوب البحار ، ورحل كولومبس إلى لشبونة ومكث فيها بضعة أشهر ، استطاع أن يوطد فيها علاقته مع كثير من أهلها .

ورحل بعد ذلك إلى إنجلترا ، ثم عاد إلى لشبونة بعد أن صمم على أن يعرض مشروعه على ملك البرتغال ، وقدم أوراقه ووثائقه وخرائطه وجلس في انتظار النتيجة . وطال انتظاره ، وهو لايعلم أن غيره قد كلف سراً بأن يقوم بالرحلة بعد أن زود بخرائطه ووثائقه .

وعاد الرجل الذي حاول أن يقوم بالرحلة فاشلا ، معزياً خيبته إلى كولومبس ، متهما إياه بأنه مخادع محتال ، واكتشف كولومبس الخديعة فلعن اليوم الذي ألقى به إلى البرتغال .

وفي ذلك الوقت بدأ الحب يتسلل إلى قلبه ، ولم يكن سوى هوى قصير ذوى في مهده ، فلقد تزوج فتاة نبيلة هي دونافليتا بريستولو التي أنجبت له ابنه ديجو ، ثم ماتت بعد فترة قصيرة .

ورحل إلى أسبانيا تاركا ولده مع أهل زوجته ، وقد نوى أن يجرب حظه مع فرديناند وايزابلا ، بعد أن خدعه ملك البرتغال .

وتمكن كولومبس بعد مشقة أن يحظى بلقاء الملك والملكة ، وركع أمامهما وأخذ يشرح مشروعه بحماسة وإخلاص ، وعندما انتهى من شرحه جلس ينتظر ، وقد تلاحقت أنفاسه ، وهز الملك رأسه متشككا ، ولم يبد عليه الاقتناع ، ولكن الملكة بدا عليها تأثر شديد ، فقد استطاع كولومبس أن يملك مشاعرها ، فأقبلت عليه تسأله مستوضحة عن بعض النقط .

وخرج كولومبس من الحضرة الملكية دون أن يحظى مشروعه بالرفض أو التأييد ، ومضت فترة وهو حائر قلق ، حتى أتته الأنباء بأن مشروعه قد أحيل إلى لجنة من العلماء لفحصه وتمحيصه ، وأخيراً جاء الرد بأنه قد رفض ، وبأن وعوده تعتبر غير معقولة ولامقبولة .

ولم يكن عجيباً بعد ذلك أن يدب الشيب في رأسه ، ولما يبلغ الثلاثين بعد ، فقد أغلق أمامه باب الأمل ، وأحس بدياجير اليأس تحيطه من كل جانب ، وبدأ عليه كأنما يخوض معركة خاسرة يقاتله فيها الفقر والوحدة ، ولايعاونه فيها سوى مخلوق واحد ، هو امرأة .

كانت المرأة التى شاركته آلامه وأحزانه هى بتريكس زوجته الوديعة الجميلة ، التي حاولت جهدها أن تحمل عنه أعباء كفاحه وجهاده ، وبعثت فى حياته المظلمة بارقة أمل استطاعت أن تبقيه حيا ، وأن تمنحه العزاء والسلوان ، وأنجبت له ابنه الثاني فرناندو .

وبعد سبع سنوات طوال ، دفع القدر إلى كولومبس بنبيل إيطالى هو الدوق مدينا كوكلى الذى استطاع أن يقدم كولومبس إلى الملكة مرة أخرى فأعاد عليها مشروعه .

ومرة ثانية أحيل المشروع على لجنة أخرى ، وذهب كولومبس إلى خباء الملكة ، حيث كانت تقيم مع جيشها المحيط بغرناطة .يسمع نتيجة مشروعه ، وهناك فوجيء بنبأين سارين : سقوط غرناطة ، وقبول مشروعه .

وبدأ كولومبس يضع شروطه ، فاشترط أن يمنح رتبة فيس ادميرال ، وأن يعين حاكماً على البقاع التى يكشفها ، وأن يستولى على عشر دخلها .

وقوبلت شروطه بعاصفة من الغضب ، وقيل إنه لو قبلت هذه الشروط ثم صادفه النجاح لأضحى أقوى رجل في الدولة . ووقف كولومبس ليتلقى غضبهم فى ثبات ، وأنبأهم فى هدوء أنه سيعرض مشروعه على ملك فرنسا .

وخرج كولومبس وقد ملأه الحنق واليأس ، وهو يحاول أن يدفن مرة أخرى حطام آماله التى بعثت من مرقدها بعثاً كاذباً ، وسار فى الطريق مطأطىء الرأس مكدود الذهن ، ولم تمض فترة حتى سمع وقع أقدام جواد يعدو خلفه ، لقد أتوا لينبئوه أن الملكة قد قبلت شروطه !!

أيمكن أن يكونوا صادقين ؟ أم أنها مزحلة ماجنة ، وفرية كاذبة ، وتبعهم كولومبس وهو يعتقد أنهم يعبثون به ، ولكنه لم يكد يصل إلى خباء الملكة حتى أقبلت عليه تهنئه وتخبره أنها قبلت شروطه .

وكان القوم قد راجعوا أنفسهم ، وأدركوا أن كولومبس لو لجأ إلى فرنسا وتحقق مشروعه - فسيكون ذلك كارثة على أسبانيا ، وستزداد موارد فرنسا وممتلكاتها وتصبح جاراً خطراً قوياً .

وعامل آخر خفى : لو أدركه كولومبس من قبل لوفر عليه يأس سبع سنوات ، ولعجل بانتصاره ، وهو امرأة ساحرة ، هي دونا لياتريس دى بو باذيللا ، إحدى المقربات إلى الملكة ، والتى أخذت بكولومبس وهامت بحبه .

وبدأ كولومبس يأمر ويملى ، لايسأل ويستعطف ، وجهز الأسطول وأنزله إلى البحر .

وفى حجرة صغيرة فى كاردونا ركع كولومبس وقد أمسك فى يده وثائقه وخرائطه ، إن الفشل لم يستدر دمعه ، ولكن فرحة الانتصار قد استطاعت .

وهمس كولومبس وقد رفع رأسه إلى السماء «الحمد لله رب العالمين» .

– ٢ –

كانت خطة كولومبس هى أن يبلغ بالبحر ما بلغه ماركو بولو عن طريق البر ، وأن ينشىء صلات اجتماعية ، وروابط اقتصادية ، بين الدول التابعة لخان الأكبر ، الذى كان يلقب وقتذاك بملك الملوك ، وكان غرضه من ذلك هو نشر الدين المسيحى وجمع شتات تلك الجماعات المسيحية المتفرقة التى كانت على استعداد للترحيب بأى مخلوق يقود هذه الحركة الدينية .

وقد حمل معه خطاباً من فرديناند وإيزابللا إلى خان الأكبر لم يذكر فيه شيئاً عن رغبته .

ولم يكن يخفى أن غرض البلاط الأسبانى من هذه الرحلة مالى بحت ، فقد كان على كولومبس أن ينقب عن المناجم والكنوز ، وأن يرسل إلى أسبانيا السفن المحملة بالذهب والجواهر ، وأن يكشف الأراضى الطيبة والحقول الخصبة ، ليضع فيها أساساً لأمبراطورية إسبانية جديدة . وأطلقت له الحرية فى الاستيلاء على ما يمر به من أراض ، ماعدا التابعة فعلا للدولة المسيحية .

ولم تغضب كولومبس هذه المطامع الأشعبية ، فقد كان يعلم أنه لو أصر على الجهر بأغراضه الدينية ، لما سمح له أحد بأن يقوم برحلته .

وذات يوم صدرت الأوامر الملكية لحاكم بالو أن يجهز سفينتين كبيرتين

كما أمر حاكم سيفيين بأن يعد لهما ما يلزم من مؤن وأسلحة وذخائر ، وحدد لذلك عشرة أيام تبدأ من الخامس والعشرين من شهر مارس سنة ١٤٩٢ ، على أن تسلم السفينتان بعد ذلك إلى رجل أطلق عليه اسم الكابتن كريستوبان كولون ، وله مطلق التصرف في أن يتجه بالسفينتين حيث شاء .

ونزل الأمر الملكي على بلدة بالو الهادئة نزول الصاعقة . فمن كان كريستوبان كولون هذا ؟ لم يكن هناك في المدينة من يستطيع أن يجلو هذه الأسرار الغامضة إلا رجل واحد هو مارتن بنزن أحد كبار التجار الذي يستطيع دائماً أن يعرف كل شيء . ومع ذلك فحتى مارتن بنزن قد أغلق فاه فما عاد ينبس ببنت شفة !

وفي اليوم التالي قام الكابتن كولون (كولومبس) بالتفتيش على السفن في الميناء ، يصحبه بعض الرجال المسئولين ، وقد أنبأت السلطات أصحاب السفن بأن غرض الرحلة لم يكن معروفاً اللهم إلا أنها ستبحر في اتجاه الغرب مباشرة ، وأن سفنهم ستستأجر لمدة شهرين وأن مدينة بالو ستكون مسئولة عن أية خسائر يحتمل حدوثها .

ولم يكن تجنيد البحارة لتلك الرحلة المجهولة بالأمر اليسير فنتج عن ذلك تأخر في إعداد السفن . وبعد بضعة أسابيع أعلن مارتن بنزن أنه سيشترك مع أخويه في هذه الحملة ، وأنه ليس هناك ما يخشاه منها .

وأعطى اشتراك بنزن للناس ضماناً كافياً ، فما كان الرجل المجرب ليشترك في أمر إلا إذا كان الربح فيه مضموناً .

وكان بنزن هو آخر من يرغب كولومبس في الاشتراك في رحلته ، ولكن الأموال التي رصدها البلاط للرحلة لم تكن كافية ، وقد اضطر هو نفسه أن يدفع ثمن التكاليف ، وعرض بنزن أن يمول له الرحلة على أن يكون له نسبة في أرباحها . فرحب كولومبس بعرضه لأنه كان يتحرق للرحيل .

وكانت السفينة الأولى التى وقع الاختيار عليها بينتا ، وتبلغ حمولتها مائة وخمسين طناً ، وكان على بنزن أن يتخذ قيادتها . أما كولومبس فقد اختار لنفسه إحدى السفن الكبيرة المسماة سانتا ماريا واختيرت كذلك سفينة ثالثة أصغر حجما هى نينا ، وقد أعطيت قيادتها لفنسنت بنزن .

وحمل كولومبس معه غير المؤن والذخائر والأسلحة صناديق عديدة مليئة بمختلف الحلى والأشياء التى تثير أعجاب القوم السذج البسطاء .

وسارت حركة تجنيد البحارة ببطء رغم تأثير بنزن ، ولم تجد وعود كولومبس البراقة الخلابة مع القوم نفعاً ، ولم يقبل على التطوع فى السفن إلا كل هارب من وجه العدالة .

وأخيراً .. وبعد مشقة وجهد تجمع لكولومبس العدد المطلوب وهو مائة وخمسون بحاراً ، كان منهم سبعون لسانتا ماريا وحدها ، ومن بينهم ابنه ديجيو الذى بعث وجوده بعض الطمأنينة فى قلوب البحارة .

وجاء يوم الرحيل ٣ أغسطس ووقفت الزوجات النائحات يحاولن أن يقنعن أزواجهن من البحارة بأن يقلعوا عن عزمهم ، وكان يوم جمعة ، والقوم يتشاءمون من أن يبدءوا أى عمل لهم فى هذا اليوم .

ووقف الرجال المسئولون يودعون كولومبس ، ووقف راعى الكنيسة يوزع بركاته ، وصعد كولومبس إلى سطح السفينة ، وفكت الحبال وجرت السفن الثلاث باسم الله مجريها ومرساها .

وكان عليه أن يتجه أولا إلى جزر الكنارى ؛ لأن عبور المحيط أسهل من هذه الناحية .

ووصل كولومبس إلى جزر الكنارى ، فقام بإصلاح عطب أصاب السفينة بينتاً ، ثم واصل رحلته فتوقف فى جوبيرا ليجدد مؤنه ، وهناك سمع أن بعض

السفن البرتغالية قد قامت لمطاردته ، والاستيلاء على سفنه ، حماية لممتلكاتهم في ساحل أفريقيا ، لأن الشك ساورهم عن حقيقة غرض الرحلة . فاتجه بسفنه إلى جزر الكنارى .

وبدأت الطبيعة تناصبه العداء ! ففي ليلة ٢٤ بينما كانت سفنه تسير بجوار ساحل تنزيف انفجر البركان القائم على تلك الأرض وصب حممه في المياه ، وأصبح كأنه جحيم يستعر أواره ، وأصاب البحارة فزع شديد ملأ نفوسهم تشاؤماً من الرحلة ، وخوفاً على مصيرهم .

وفي ٦ سبتمبر خرج كولومبس نهائيا إلى عرض المحيط . ومن هنا بدأت رحلته الحقيقية ، بعد أن خلف أوروبا وراءه وأمعن في اتجاه الغرب .

ومنذ تلك اللحظة بدأت أصوات التذمر تعلو في سانتا ماريا ، لقد فهم الرجال أنهم سيتجهون إلى جزيرة كيبانجو القائمة على بعد ٧٥٠ فرسخاً ، وهم لم يسمعوا من قبل بذلك .. !! أتراها خدعة ؟ وإذا هبت عليهم عاصفة في أية لحظة أتراهم يجدون حولهم أرضاً يلجئون إليها تقيهم شرورها ؟! .

لقد كان من العسير عليه أن يعيد الإيمان إلى قلوبهم الواجفة ، إذ أصروا على أن يعرفوا يوماً بيوم كم فرسخاً قطعت بهم السفينة حتى يحسبوا السبعمائة وخمسين فرسخاً التي أقسموا ألا يسيروا بعدها قيد أنملة .

ومرت الأيام دون أن تبدو في الأفق بارقة أمل .. لاشيء أكثر من أعشاب البحر الخضراء التي تمني النفس بآمال كاذبة .

وفي يوم ١٨ حاول بنزن أن يعرج بسفينته ناحية ثلة من طيور البحر البيضاء آملا أن تقوده إلى أرض قريبة ، ولكنه عاد في النهاية فاشلا .

وأخيراً انتهت السبعمائة وخمسون فرسخا ، والأرض لايبدو منها أثر لعين ، وبدأ التذمر يسرى بين البحارة ، وأخذوا يطالبون بالعودة ويهددون

بالتمرد والعصيان ، واقترح ينزن أن يشنق منهم ستة أو سبعة ليكونوا عبرة للآخرين . ولكن كولومبس رفض اقتراحه وقبض على زمام الموقف ، وفضل أن يعاملهم بالحسنى حتى يتمكن من الوصول إلى الهند .

وفى ذات يوم ، أشرقت الشمس وضاءة تحمل في شعتها بسمات الأمل ، وافترشت صفحة الماء فجعلت من أمواجه لألاء ذهبياً يخطف سناه الأبصار ، ولاح للقوم شيء عجيب .

شيء أحيا في النفوس موات الأمل ، وأشعل فيها خامد الرجاء فإذا بها تطير فرحاً ، بعد أن طارت شعاعاً ، وإذا بالقلوب تهفو والألسنة تشدو .

لقد كان ذلك الشيء ، غصناً نضيراً ، حمل بالزهر ، وأخذت الأمواج تتقاذفه ، والقلوب تتلقفه ، فأحست منه برداً وسلاماً وأمناً واطمئناناً .

وفى حلكة ليلة ١١ أكتوبر والساعة قد بلغت الثانية صباحاً ، شاهد كولومبس ضوءاً فى الأفق يظهر تارة ، ويختفى أخرى ، وشاهده بقية البحارة الذين لم يغمض لهم جفن ، منذ أن أبصروا الغصن النضير الذى حملته المياه ، وصدرت من السفن الثلاث صيحة مدوية كأنها صيحة رجل واحد :

« الأرض .. الأرض » .

وجن جنون القوم ، فاندفعوا فى الصياح والرقص والغناء ، وأصابهم الفرح بلوثة فأفاضوا الخمر أنهاراً .

وأشرق الصباح وحمل إليهم ضوء الفجر خضرة الأراضى المنبسطة على مدى البصر ، وعندما زاد اقترابهم من الأرض **استطاعوا أن يميزوا عليها مخلوقات بشرية عارية** . ورست السفن وأنزلت القوارب ، ونزل كولومبس ليضع قدمه على الأرض الجديدة ، ولم تكد تمس قدمه الأرض حتى ركع شاكراً لله بعيون دامعة .

وفى ذلك الوقت جرؤ بعض الأهالى الذين كانوا قد اختفوا بين الأدغال على الظهور ، ومدوا رءوسهم فى حذر ، يتطلعون إلى الزائرين الجدد ، وبدت عليهم الطمأنينة عندما لمحوا على وجوه ضيوفهم ابتسامات ترحيب ، وسمح لهم كولومبس بأن يقتربوا منهم ولنسمع كلماته التى وصف بها ما حدث ..

« ومنحتهم بعض الحلى من أقراط وقلائد وخواتم فأفعم قلوبهم الفرح ، وسرعان ما اكتسبنا صداقتهم وعطفهم ، وعرضوا علينا كل ما يملكون مع أنهم فقراء ، وكانوا عراة كما ولدتهم أمهاتهم وكانوا على شيء كثير من قوة الجسد ومتانة البنيان ، ولم يكونوا يحملون أسلحة ، وعندما حاولوا فحص خنجرى أدموا به أصابعهم » .

بهذه الألفاظ وصف كولومبس يومه الأول فى الأرض الجديدة ، اليوم الذى حقق له أجمل أحلامه ، وذاق فيه حلاوة الانتصار ، بعد أن أمضته مرارة الفشل .. يوم ١٢ أكتوبر ١٤٩٢ .

– ٣ –

أطلق كولومبس اسم « سان سالفادور » على أول جزيرة حط عندها رحاله فى الدنيا الجديدة ، وقد أدهشه أن وجد أهلها يحلون آذانهم بأقراط ذهبية ، واستفسر عن مصدر تلك القطع ، فأنبئوه أن فى اتجاه الجنوب ملكا يملك كميات هائلة من ذلك المعدن ، ورأى كولومبس ألا يضيع الوقت ، فأبحر بسفنه صوب الجنوب بعد أن أقنع بعض الأهالى من الهنود بمرافقته ليرشدوه فى رحلته .

ورست السفن عند جزيرة كوبا . وكتب كولومبس فى مذكراته يقول : « إن هذه البقعة هى أجمل ما وقعت عليه عين إنسان » وقد ظنها فى بادىء الامر كيبانجو (اليابان) الأرض العجيبة التى وصفها ماركوبولو فى يومياته . واستطاع الأدلاء الهنود السبعة الذين حملهم كولومبس فى سفنه أن يغروا

بعض نساء كوبا الفاتنات بالإبحار معهم ، وسرعان ما حملوهن فى زورق إلى ظهر السفينة .

واستأنف كولومبس رحلته صوب الجنوب أيضاً ، ولكن بنزن قائد السفينة الأولى من السفن الثلاث أسرع بسفينته « بينيتا » وانفرد بالسير بها ، رغبة منه فى أن يكون له فضل السبق في اكتشاف كيبانجو . وفى ٥ ديسمبر سنة ١٤٩٢ وصل كولومبس بسفينته ماريا والسفينة الثانية نينا إلى جزيرة هايتى وأطلق عليها اسم « هسبانيولا » وفيها توطدت علاقات الصداقة بينه وبين جوكانا كارى أحد رؤساء القبائل ، وكان شهماً شجاعاً ، بذل لصديقه كولومبس كثيراً من المساعدات ، ولا سيما عندما غرقت السفينة سانت ماريا على أثر عاصفة قذفت بها إلى الشاطىء فتحطمت على صخوره .

ورأى كولومبس أن يعود إلى أسبانيا ليجهز أسطولا جديداً يعاود به إتمام استكشافاته ، فعاد إلى ميناء بالو حيث استقبل ورجاله استقبالا رائعاً من الشعب ، ومن الملك والملكة .

مضت ستة أشهر استطاع كولومبس خلالها أن يجهز أسطولا من سبعة عشرة سفينة وألف وخمسمائة رجل أبحر به في يوم ٢٥ سبتمبر من ميناء بالو . وبعد شهر من يوم الرحيل لاحت له الأرض الجديدة مرة ثانية ، وكان يحس بلهفة شديدة على رؤية رجاله الذين تركهم فى ناتيفيراد ، وأخذ فى البحث عن الجزيرة حتى وصل إليها .

وأذهل كولومبس أن يجد المكان خراباً بلقعاً ، وأن يجد الحصن الذى كانوا يقيمون فيه مهجوراً لا أثر فيه ، وتملكه جزع على رجاله ، وسأل بعض الهنود فأنبئوه أن الرجال طغوا وبغوا ، وأنهم سبوا النساء ، وبطشوا بالرجال ، وأن « كانابوا » صاحب كنوز الذهب قد سمع بطغيانهم فهجم عليهم برجاله ذات ليلة وفتك بهم فتكا شديداً .

وحزن كولومبس – رغم أنه قد أحس فى نفسه أن رجاله قد لقوا جزاء ما اقترفوا من إثم – وصمم على أن يبذل جهده كى يستعيد عطف المواطنين وصداقتهم . وأن يضاعف الحراسة على سفنه ورجاله خوفاً من أن يعيد كانابوا هجومه فيفتك بهم . وبحث عن صديقه جوكانا كارى فوجده راقداً فى كوخه يستجم من جرح أصابه عندما كان يحاول الدفاع عن رجال كولومبس ضد كانابوا .

وتعانق الصديقان ، وأفعم قلب كولومبس بالشكر لصاحبه على ما بذله من أجله ومن أجل رجاله ، وصمم على أن يصحبه معه إلى سفينته ، وأن يكون عوناً له في كل أعماله ، فقد وجد فيه من الوفاء ما افتقده فى غيره من الرجال .

وانتقل جوكانا كارى إلى سفينة كولومبس ، واحتل بين الرجال مركزاً ممتازاً ، وساعده ذكاؤه المفرط وشخصيته القوية الجذابة على أن يسيطر على قلوب البحارة ، واغتبط كولومبس بذلك فقد حمل عنه عبئاً كبيراً طالما أثقل كاهله ، دون أن يجد من يعاونه فى حمله .

وسرعان ما تعلم جوكانا كارى اللغة الأسبانية ، وبدأ يدبر مع كولومبس خطة للقضاء على كانابوا ، والاستيلاء على ذهبه وأراضيه .

وكانت بين النساء الهنود اللاتى حملتهم السفينة كولومبس من هايتى فتاة تدعى كاتالينا .

وعندما وقع بصر جوكانا كارى على كاتالينا أول مرة بين غيرها من الفتيات لم تثر فى نفسه أى اهتمام ، فقد كان ذهنه مشغولا بما يدبره من خطط للقضاء على كانابوا ، ولم يكن بالفتاة ما يميزها عن سواها حتى تسترعى انتباهه .

ولكن ... هلى تدرون كيف يصاب الإنسان بالبرد ؟

لقد أصيب جوكانا كارى من كاتالينا بإصابة تشبه إلى حد كبير الإصابة بالبرد .

هل يدرى الإنسان الذى يصاب بالبرد ، كيف يصاب به ؟ لا أظن ، وإلا لحاول وقاية نفسه منه ، ولكنه يصاب به دون أن يحس ، قد يكون تعرض لتيار هوائى ، وقد يكون انتقل من مكان دافىء إلى مكان بارد ، وقد ... وقد ... كل هذه أسباب محتملة للإصابة ، ولكن متى بالضبط ، وكيف ؟ هذا ما لا يستطيع الإجابة عنه ولا يدريه . ولكن الذى يدريه . هو أنه يجد نفسه قد عطس فجأة ، ثم أصابه زكام ، ورشح أنفه ، وتحول الزكام إلى سعال ، والسعال إلى نزلة شعبية ، والنزلة إلى التهاب رئوى ، ويجد نفسه قد أصابته حمى ، قد يشفى منها وقد تودى به .

ويمثل هذا البرد أصيب جوكانا كارى ، ولكنه لم يكن الذى أصابه برد ، بل أصابه حب ، أو « لطشة هوى » . لقد أحس أنه قد أصيب « بالعطسة الأولى » عندما وجد نفسه قد بدأ يميز كاتالينا عن غيرها من الفتيات ، و « بالثانية » عندما وجد عينيه تنقبان عنها ، و « بالثالثة » عندما وجد قدميه تسوقانه إلى جوارها .

وظهرت بوادر الزكام ، زكام الحب ، عندما أمسك بيديها بين يديه ، وسرت من عينيها إلى عينيه نظرة حوت كثيراً من المعانى ، وأحس بنفسه يضل فى حلكة شعرها ، ويغرق فى أغوار عينيها السوداوين ، ويحترق فى لهب جسدها الدافىء الممتلىء .

وسرعان ما تحول الزكام إلى سعال ، والسعال إلى حمى ، حمى أصابت القلب فجعلته يستعر بين الضلوع .

وحل يوم المعركة ، وهوجم كاتالوا ، فهزم شر هزيمة ، واقتيد مكبلا بالأغلال .

وأخذ كولومبس يتأهب لوضع أكاليل الغار على هامة صاحبه المظفر ، ولكن جاكانا كارى لم يبد له أثر ، وبحث القوم عنه عبثاً ، وفجأة صاح أحد البحارة : (ها هو) .

ونظر كولومبس فوجد البحار يشير بأصبعه إلى الأفق البعيد . واستطاع أن يلمح نقطة تتحرك في الماء وتبتعد عن السفينة متجهة إلى الشاطىء .

ودهش كولومبس وتساءل عما حدا بالقائد المنتصر إلى الفرار بعد المعركة ، وبعد أن تم انتصاره فيها ، وإذا كان المنتصر قد فر ، فماذا يفعل المهزوم إذن ؟ لاشك أن الرجل قد جن .

ولو استطاع كولومبس أن يميز تلك النقطة المتحركة في الماء ، لأدرك أنها نقطتان ، كانت إحداهما رأس القائد الهارب ، أما الأخرى فكانت سبب هربه !! كانت رأس كاناليتا .

لقد فر جوكانا كارى من متعة النصر : لينعم بمتعة كان يتلهف عليها ، وعندما وصل إلى الشاطىء واختفى بغنيمته بين الأدغال واحتوى جسدها الدافىء حدث نفسه :

« أيها الحمقى الذين تنعمون بالضجيج ، هنا متعة الحياة ونعيمها ، هنا أجمل ما يستطيع إنسان الحصول عليه في هذه الدنيا ، هنا الحب وكل شيء ما خلا الحب عبث » .

— ٤ —

عندما استقر كولومبس في الأرض الجديدة كان يدرك أن أول ما يجب عمله هو أن يبحث عن الذهب ، إرضاء لمطامع رجال البلاط في أسبانيا فقد كان الذهب هو كل ما يريدونه ، وكل ما يؤملونه من رحلته إلى الأرض المجهولة .

ومرت الأيام وكولومبس يجد فى البحث والتنقيب ، وكاد اليأس يمتلكه ، حتى وقعت حادثة تافهة أتاحت له العثور على مورد لاينضب من هذا المعدن الثمين .

ففى يوم من الأيام نشب عراك بين بحارين من بحارة السفينة « نينا » ، وأصاب أحدهما الآخر بجرح بليغ . وخشى البحار المعتدى عاقبة عمله ففر من السفينة .

وتوغل بين الأحراش حتى وصل إلى إحدى قرى المواطنين . فأحاط به الهنود وقادوه إلى زعيم القبيلة ، وسار الرجل بينهم خائفاً مما قد ينزله به زعيم القبيلة الذى تصوره وحشاً كاسراً .

ووصل أمام الزعيم فزال عن نفسه الخوف ؛ فقد وجده امرأة لم يقع بصره على أجمل منها ، وقد وقفت أمامه بجسدها النموذجى الرائع وساقيها المخروطتين ، وخصرها الضيق ، وصدرها الممتلىء فى تماسك ، كأنه صدر تمثال متحجر .

ووقف ميجول دياز فاغراً فاه من الدهشة ، وحملق بعينيه فى الزعيم الرائع ، وتمنى لو يهجم عليه فيحتويه بين ذراعيه ، ويلهب بالقبلات شفتيه .

ونظرت إليه المرأة نظرة رقيقة ، وأمرت الرجال أن يطلقوا سراحه ويكرموا وفادته ، ووجد ميجول نفسه محاطاً بعناية ورعاية كأنه بين أهله وعشيرته .

ومرت الأيام فإذا بالحب قد نصب شراكة فأوقع فيها الرجل الإسبانى والمرأة الهندية ، وضمهما فى حبائله ، ساخراً بفوارق الجنس وتقاليد الأديان ، ومتى كان الحب يعترف بالفوارق والتقاليد ؟

وأعلنت الزعيمة شعبها بأنها تود أن تشرف القبيلة بأمير إسبانى ، وأنها قد قررت الزواج من ميجول دياز .

وصفق الشعب وهتف ..

وتم الزواج ، ونعم به ميجول فترة طويلة ، حتى بدأ يحس بالقلق ويحن إلى العودة ، ولكنه كان يعرف أن العودة وراءها عقاب شديد وجزاء صارم على ما اقترفت يداه ..

ولم يخف على امرأته قلقه وحنينه إلى أهله ، وأنه لايستطيع العودة إلى سفينته ، وكانت تعرف أن الأسبانيين يحترقون شوقا إلى الذهب ، وأن زوجها لو دل كولومبس على مواطن الذهب لعفا عنه ؛ فتسللت به ذات يوم إلى بقعة نائية على شاطىء نهر هانيا . وركع الرجل على ركبتيه وقد بهر عينيه بريق التبريسيل بين أصابعه ،

وأثبتت الأيام صدق ظنون الزوجة ؛ فلقد عفا كولومبس عن زوجها عندما حمل إليه أنباء الذهب ، وعاش الزوجان سعيدين ، وكان زواجهما أول تحالف بين الدنيا القديمة والدنيا الجديدة .

وفى ذلك الوقت وصلت إلى الشاطىء سفينة أسبانية تحمل رجلا يدعى فرنسيسكو بوباديللا ، وكان يحمل معه مرسوما ملكياً بتعيينه حاكما على الأرض الجديدة ، ويعطى له مطلق الحرية فى أن يفعل ما يشاء ، وينزع من كولومبس كل سلطانه ، ويأمره بأن يطيع أوامر الحاكم الجديد .

وذهل كولومبس ، ولم يصدق أن يكون جزاؤه مثل هذا الهوان ؛ فقد كان بوباديللا لايزيد على أفاق مغامر . وأحس أنه قد جوزى جزاء سنمار ، وأنه قد طعن فى ظهره ، ولم يجد أمامه إلا أن ينتظر حتى يرى كيف ينوى بوباديللا أن يتصرف معه .

وكان يوم ٢٣ أغسطس ١٤٩٨ يوما مشهوداً في حياة كولومبس ، فقد أفعم قلبه بكره الحياة وبغض الإنسان ، إذ علم أن جهاد حياته قد ذهب سدى . وعاد كولومبس في ذلك اليوم إلى داره في سان دمنجو فأدهشه أن يجد رجال بوباديلا قد أحاطوا بالدار ، وأسرعوا بالقبض عليه وساقوه سجيناً إلى أحد الحصون ، وهناك وضعت السلاسل في رسغيه وقدميه ، وأحس بالمرارة تفيض من صدره وهو يبصر بالمطارق تهوى لتحكم إغلاق القيود ، وكانت كل دقة من دقات المطرقة تحمل إلى أذنيه صيحات الشامتين من رجال البلاط الذين ملأ صدرهم الحقد والضغينة ، وأكل قلوبهم الحسد والغيرة فحاكوا له الدسائس وأنزلوا به الوقيعة .

واقتيد كولومبس بعد ذلك إلى إحدى السفن لتعود به إلى أسبانيا كأنه مجرم أثيم ، وكان قائد السفينة صديقاً قديماً لكولومبس ، فعرض عليه أن يفك وثاقه ، ولكنه أجابه في سخرية ومرارة :

« لقد أمرني الملك والملكة أن أطيع بوباديلا ، وباسميهما قد وضع القيد في يدي ، وسأظل أحمل القيد حتى يأمرا بخلعه ، وسأحتفظ به بعد ذلك كتذكار لما كافآني به على كل ما فعلت » .

وقوبل كولومبس في عودته هذه بحماسة من الشعب فاقت ما قوبل به عند عودته أول مرة ، وكلل هامته غار الظفر ، فقد نمى إلى الشعب خبر عودته مكبلا بالأغلال ، وما لاقاه من الهوان ، فسرت بينهم روح التذمر والاستياء .

وكان الملك والملكة في غرناطة ووصلت إليهما همهمة الشعب وضجيج الجماهير ، فأدركت الملكة مبلغ ما ارتكبت من حماقة وطيش ، وأحست أن العرش قد أضحى مضغة في الأفواه ، وبخاصة بعد ماوصل إلى مسامعها نبأ المظاهرات التي قام بها الشعب الإيطالي فقد كانوا يعتبرون كولومبس أحد أبطالهم .

واستدعى كولومبس إلى القصر الملكى ، وكان قد احتفظ برباطة جأشه وثباته طوال مدة سجنه ، ولكنه لم يكد ينفذ إلى قاعة العرش حتى انهارت مقاومته وخر باكياً منتحباً أمام قدمى الملكة كأنه طفل صغير .

وعندما تمالك قواه حاولت الملكة تهدئة خاطره ببضع كلمات طيبة .

وبهذه الكلمات عاش كولومبس بقية حياته .

وفى نوفمبر ١٥٠٤ ماتت الملكة .

ومرت الأيام بكولومبس ، فهدمه الكبر ، وحطمه اليأس ، وأرسل إلى الملك يطالبه ببعض حقه ، أو بنصيبه من الذهب الذى تدفق عليهم من الأرض الجديدة ، فلم يكن نصيبه سوى الإهمال .

ورقد كولومبس وحيداً فى حجرة صغيرة فى فالادوليد ، لايملك من حطام الدنيا سوى فراش رث ، يرقد عليه بجسده الذى أفناه فى استكشاف الأرض الجديدة التى كانت ترحل منها السفينة تلو السفينة ، لتحمل الذهب وتصبه فى أجواف الجشعين الذين لاتطفأ لهم غلة ولا يروى لهم ظمأ .

وفى ٢١ مايو أغمض كولومبس عينيه وفاضت روحه ، وكان آخر ما نظر إليه السلاسل المعلقة فوق الحائط ، وهى التى قيدوه بها عندما أعادوه من الأرض الجديدة .

ولو ترجمت نظراته ، أو لو استطاع النطق لقال :

« بعد لحظات ، سأنطلق إلى حياة ، قد خلت من هذه القيود . وليس فيها نكران للجميل ولا جحود » .

المرجوة الخالدة

«كان للرجل منا ثلاث نساء ، صاحبة للهو
والتسلية ، وخليلة لقضاء رغباته الطبيعية، وزوجة
لتهيىء له بيتا هادئا محترما وأبناء شرعيين» .

— ١ —

لم يبد عجز الرجل فى شىء ، منذ بدء الخليقة ، كما بدا عجزه فى تنظيم العلاقات بينه وبين المرأة ، ولم يفشل فى شىء قدر فشله فى تحديد مايجب أن يعطيه لها ، ومايجب أن يأخذه منها .

وقد تكون أسعد فترة قضاها الرجل فى التاريخ هى تلك الفترة التى كان يعيش فيها على الفطرة ، دون أن تحده قيود ، أو تقيده قوانين ، سوى تلك التى وضعتها له الطبيعة .

ولكنه – قاتله الله – بدأ فى التطلع إلى الرقى ، فأخذ فى وضع القوانين ، وخلق الحقوق والواجبات ، وكان أول ماواجهه من مشاكل ، هو ماذا يعطى

نصفه الأضعف ، وماذا يحرم عليه ؟ وكانت النتيجة أن انتهى الأمر به إلى وضع نظام الزواج ، ولكن هذا النظام لم يحل المشكل ، فقد كان الرجل فوق احتياجه إلى ربة بيت ترعى شئوونه وتربى صغاره ، يحتاج إلى أخرى تعطيه اللذة والمتعة ، وتنسيه متاعب البيت وقيوده ، وقد يخيل للمرأة أنها قادرة على أداء العملين ، ولكن الرجل يؤكد أن امرأة واحدة لن تستطيع أن تعطيه كل ما يطلب ، فيبدأ يبحث بعد الزوجة عن امرأة أخرى ، للهو والمتعة ، ولكن هذه الأخرى ، لم يرضها أن تكون مجرد أداة لهو ، وبدأت تطالب هى الأخرى بحقها فى الحياة ، وكانت نتيجة ذلك أن نشأ نظام تعدد الزوجات ، ولكن حتى هذا أيضاً لم يقنع الرجل ، فقد رأى أن المرأة تفقد قيمتها كوسيلة للمتعة بمجرد أن تصير زوجة ، ورأى من الحمق أن يحاول التخلص من قيود الزوجة بزوجة أخرى ، فيكون كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وأدرك أخيراً أن شر ما يبتلى به الرجل هو عدة زوجات ، وأن خير وسيلة للتمتع بالحياة ، هو أن يقنع بزوجة واحدة ، ويضع محظيات . فليس أحب إلى نفسه من اللذة المسروقة والمتعة المختلسة ، وماكانت رغبة الرجل فى المرأة لتقاس بمقدار جمالها ، بل بمقدار مايلقاه من مشقة فى الحصول عليها ، فإن وجدها سهلة فى يده لاتعب فى الوصول إليها ولامشقة ، ذهبت فتنتها وخبا بريقها ، وهكذا الزوجة لايكاد الرجل يحصل عليها ، ويجدها طوع أمره ، حتى يزهد فيها وينصرف عنها ، ولاتكاد تثيره إلا بمقدار مايثيره تمثال فى ركن الدار حتى ولو كان لآلهة الجمال .

هكذا خلق الرجل ! هو دائماً يريد امرأة أخرى ، لايهمه أن تكون أجمل من الأولى ، بقدر مايهمه أن تكون «أخرى» وبقدر مايهمه أن يركب الصعب فى الحصول عليها ، وأن تكون محرمة عليه ممنوعة عنه .

ومن عدة قرون خلت ، فى عهد الإغريق – وهو عهد من عصور المدنية الزاهرة – نجد ظاهرة من الظواهر قد تبدو لنا الآن على شىء من الغرابة ،

وإن كانت في ذلك الوقت لاتعدو أن تكون نظاما طبيعياً من نظم الحياة الاجتماعية ، فقد كانت النساء في ذلك العصر ينقسمن الى طبقتين متباينتين : إحداهما طبقة الزوجات الشرعيات اللائى تحجبهن جدران البيوت ، والأخرى طبقة المحظيات العابثات اللاهيات ، وهن يتمتعن بقسط وافر من نعيم الحرية والحياة .

وكان للإغريق عدة آلهة يمثل كل منها مظهرا من مظاهر الحياة أو قوة من قوى الطبيعة . وكانت أفروديت أورانيا هي إلهة الحب المثمر ، والزوجة النقية الطاهرة ، والأم الحنون الرءوم . أما أفروديت بانديموس فكانت إلهة الجمال العابث الصاخب المليء بالمتعة واللذة ، الفياض بالحب والهوى الذى حطم قيود الحياة ، وانطلق حرأ يسرى في كل فؤاد ، وينفذ إلى كل قلب ، ويترك كل من صادفه ثملا نشوان من فرط السرور والطرب .

وكان لكل إلهة معبد خاص ، حرم دخوله على الرجال تحريما باتا ، ولم تكن بانديموس بأقل تبجيلا أو احتراما لدى الإغريق من زميلتها أورانيا ، ولم تكن المحظيات أو الصاحبات كما كن يسمين في ذلك العهد محل ازدراء أو احتقار . أو كان لانتسابهن بطبقتين حطة من كرامتهن . بل كن على النقيض — محل تقدير أهل العلم والأدب والفنانين والشعراء ، إذ كن فوق جمالهن الفياض وأنوثتهن الزاخرة — مثقفات مهذبات ، عالمات بكل نواحي العلم والفلسفة والسياسة ، وكن لايألون جهداً في سبيل توسيع مداركهن وصقل عقولهن .

وكانت كورنثه في ذلك الوقت مدينة الشعر والهوى والفن والجمال ، فقد كانت تزخر بعدد هائل من الرفيقات ، وكان معبد بانديموس يقوم فيها كأنه منبع الفتنة والجمال ، ومشرق الذكاء والنبوغ ، وكانت الكعبة التي يحج إليها الأثرياء ومشاهير الرجال من فنانين وشعراء وفلاسفة وحكماء ؛ كى يرفهوا عن نفوسهم ويغمروها في فيض من النور والجمال ، ولم يكن في مرافقتهم

للصاحبات أنتقاص لأقدارهم أو خيانة فى حق زوجاتهم ، بل كان أمراً طبيعياً لاغبار عليه ، وليس أدل على ذلك من هذه الجملة الآتية المقتبسة من كلام ديموسين « كان للرجل منا ثلاث نساء ، صاحبة للهو والتسلية ، وخليلة لقضاء رغباته الطبيعية ، وزوجة لتهيىء له بيتاً هادئاً محترما وأبناء شرعيين » .

وفى ذات يوم أقيمت إحدى المآدب الفاخرة فى قصر ثرى من أثرياء كورنثه ، ودعى إليها مشاهير الرجال ، كل مع صاحبته ، وبدأ القصر يتلألأ بالأنوار ، ويفيض بالموسيقى العذبة والجمال الشهى .

وافتقد القوم أبللس الفنان العظيم – الرسام الخاص للأسكندر الأكبر – فلم يجدوه ، وطال انتظارهم له دون جدوى ، وكانوا يتلهفون شوقاً لرؤية صاحبته ، ومن تكون .. ؟!

وأخيرا هبط عليهم الرجل الفنان .. ومعه صاحبته !!

وذهل القوم حين رأوا الصاحبة ، لاتزيد على طفلة فى الثانية عشرة ، رثة المنظر ، مهلهلة الثياب ، قد بدا عليها الفقر والحرمان .

ووقف الفنان وسط القوم ، وانهالت عليه الأسئلة الساخرة الهازلة .. وقد أمسك بيده الصبية المشدوهة الحائرة ، التى تملكتها الروعة والعجب مما بدا حولها من مناظر لم تألفها ، ولم تعتد رؤيتها !!

وأنباهم الرجل أنه قد صادف الصبية تهيم على وجهها فى الطرقات شاردة باكية .. فرق لحالها .. وسألها عما بها فأنبأته أنها وحيدة فى الحياة ، لاتجد لها طعاماً ولا مأوى .. وتفرس فيها الرجل وفحصها بعينى الفنان ، فإذا بكل جزء فيها قطعة فنية .. فلم يتردد فى اصطحابها وصمم على رعايتها والعناية بها .

وضحك القوم هازئين .. وتلقى الرجل سخريتهم بابتسامة هادئة ، وأقسم لهم أن هذه الطفلة التى سخروا منها وهزءوا بها .. ستجعلهم بعد ثلاث سنين يخرون أمامها سجدا ، ويعفرون جباههم في ثرى أقدامها .

ومرت السنون الثلاث .. فإذا بقول الفنان يتحقق ، ونبوءته تصدق ، وإذا بالصبية قد تحورت فصارت بدعة من صنع الله ، وآية من آيات الخالق .. وإذا بها كأنها ينبوع يتفجر منه سحر يسبى ، وفتنة تسترق .. فقد كان بالفتاة جمال عجيب لم يكن في غيرها من النساء .. فكأن المرء يرى وراء عينيها هاوية سحيقة بعيدة الغور ، تكاد تجذبه إليها فتودى به فى أعماقها ، أو كأنها صندوق من الكهرباء ، كل قطعة بما تحوى خطرا داهماً .. وتهلكة كبرى .

ولكن الناس جبلوا على أن يلقوا بأيديهم إلى التهلكة ولاسيما هذا النوع من التهلكة .. فبين عشية وضحاها .. صارت الفتاة إلهة يعبدها كل أغريقى ، لا فرق في ذلك بين غنى وفقير .. وكبير وحقير ، بل كان كل رجل يعتبرها معشوقته الخاصة ، ويجد فى مرآها متعة ، وفى التفكير فيها نشوة ولذة .. ولم يحاول أحد أن يستأثر بها دون الآخر .. بل قنع الكل بعشقها جماعة .. ولم يكن بمستعصى على الفتاة أن ترضى الشعب بأكمله ، فقد كان منبع الجمال لديها لايغيض ولا ينفد .. فلو اغترف منه كل عشاق العالم لأروى غلتهم .. وبقى كما هو : فياضاً بالسحر متدفقاً بالهوى .

ووهبها الأثرياء ثرواتهم ، والشعراء أشعارهم .. والموسيقيون ألحانهم .. فبلغت الفتاة أوج المجد وقمة الشهرة .

وسارت حياتها هادئة ناعمة .. حتى اعترضها ذات يوم فتى موسيقى ناشيء .. ولم يكن بالفتى ما يميزه عن غيره من آلاف العشاق والمعجبين ، بل ربما كان أقلهم فى كل شيء ... ولكن ما قبل من أن لكل روح نصفها الآخر ، وتوأمها الذى خلق معها .. والذى تظل تلتمسه طول الحياة ، حتى

إذا التقيا انطبق أحدهما على الآخر ، ولفهما النعيم الأبدى والسعادة الدائمة – قد بدا جلياً واضحاً عندما التقى الفتى بالفتاة .

لم يكن هناك شك في أن الفتى هو نصفها الآخر الذى كانت تتعطش إليه ، وعجبت الفتاة لنفسها كيف اضطرب رأسها ، وخفق قلبها ، كأنها ما رأت غيره رجالا من قبل ، وعجبت كيف كانت تستلذ الحياة قبل أن تراه وكيف استطاعت أن تقنع طول تلك المدة السائفة من عمرها بتلك الصورة الباهتة الجديدة التى لارونق فيها ولا بهاء ولا حياة ولا رواء .

وذاقت الفتاة حلاوة الحب ، وعرفت أن ما مر بها لم يكن إلا قشوراً زائفة .. وبدأت تجنح إلى العزلة لتجلس وحيدة مع فتاها ، يهمس فى أذنيها همسات العشق ، ويكسب فيهما ألحان الهوى .

ولكن الفتاة لم تكن حرة في أن تحتجب كما تشاء .. أو تهب نفسها لرجل دون سائر الرجال ، فقد كان الناس يعتبرونها ملكا لهم أجمعين .. تماماً كضوء الشمس ونور القمر .. لا حق لأحدهم فى الانفراد به دون الآخر .. بل الكل لديه سواء .. يمتع به الفقير فى عشه كما يمتع به الغنى فى قصره .

وعلى ذلك فقد كان ذهول الناس شديداً وغضبهم أشد .. تماماً كذهولهم وغضبهم حين يرون أنفسهم ذات مرة وقد توسط القمر كبد السماء فى ليلة صافية الأديم ، وأشرق عليهم بضوئه الفضى فغمرهم فى فيض من النعيم والمتعة .. ثم يرون الدنيا قد أظلمت فجأة فإذا بهم فى حلكة دامسة ، وظلمة كئيبة موحشة ، وإذا بضوء القمر قد تركز كله فى شعاع واحد ، واتجه إلى فرد منهم يخصه وحده بنوره ، ويترك سائر العبيد يهيمون فى الوحشة والظلام .

وأحست الفتاة غضب الناس وقرب انفجار ثورتهم .. فعزمت على الهرب

مع فتاها .. وتركت المجد والشهرة ؛ ونبذت الثروة والجاه واستبدلت بالنعيم الأجوف الصاخب نعيما أكثر عذوبة وأحلى مذاقا .

واختفت الفتاة مع عاشقها ، وتركت قصرها العظيم ينعى من بناه وعاشت فى قرية هادئة تنعم بالحب .

وانتقلت الفتاة من طبقة الصاحبات إلى طبقة الزوجات ، فقبعت وراء الجدران تبنى عشها الصغير ، وتهيئه للصغار القادمين .

وأظهرت لها بقية الزوجات الحب والمودة ، ورحبن بانضمامها إلى طبقتهن أشد الترحيب ؛ فأنست إليهن واندمجت فيهن .

ولكن طبقة الزوجات لم تكن مخلصة فى حبها للفتاة ولا جادة فى الترحيب بها ، فقد كان كل هذا تظاهراً منهم وخداعا ومخاتلة ورياء ؛ فقد كن يكرهنها من صميم قلوبهن ، ويحقدن عليها ، إذ كان فى قلب كل زوجة منهن حرقة ، ولم ينسين بعد كيف انتزعت منهن أزواجهن ، وكيف أصبح كل رجل لا ينطبق لسانه إلا بذكرها ، ولا يخفق قلبه إلا بحبها .

وصممت الزوجات على أن يثأرن لأنفسهن منها فاتفقن على أن يدبرن لها مؤامرة محبوكة الأطراف ، واقترحن عليها أن تذهب معهن ذات يوم لزيارة معبدهن وتقديم الولاء لإلهة الزوجات ما دامت قد انضمت إلى طبقتهن ، وسارت الفتاة معهن حتى وصلن إلى المعبد ، فطلبن منها أن تجلس أمام تمثال الإلهة حتى تتلقى بركاتها .

ولم تكد تجلس الفتاة .. **حتى انهلن عليها رجما بالحجارة .**

والفتاة لا تكاد تجد منقذا من براثنهن .. وظلت الحجارة تتهاوى عليها من كل حدب وصوب .. حتى سقطت الفتاة وأصبحت جثة هامدة .

وعلم الرجال بما حدث ، فثارت ثائرتهم ، وتمنى كل رجل لو استطاع أن يفديها بجسده .. وهجر الأزواج زوجاتهم ولعنوهن فى كل صلاة وتوسلت الصاحبات إلى إلهتهن أن تثأر لهن من الزوجات الشريرات اللاتى غدرن بزميلتهن وفتكن بها .

وسواء أكانت إلهة الصاحبات قد استجابت لدعائهن .. أم كان هذا من صنع القدر .. فقد انتشر فى البلد طاعون خبيث عجل بالموت وخطف الأرواح .. ورأت الأمهات أولادهن وفلذات أكبادهن يسقطون صرعى أمام أعينهن دون أن يجدن لهم منقذا .

وأحس الرجال أن لعنة الآلهة قد حلت .. وأن هذا هو ذنب الفتاة المسكينة البريئة ، ووجدوا أن خير ما يرفعون به لعنة إلهة الصاحبات هو أن يشيدوا للفتاة الراحلة معبدا يقدسونها فيه .. فلعل هذا يرضيها فترفع عنهم الطاعون .

ويبدأ العمل فى المعبد بسرعة البرق . وكان الرجال يتساقطون صرعى من المرض .. فحل مكانهم غيرهم من الرجال ولم تكف الأيدى لحظة واحدة عن العمل حتى انتهى بناء المعبد .

وتشاء الأقدار العجيبة أيضاً ألا ينتهى وضع آخر حجر فى المعبد إلا وقد ذهب الوباء وأمن الناس شره .

وقام المعبد عالى الصرح رفيق البنيان ، يشير بازدراء إلى الزوجات الحاقدات الغيورات .. وثوت فيه الفتاة الحبيبة إلى كل قلب .. هانئة راضية ، فما استطاعت الأنانية والغيرة أن تبعدا عنها القلوب .. أو توقفا الحب والوله ، وما خلا معبدها لحظة واحدة من آلاف النفوس الحزينة العامرة بالحب .. وعبدها الرجال فى موتها كما عبدوها فى حياتها .

هذه قصة نرويها حدثت منذ خمسة وعشرين قرناً .. وقد ذهبت الفتاة .. وذهب الرجال .. وذهب المعبد .. ولكن أتراهم حقاً قد ذهبوا .. أم بقى أمثالهم فى كل عصر وعهد .. وهل استطاع الرجل أن يحل المشكلة بينه وبين المرأة ؟ أم توارى مختبئاً خلف ستار الزواج .. أو الخدعة الكبرى ؟؟



كسرى وصاحبه

وقد غفر كسرى لاراسبيز حبه لباثيا ... ولكنه يعيب عليه استعمال العنف ... ويعده بأن تكون المرأة له إذا استطاع بمهارته أن يجذب قلبها نحوه .

ساد السكون .. وخيم الصمت . بعد أن خبا لهيب المعركة فما عاد يسمع هناك قعقعة ولا صليل .

وبدأ المنتصرون يحصون الغنائم والأسلاب .. ليقتسموها فيما بينهم .

كان ذلك منذ آلاف السنين ، في نحو القرن الرابع قبل الميلاد في عهد كسرى الأكبر أمبراطور الفرس ، وقاهر بابل والدولة الأسيوية ، وكان جيشه قد خاض غمار معركة رهيبة ضد الأشوريين ، فصال فيها وجال ، وأذاق عدوه الأمرين ، وخرج منها وقد أثملته خمرة الظفر وأسكرته نشوة الفوز .

وكان القوم في ذلك الوقت تعودوا أن يذهبوا إلى ميادين القتال ، وقد حملوا معهم كل مايملكون من حطام الدنيا .. من مال وعبيد .. وكواعب غيد .. ولو

أن ذلك يثقل كاهل الجيش ، ويضاعف مشقة تموينه في الميدان .. إلا أنه كان لدى القوم اعتقاد أن المحارب يزيد من استبساله علمه بأنه إنما يدافع فى قتاله عن أعز مايملك .. وتأكده أن فقده المعركة ، يعنى فقده كل عزيز لديه ، وذهابه إلى أيدى عدوه .

وكان كسرى – رغبة منه في تقوية جيشه وزيادة جنده – لايفتأ يظهر شتى ضروب الشهامة والمروءة ، ولاسيما مع أسراه وسباياه ، وكان كثيراً ماينتهز فرصة تقسيم الغنائم فيظهر فيها مبلغ كرمه ، وشدة إبائه ورفعة نفسه .. فكان موضع إجلال واعتبار من صديقه وخصمه على السواء .

وكانت العادة قد جرت على أن يبدأ الذين بيدهم تقسيم الغنائم فى إعطاء الآلهة حصتها من الأسلاب .. اعترافا لها بالحمد والشكر لما حبتهم به من نعم وجعلتهم من الظافرين .

ثم يأتى بعد ذلك دور كسرى .. وكان من نصيبه فى هذه المعركة خباء فخم لأبروداش أحد قواد الأشوريين ، وكان به زوجته الفاتنة الحسناء ، ومعها جواريها من راقصات ومغنيات ، وبقية الخدم والأتباع .

ولما وصل كسرى النبأ .. طلب – أراسبيز – صديق طفولته ووكل إليه أمر الخباء وكلفه بحراسة الأميرة وتوابعها .

وشعر أراسبيز بعبء هذه المهمة التى ألقيت على كاهله فسأل كسرى :

– هل رأيت هذه المرأة التى كلفتنى بحراستها ؟

– كلا .. لم يقع نظرى عليها بعد .

– لقد رأيتها عندما كنا نوزع الغنائم ، ولم أستطع تمييزها لأول نظرة عندما دخلت الخباء .. فقد كانت ترتدى نفس الملابس التى ترتديها تابعاتها .. ولكن

النظرة الثانية إليها علمتنى أنها نسيج وحدها .. لقد وقفت عندما أمرتها بالوقوف .. فكانت قطعة أبدع الله فى صنعها .. كانت تبكى بكاء مراً .. وحاولنا طمأنتها والتخفيف من لوعتها .. فقلنا لها إنها قد أصبحت ملكا لكسرى العظيم .. سيد ملوك العالم قاطبة .. فما زادها هذا إلا عويلا ونحيبا .. حتى لقد شقت خمارها فبدأ منه رأسها وتعرت رقبتها حتى الكتف .. فشع منها السحر حتى كاد يذهب بأبصارنا وعقولنا ..

ثم صمت لحظة وأردف :

– اذهب اليها .. لترى الفتنة وضعت فى امرأة .: اذهب وانظر .. فترى عيناك .. أكثر مما سمعت أذناك .

وهز كسرى رأسه ثم أطرق وقال :

– ياصاحبى لن أذهب إليها قط .. لن ألقى بيدى إلى التهلكة سأفر من هذه الفاتنة .. وسأمعن فى تجنبها كلما أمعنت فى وصف جمالها .. أنت تعلم أنه ليس لدى وقت للهو والحب .. فلو كانت صاحبتك كما وصفتها .. لأذهب جمالها منى العقل .. فارتميت فى أحضانها .. وفقدت معاركى وكنت من الخاسرين .

فضحك أراسبيز ساخراً وقال :

– كسرى العظيم يقول هذا ؟ أتصدق ياسيدى أن مجرد النظر إلى الجمال مهما كان سحره .. يمكن أن يفتن الرجل القوى .. فيوقعه فى شراكه ويجعله يتخبط كفأر فى مصيدة ؟ . كلا ياسيدى . كلا .. لو كان قولك صحيحاً .. لكان الجمال كنار مستعرة .. تحرق بشواظها كل من لمسها .. ولكنا رأينا كل من حول هذه المرأة قد اكتوى بنيران حبها .. وجن من فرط هواها .

إن الحب ياسيدى لايمكن أن يكره عليه المرء .. إنه أمر يفعله الإنسان بمحض إرادته .. وبمشيئته واختياره .. فهو ليس – كما تتصور – أغلالا يكبل بها المرء . أو أسراً يقع فيه .. والإنسان حر فى أن يحب أو لايحب .. وليست المسألة مسألة جمال .. فقد يجذبنى جمال لايحرك فيك ساكناً .. وقد رأى جمالا لايكلفنى حتى مشقة النظر إليه .. ثم تراه فيتركك صريعاً لاحراك بك .

وعلى أية حال .. فإننى أعتقد أن ذا الحجا .. يستطيع أن يسير فى الطريق الذى يريد أن يسير فيه .. ولن تستطيع امرأة .. مهما بلغت من السحر أن تثنيه عن غايته .

وكان كسرى يسمع لصاحبه مطرقا فلما انتهى صاحبه رفع إليه رأسه سائلا :

– إذا كان الأمر كما تقول ياأراسبيز ، فلم لايكف الناس عن الحب ؟ .. لم لايستطيع هؤلاء الذين تحطمت حياتهم على مذبح الحب .. أن يفروا منه ؟ وهؤلاء الذين ذهبت عروشهم فى سبيل الحب .. فذلوا بعد عز .. لم لم يتمكنوا من الإفلات من شراكه ؟ وأولئك الذين أدمت أقدامهم الأشواك الملقاة فى طريق الحب فتعثروا فيها لم لم يطرقوا طريقاً آخر ؟

– هؤلاء هم ضعاف النفوس.. خفاف الأحلام ! ولعمرى لاأدرى لم نصفح عن أولئك الذين لايستطيعون أن يكفوا عن الحب .. ونعاقب أولئك الذين لايستطيعون أن يكفوا عن السرقة وهم فى الجرم سواء ..

فإذا كان الأخير لايبرر جرمه أن ماسرقه قد أغراه بالسرقة .. فلم يبرر حب العاشق أن الجمال قد أغراه بالحب ؟

إن الذين تسميهم بضحايا الحب .. هم أولئك الذين لايصلحون فى الحياة لشىء ولو لم يكونوا ضحايا حب .. لكانوا ضحايا أى شىء آخر .. بل لكانوا

ضحايا أنفسهم .. وضحايا عجزهم وضعفهم ، وكل مافى الأمر أنهم جعلوا الحب ستاراً يخفون خلفه نفوسهم الواهنة ..

ولم لاتأخذ منى مثلا ياسيدى ؟ وقد رأيت هذه المرأة التى ركبت فى عينيها .. بل فى كل جزء من أجزاء جسمها .. قوسا وسهاما .. فهى لاتفتأ تصيب الناظر إليها .. بالسهم تلو السهم .. حتى يسلم إليها .. أو يسقط صريعاً .. فما استطاعت أن تصيبنى بخدش .. لالشىء إلا لانى أعلم أن ليس لى أن أحبها لأنها ليست ملكا لى .. بل ملكا لك .

- قد تكون صادقاً .. ولكن تذكر أنك لم تر المرأة إلا مرة واحدة فقط !! لقد أبيت إلا أن تشبه الجمال بالنار التى تلهب كل من لمسها .. ولكنى أؤكد لك أن النار أخف وطأة .. لأنها لن تلهبك إلا إذا وضعت يدك فيها .. أما الجمال فصاحبته يمكن أن تصيبك وهى بمنأى عنك .. فتشعل فيك الفؤاد .. وتلهب القلب ، فلا تشعر إلا حين تصبح هشيما تذروه الرياح .. وإذا بك يا صاحبى قد أصبحت دون أن تدرى من ضحايا الحب ..

وافترقا .. وكل منهما مازال عند رأيه .. وكان آخر ما قاله أراسبيز :

- إنى لن أقع فى شراك حب لاأرغب فى الوقوع فيه .



وأسرع أراسبيز إلى الخباء .. وقدم نفسه إلى صاحبته .. وكانت تدعى بانثيا وأخبرها أنه قد أصبح من تلك اللحظة مسئولا عن راحتها .. وعن توفير كل ما يلزم لها .

وشكرته بدورها على عطفه ورقته ، وأفهمته أنها عندما وقعت فى الأسر كانت تخشى أن يذيقوها صنوف التعذيب والتشريد ، فضحك أراسبيز وأفهمها

أن شيئاً من ذلك لايمكن أن يحدث ، وأن عليها أن تعتبر نفسها كأنها بين أهلها وعشيرتها .

ومرت الأيام وإذا بأراسبيز قد أصبح يطربه الجلوس إليها وتشجيه نبراتها .. وتسحره بسماتها ..

وبدأت أحواله تنقلب رأساً على عقب .. فإذا به وقد بدا شارد اللب .. غارب البال .. كأن هناك هما يقض مضجعه .. ويسبب لوعته .. وإذا بمرحه قد تبدل صمتاً ووجوماً ..

وكانت بانثيا لاتفتأ تظهر له تقديرها لعطفه عليها وبره وبها ، فكانت تدعوه بين الحين والآخر للعشاء معها .. وكانت راقصاتها ومطرباتها يشنفن آذانه ويدخلن السرور على قلبه .

وفي ذات يوم أصيب أراسبيز بالحمى ، وإذا به طريح الفراش يهذى من الألم .. فتطوعت بانثيا لتمريضه وجعلت من مرضه الأليم .. حلماً جميلاً .. وظلت تكلؤه بعنايتها وتشمله برعايتها حتى أبل من مرضه وردت إليه صحته .

★ ★ ★

وأحس أراسبيز بعد ذلك .. أن زمامه قد أفلت .. فلم يعد فى طوقه بعد أن يكبح جماح نفسه .

عجباً ! ذلك الرجل القوى الجبار .. الذى كان يسخر من ضحايا الحب .. ومن ضعاف النفوس . ذلك الرجل الذى كان يسخر من شهواته ولذاته .. ويتحكم فى نفسه كما يتحكم فى سلسلة يطويها على أصبعه .

عجباً له ! لقد جرفه الحب كما يجرف السيل حصاة صغيرة .. أين إرادته ؟ وأين سيطرته على نفسه ! بل أين هى نفسه ؟ . لقد حطمها الحب .. فإذا بها ولهى حائرة .

ومما أضناه وزاد من وجده أن حبه كان من جانب واحد .. فقد كانت بانثيا لاتحمل له إلا صداقة لاتشوبها شائبة .. وما صرحت له قط بأكثر من ألفاظ الصداقة وعرفان الجميل ، بل أكثر من هذا أنها كثيراً ما كانت تصرح له بشدة حبها لزوجها وفرط إخلاصها له .

ولم يكن كسرى طيلة هذه المدة قد قرب الخباء ، أو رأى صاحبته .. ولكن أراسبيز بالرغم من ذلك لم ينس قط أن المرأة إنما هي ملك لكسرى .. وأنه لايمكن له أن يقرب مال غيره .. فما بالك بمال كسرى .. ملكه وصديقه ؟

وهكذا اعتبر أراسبيز نفسه كالمصاب بداء عضال .. لا أمل له في برء ، ولارجاء في شفاء .. وحدث أن طلب أحد الضباط من كسرى أن يعطيه إحدى جاريات بانثيا فأجابه كسرى إلى طلبه بدون تردد ، وكانت السهولة والترحاب اللذان خلع بهما كسرى الجارية على الضابط مما شجع أراسبيز على أن يخرج عن صمته ، فاعترف بحبه لبانثيا التي قابلت اعترافه بدهشة وتعجب ، وأفهمته بأدب أن قلبها مشغول بحب زوجها وأنها لايمكن أن ترضى بغير زوجها بديلا .

ولما كانت بانثيا مازالت تشعر بصداقتها نحوه ومازالت تذكر جميله معها فقد عملت جهدها على ألا يصل إلى أسماع كسرى شيء مما جرى بينهما حتى لايغضب على صديقه .

ولكن أراسبيز كان قد تمكن منه الداء حتى أفقده صوابه ، إنه قد ينال بالعنف ماعجز عن أن يناله باللين ، فبدأ يسيء معاملتها .. ووجدت بانثيا نفسها قد أصبحت معرضة لشتى ضروب الإهانة ، وأنها بدأت تعامل كأي جارية أخرى من سبايا الحرب ، فلم يسعها إزاء ذلك إلا أن ترسل إحدى جواريها إلى كسرى لتخبره بجلية الأمر ، ولترفع إليه شكواها .

ولما وصل الأمر إلى مسامع كسرى كاد ينفجر من الضحك .. وتذكر محاضرة أراسبيز عن الحب وعن قوة الإرادة . وعجب كيف جعل الحب هذا الرجل القوى أشبه بصبية المدارس .. ثم أرسل لأراسبيز الرقعة التالية مع أحد أصدقائه :

« لقد غفر كسرى لأراسبيز حبه لبانثيا .. ولكنه يعيب عليه استعمال العنف .. ويعده بأن تكون المرأة له إذا استطاع بمهارته أن يجذب قلبها نحوه » .

ولو كان كسرى قد أمر بقتله لما أثر ذلك فى نفسه قدر ما أثرت هذه الرقعة ، لقد ضرب له كسرى مثلا فى كرم الخلق والرجولة .. وبكى أراسبيز بعد أن رأى كبرياءه تتحطم ..

وتقابلا بعد ذلك فحاول كسرى أن يسرى عن نفس صاحبه .. فأخبره أنه يعتبر نفسه مسئولا عما حدث له .. لأنه ألقى به وسط النيران .. وأن الآلهة نفسها لو وضعت مكانه لسقطت في الشرك . فزاد ذلك التسامح فى ثورة أراسبيز على نفسه ، وأخبر كسرى أن روحه ستظل معذبة شقية ، وأنه لذلك يجب أن يرسل بعيداً ويظل مختفياً أبد الدهر .

فرد عليه كسرى :

– إنى أقترح عليك علاجاً يشفى ما بنفسك من حزن ويأس .. ويمكنك بواسطته أن تؤدى لوطنك ولى خدمة جليلة .

فصاح أراسبيز وكأنه غريق ألقى إليه بطوق النجاة :

– هاته ياسيدى .. فسأفعل ماتأمر به ولو كان فى ذلك هلاكى .

– ليس عليك إلا أن تدعى أنك تخشى أن أنزل بك العقاب على ما فعلت ثم تفر هارباً ، وتذهب إلى معسكر الأشوريين .. ولاشك أنه لن يكذبك أحد ،

ولك أن تسبني وتلعنني كما تشاء .. حتى تدخل في روعهم أن هروبك إليهم ليس بخدعة .. ويمكنك كذلك أن تذكر لهم من المعلومات عن جيشنا ما لاترى خطورة في ذكره .

وذكر له كسرى مايود الحصول عليه من معلومات عن أعدائه .. وشرح له ما يرغب من التفاصيل .. وأراسبيز مغتبط أيما اغتباط بهذه الفرصة التى سنحت له للتكفير عن سيئته .. وأخيرا سأله كسرى :

– ولكن هل تظن في نفسك القدرة على مفارقة بانثيا ؟

وهنا ظهر الانفعال على وجه أراسبيز وقال مطرقا :

– ستعينني الآلهة على ذلك .

ورحل أراسبيز ومعه بعض المخلصين من خدمه ، ولم يكن هروبه موضع دهشة ، فقد كان أمراً طبيعيا . وساء بانثيا أن تكون قد صادقت مثل هذا الرجل الخائن الذى يفر إلى أعداء وطنه وملكه .. فعرضت على كسرى أن ترسل لزوجها كى ينضم إليه وكان ذلك يسر كسرى كل السرور ، فقد كان لدى أبروداتي القدرة على أن يضم معه قوة هائلة من فرسان الأشوريين ، وكان ذلك مما يدعم جيشه .

وأرسلت بانثيا لزوجها رسولا تعرض عليه الأمر فرحب كل الترحيب بالانضمام إلى كسرى العظيم .. وسرعان ما كان في معسكر كسرى موضع الكرم والعناية .. والتقت بانثيا بزوجها بعد طول فراق .

وفي وقت قصير أصبح أبروداتي محل ثقة كسرى وذراعه اليمنى ، وكان من أقدر قواد الفرسان ، فبدأ في تنظيم فرسان كسرى وتدريبهم حتى جعل منهم في وقت قصير قوة لايستهان بها .

وذات يوم جلس كسرى يتشاور مع قواده فدخل عليهم رجل غريب المنظر ، وماكاد يقترب من القوم حتى علت منهم صيحة وقالوا فى نفس واحد :

- أراسبيز الخائن .

ولشد ما أدهشهم أن الذى يسمونه خائنا قد احتضنه كسرى بين ذراعيه فى شوق ولهفة ، ثم بدأ يفهمهم أن أراسبيز لم يكن خائناً وأنه كان فى مهمة شديدة الخطورة كان كسرى قد اتفق معه عليها ، وأن فراره إلى العدو كان أمراً مدبراً .. وأن أراسبيز رضى أن يضحى بحياته فى سبيل وطنه وملكه .

ولما عرف القوم ما كان من بطولة أراسبيز أقبلوا عليه يهنئونه فى إعجاب وتقدير .. وشعر هو أنه قد نال جزاء تضحيته فملأ قلبه السرور .. فقط .. لو كانت بانثيا هنا . لترى أنه لم يكن رجلا خائناً إذن لما كان على وجه الأرض من هو أسعد منه .

ورأى أراسبيز بين القواد رجلا غريباً لم يره من قبل .. رجلا طويل القامة نبيل تقاطيع الوجه .. وعندما سأل هامساً من يكون الرجل .. أخبروه بأنه أبروداتى .

وكانت صدمة له شعر بعدها أن كيانه قد تزعزع .. وأن أمله فى الحياة قد أصبح سراباً كاذبا .

وبدأ الشيطان يبث فى نفسه الأمل بأن أبروداتى رجل جسور وأنه لاشك ملاق حتفه فى معركة من المعارك ، وبعد ذلك يخلو له الجو ، ولكنه شعر بالخجل يملأ نفسه لمجرد التفكير فى ذلك .

وكان كسرى على وشك أن يقوم فى هذا اليوم بهجوم ساحق على الأشوريين الذين غزوا ليديا بجيش كبير .

وكان كل شيء على تمام الاستعداد فلم تك تنقص إلا الإشارة بالبدء حتى تنطلق الجنود والخيل كأنها الريح العاصفة .

وظهر الفرسان رائعين فى خوذاتهم ودروعهم .. وظهرت عربة أبروداتى كالطود الأشم تجرها ثمانية جياد مطهمة .

وقبيل المعركة اصطف الجيش فظهرت بانثيا تتقدم إلى زوجها حاملة فى يدها درعا من الذهب الخالص صاغتها من حيلها دون أن يعرف زوجها حتى تكون مفاجأة سارة له قبيل أن يخوض غمار المعركة .

ونظر إليها زوجها نظرات تمتلىء بالحب والإخلاص وقال .

– سأثبت لك أنى أستحق هذه الدرع .

وأعطيت إشارة التقدم فانطلقت الجياد كأنها البرق .. وعلا الصهيل والصليل .. وبدأ الكر والفر .. وقبل أن تتحرك عربة أبروداتى شوهدت بانثيا وهى تطبع قبلة أخيرة على بابها ، ثم انطلقت العربة .

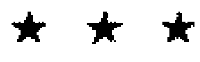
وانتهت المعركة بانتصار كسرى .. وعاد قواده رافعى الرأس ثملين بخمرة الفوز .. إلا قائداً .. كان أكثرهم شجاعة .. وأشدهم جرأة .. وذلك هو أبروداتى .. فقد قضى نحبه بعد أن ألبس جيشه أكاليل الغار .

وعلم أراسبيز بموته .. فتخبطت الأفكار فى رأسه ، وساءل نفسه : هل خلا له الجو الآن ؟ لقد وسوس له الشيطان أن أبروداتى قد يموت فى إحدى المعارك فتصبح بانثيا له .. والآن وقد مات أبروداتى .. هل حقيقة قد أصبحت

بانثيا له ، وأحس أنه قد أصبح يتخبط فى ظلام حالك .. وشعر أنه قد أجرم فى تفكيره .. وأنه من الضالين .

وعلمت بانثيا بالأمر الجلل فخرجت فى هدوء .. وسارت بين جثث القتلى حتى عثرت على جثة زوجها .. فقتلت نفسها فى صمت .. فرخرت بجواره جثة هامدة .

وشوهد أراسبيز بعد ذلك .. وكأنه شبح من الأشباح .. يهيم على وجهه .. وهكذا ذهب الرجل الساخر من الحب .. ضحية من ضحايا الحب .



امبراطورية وجواد

واتفق الستةلا على طريقة الاقتراع ، وهو أن يمضى كل منهم على جواده إلى نقطة متفق عليها خارج المدينة ، حيث ينتظرون طلوع الشمس ، وأن الفائز هو من يصهل جواده قبل غيره بعد شروق الشمس مباشرة .

كان ذلك حوالى سنة ٥٢١ قبل الميلاد ، وقت أن كانت مصر وفارس وبلاد الأغريق مهداً للحضارة والعمران ، وكان غيرها قفراً يبابا لا يرى فيه سوى الوحشة والخراب .

مات «سيروس» وخلفه على عرش الأكاسرة ولداه «قمبيز» و «سمردى» مقتسمين ذلك الملك الواسع ، وكان أولهما فظاً غليظ القلب ، مصاباً بالصرع ؛ فكرهته رعيته ، وانفض من حوله الشعب ؛ أما سمردى فكان ليناً فى غير ضعف فأكرمه الشعب وأنزله من نفسه منزلة الآلهة مما أحنق عليه قمبيز .

وحدث أن رأى قمبيز فى نومه حلماً أثار ضغينته : رأى سمردى جالساً على عرشه وقد طالت هامته حتى مست السحاب ، وفسر له الحلم بأن أخاه

سيطغى عليه فيسلبه ملكه ، وأقض ذلك مضجعه وراح يفكر فى التخلص من أخيه ، فبعث إليه بأحد أتباعه الأخصاء ويدعى «بركساس» فقتله وواري جثته الثرى دون أن يشعر به أحد .

وكان بلاط الملك يضم جماعة من النبلاء يعرفون بالمجوس ، وكان «سيروس» قد أضعف شوكتهم وجردهم من سلطانهم ، وكان أحدهم يدعى «سمردى» ومن غريب المصادفات أنه كان شديد الشبه بسمردى الملك القتيل ، إلى أحد أن كان الناس يخطئون فى تمييز أحدهما من الآخر ، وكانت هذه الظاهرة العجيبة « مقرونة باختفاء الملك الفجائى » سبباً لأن يفكر سمردى المجوسى فى انتحال شخصية العاهل الراحل، والتربع على أريكة الحكم ، ثم المناداة بعد ذلك بخلع قمبيز والاستئثار وحده بالحكم ..

وكانت الظروف مواتيه لسمردى وجماعته ، إذ خرج قمبيز فى ذلك الوقت فى إحدى غزواته ، فانتهزوا الفرصة وأعلنوا على الملأ خلع قمبيز . وقابل الشعب ذلك بالابتهاج والفرح ، بينما جن جنون قمبيز وهو يرى نفسه يتردى فى الهاوية التى حفرها لأخيه . وسخر به الناس عندما راح يذيع بينهم أن سمردى هذا إن هو إلا مخاتل خادع ، وأن أخاه سمردى الحقيقى قد انتقل إلى جوار ربه ، وأنه أعلم الناس بذلك إذ هو الذى أمر باغتياله ! ولكن هذه الدعوى لم يصدقها الشعب الذى حسبها حيلة من قمبيز للإيقاع بأخيه .

وهكذا فقد قمبيز الطاغية عرشه ، وأملاكه وزوجاته ، ثم ما لبث أن فارق الحياة متأثراً بسموم جراحه التى أصابته فى ميدان القتال ..

وعندما خلا الجو لسمردى قضى سبعة أشهر فى عزلة تامة أبطل خلالها الاستقبالات الرسمية وكل سبيل إلى مقابلته مما أثار الريب فى النفوس .

وكان بين كبار القوم رجل يدعى (أوتان) يعرف الملك سمردى جيداً ، فرابه منه ذلك التبدل الفجائي وكان يسمع بسمردى المجوسى وبشدة شبهه بالملك ، ويعلم كذلك أنه قد ارتكب عدة جرائم قطعت من أجلها أذناه .. ولذلك رأى أن يستخدم ابنته (فاديما) إحدى زوجات قمبيز اللائى آل أمرهن إلى الملك الجديد - فى استجلاء الحقيقة ، فبعث إليها بأحد أخصائه يسألها ما إذا كان الملك الذى تعيش معه هو حقيقة سمردى ابن سيروس ؟ وكان جوابها أنها لم تر سمردى من قبل حتى تستطيع أن تجلو الحقيقة . فعاد ينبئها أن أفضل وسيلة للتحقق هى أن تنتهز فرصة نوم الملك فى مخدعها وتكشف عن أذنيه ، فإذا كانتا سليمتين فهو سمردى الحقيقى ، وإلا كان المجوسى المغتصب .

وفى ذات ليلة عندما جاء دورها ليقضى الملك ليلته فى مخدعها ، وأطفئت الأنوار إلا من ضوء خافت ينبعث من سراج شاحب هزيل لاحظت فاديما أن شعر الملك الكث قد غطى أذنيه تماماً ، وعجبت أنها لاترى أقراطاً تتدلى منهما كما كانت عادة البابليين فى التزين وقتذاك ، وعندما استغرق الملك فى نومه وتقلب فى فراشه ، وتهدل شعره على الوسادة ، تسللت فاديما من الفراش وعادت بالسراج تتأمل وجه الملك ، فإذا هو بلا أذنين .. !!

وفى الصباح أبلغت أباها ذلك النبأ الهائل ، فأفضى به بدوره إلى اثنين من خاصته هما (اسباتين) و (جبريا) واتفق ثلاثتهم على أن يختار كل منهم صديقاً يثق به ويعتمد عليه ليكونوا جماعة تكون نواة لمؤامرة كبيرة تعمل على خلع الملك المجوسى المغتصب .

وسرعان ما انضم إليهم «داراء الشجاع المقدام ، واتفق السبعة على أن يبدءوا العمل فوراً .

وحدث فى تلك الأثناء أن أراد الملك سمردى أن يضع حداً للإشاعات التى قامت بين الناس حول حقيقته ، فأوعز إلى «بركساس» أن يخطب فى الجماهير

من فوق أحد أبراج القصر العالية ليؤكد لهم أن الملك الحالى هو الوارث الحقيقى لعرش سيروس العظيم . وصعد الرجل البرج وبدأ فى خطابته ، إلا أن ضميره استيقظ فجأة وراح الندم يأكل قلبه ويخزه أشد الوخز ليكفر عن جريمته ، فانطلق يعترف بالحقيقة وبأنه قد قتل سمردى الحقيقى بإيعاز من أخيه قمبيز وأن سمردى المجوسى انتهز فرصة شبهه بالملك القتيل واستلب عرشه ، وذهل الناس وعقدت الدهشة ألسنتهم ؛ وزاد من وقع الخبر فى نفوسهم أن ألقى « بركساس » بنفسه من أعلى البرج وسقط بينهم على الأرض جثة هامدة .

انتهز المتآمرون السبعة هذه الفرصة المواتية وماغشى الناس والجند من ذهول ، وآثروا أن يفاجئوا الملك قبل أن يسترد جأشه من هول المفاجأة ، فاقتحموا عليه القصر دون أن يعترضهم أحد بسبب شخصياتهم البارزة المعروفة ، حتى بلغوا مخدع الملك الزائف وقضوا عليه وعلى بقية من كان حوله من الأخصاء .

وواجهتهم بعد ذلك أعظم مشكلة ، وهى أيهم أحق بتبوء العرش الذى خلا . ورغم أن أوتان كان أسبقهم إلى اجتلاء سر المجوسى المغتصب إلا أنه أبدى زهده فى الحكم واقترح عليهم أن يقترعوا فيما بينهم على من يرث عرش هذه الامبراطورية .

واتفق الستة على طريقة الاقتراع ، وهى أن يمضى كل منهم على جواده إلى نقطة متفق عليها خارج المدينة ، حيث ينتظرون طلوع الشمس ، وأن الفائز منهم هو من يصهل جواده قبل غيره بعد شروق الشمس مباشرة .

وعاد دارا إلى بيته ثم أرسل فى طلب « أوراب » سائسه الأمين الخبير بالخيل وطباعها ، ثم أفضى اليه بقصة الأقتراع ، وأخبره أن اعتلاءه العرش رهين بصهيل جواده فى الوقت المناسب . والتمعت عينا السائس الداهية ، ثم

أسرع إلى الإصطبل ينتقى فرسا جميلة شقراء لم يكن جواد سيده يراها حتى يهتاج ويثور . ومضى بالفرس إلى نقطة اللقاء خارج المدينة حيث ربطها إلى شجرة ضخمة ، ثم رجع إلى الإسطبل ليعود ممتطيا جواد سيده ، وأخذ يقترب من الشجرة التى ربطت بها الفرس ويدور حولها فى دائرة تضيق شيئاً فشيئا والجواد مضطرب مهتاج حتى لامس الفرس ، ثم ابتعد به ثانية رويداً رويداً حتى أعاده إلي الإسطبل ، ثم رجع أدراجه وأعاد الفرس بالمثل إلى مكانها .

وفى الفجر اعتلى «دارا» صهوة جواده ، وسائسه « أوراب » يسير فى ركابه بعد أن مسح بيسراه معرفة الفرس الشقراء . ودس يده مبللة بعرقها فى جيبه دون أن يمس بها شيئاً آخر .

وعندما وصلا مكان اللقاء وجدا الزعماء الخمسة الآخرين قد استبقوهما إليه الواحد بعد الآخر ، فى انتظار شروق الشمس .

واصطبغ الأفق بأشعة الشمس المشرقة التى أخذت تعلوه شيئاً فشيئا . والتفت جواد دار إلى الشجرة الضخمة التى ربطت بها الفرس الجميلة بالأمس ، وأخذ يتوثب مشوقا .

وفى هدوء وسكينة ، ودون أن يلحظه أحد ، أنزل السائس أوراب يمناه التى كان يمسك بها لجام الجواد وأخرج يسراه من جيبه وأمسك بها اللجام وهو يدنيها من أنف الجواد .

وما اشتم هذا رائحة الفرس التى لوثت بها يد السائس حتى تفتحت خياشيمه ، ووثب بغتة تجاه الشجرة ..

ثم صهل ، .

وترجل الخمسة الباقون عن جيادهم ، ثم أدوا التحية لدارا وبايعوه للتو عاهلا عليهم ..

وكأنما أرادت الطبيعة أن تشاطرهم التهنئة ، فبدت ظاهرة عجيبة لم يتوقعها أحد في هذا الجو الصحو ، إذ تلبدت السماء الصافية فجأة وانشقت زرقتها عن برق يكاد سناه يخطف الأبصار ودوى هزيم رعد يصم الآذان .

واعتلى دارا عرش الأمبراطورية العظيمة ، وأصبحت «فاديما» أحب زوجاته إليه ، وأكثرهن حظوة لديه .

الجمجمة

وخيل إليه أن الحجرة امتلأت بالجماجم التى تحولت إلى كئوس خمر ! فقفز من فراشه وتسلل إلى حجرة المائدة ليحطم الجمجمة التى كانت سببا فى هذا الفزع الذى أصابه .

كانت أراضى التيرول والنمسا والمجر ، فى مستهل القرن السادس الميلادى ، مسرحاً لنزاع عدد من القبائل البربرية التي جعلت من هذه المناطق دولتين ، إحداهما في الشرق ، وعلى رأسها الملك أوديون ، والأخرى في الغرب تحت زعامة الملك توريزون . ولم تكن الدولتان لتكفا يوماً عن الصدام ، فهما في نزاع مقيم ، وقتال لاينطفىء له أور أو يخمد له سعير ..

وفي إحدى المعارك التى كانت تدور بشدة وعنف ، رئى البيون ابن الملك أوديون - وكان فتى جريئا مقداما - وهو يندفع في جنون صوب أعدائه ، وقد أخذ يعمل فيهم الذبح والتقتيل ، بينما تركوه هم دون أن يصيبوه بأى أذى أو مكروه حتى التقى وجها لوجه بأحد أبناء توريزون فسدد إليه من رمحه ضربة أردته قتيلا ..

وبدأت كفة أوديون وجنوده ترجح خصومهم ، الذين أخذوا يتقهقرون ويتراجعون حتى تفرقوا أيدى سبا ..

وعاد أوديون وولده وقد أثملتهما نشوة الفوز ، وأخذ الأهلون فى جميع أنحاء المملكة يرفون في ثياب الفرح والغبطة الشاملة ويرتشفون كئوس النصر مترعة ، ويقيمون المآدب والحفلات في كل مكان ، واختلط الحابل بالنابل ، والهرج بالمرج ، فما كانوا إلا بين راقص وماجن ، هازل وعابث ..

وأقيمت المأدبة الكبرى فى القصر الملكى ابتهاجاً بالنصر ، فرفعت الأعلام وأضيئت الأنوار ، وكانت التقاليد العجيبة لهذه الدولة تحتم على الأمراء ألا يحضروا هذه المآدب ، ما لم يخلع عليهم أحد الملوك الأجانب سيفه ، فيقلده بذلك وسام الشرف والفروسية .

ولم يشعر ألبيون بضيق وحزن كما شعر يومئذ ، حينما عرف أنه سيحرم من حضور مأدبة القصر هذه ، وهو الذى كسب النصر لقومه ، وأذاق عدوهم مرارة الفشل والخذلان ، وحاول أهل القصر أن يقنعوا الملك العجوز بأن يشذ عن التقاليد مرة واحدة ، فيسمح لابنه الشجاع بالجلوس إلى جواره في المأدبة ، ولكنه أجابهم : مامن قوة على الأرض تستطيع أن تجعله يخرق تقاليد آبائه وأجداده !

ولم يكن ألبيون قد تعود الاستخذاء والاستكانة .. وزاده رفض الأب وعناده رغبة في حضور المأدبة .. فأصر على أن ينال وسام الشرف مهما يكلفه ذلك من ثمن .

وفكر الفتى فى أقرب ملك يستطيع أن يقلده سيفه ، فلم يجد سوى عدو قومه اللدود توريزون .

وقد كان من الجنون حقاً أن يفكر الفتى فى الذهاب إلى الملك ولايزال رمحه يقطر من دماء ابنه الذى أرداه قتيلا فى ميدان المعركة .. ولكن تهور الفتى وجرأته الجنونية كانا يهيئان له أن كل شىء ممكن فى هذه الدنيا !

.. وسرعان ما تسلل من القصر وامتطى صهوة جواده ، وقد اصطحب معه بعض أصفيائه المخلصين ، وانطلقت الجياد تسابق الريح قاصدة قصر خصمهم .

وكانت التقاليد وقتئذ توجب على الملوك ألا يصدوا أميراً يطلب إليهم وسام الشرف ، مهما تكن الظروف ، ومهما تبلغ عداوته لهم فكان واجبهم يقتضيهم دائماً أن يكرموا وفادته ، ويقضوا حاجته .

وما كاد ألبيون يصل إلى أبواب القصر حتى قال لحراسه إنه لم يأتهم كعدو ، وإنما يريد مقابلة الملك .

وأسقط فى يد الملك حينما أبلغه ألبيون مطلبه ، وكادت الدهشة تذهب بصوابه ، وعجب لوقاحة الأمير وجرأته ، وشعر بالألم يمزق قلبه عندما رأى القدر يضطره أن يرحب بقاتل ابنه ، ويحسن وفادته !

ولم يستطع الرجل أن يغالب دمعه عندما جلس إلى المائدة ، وأخذ يقلب ناظريه فيجد ألبيون يحتل مكان ابنه الراحل .. وكان الشرر يتطاير من عيون قومه ، وقد التفوا حول المائدة ، وغلت الدماء فى عروقهم ، وهم يودون لو استبدلوا بطعامهم جسد ألبيون وأصحابه فمزقوهم إرباً إرباً !

وكان كوينمود ، وهو الابن الأكبر للملك توريزون ، قد أخذ يصر على أسنانه حنقاً وغيظاً عندما وجد ألبيون ينظر إلى ابنته الفاتنة نظرات نهمة جائعة ملؤها الوقاحة والشهوة ، دون أن يخجل أو يرعوى ..

وبدأ كوينمود يتحرش بالفتى وجماعته .

وساء الفتية هذا التحرش بهم .. ولكن انتهى الأمر بتسليم الفتى وسام الشرف وعاد إلى قصر أبيه .

★ ★ ★

ومرت الأيام وتوالت السنون ، ومات الملكان العجوزان ، واعتلى ابناهما العرش كل في مملكته .. وبدأ ألبيون ينسى الحادثة فلم يعد في رأسه منها إلا صورة باهتة ، ولكن صورة واحدة بقيت عالقة في ذهنه ، هي صورة روزا موند ابنة كوينمود !

وخيل لألبيون أن الأيام قد أسدلت على الماضي ستور النسيان .. وأن كوينمود لن يمانع في زواجه من ابنته ، إذا هو تقدم لخطبتها .

وذهب الرسل إلى كوينمود يعرضون الأمر عليه .. فأثار ذلك حفيظته ، وتذكر أباه حين اضطر إلى مجاملة الفتى ، وقلبه يقطر دما ، وخيل إليه أن ألبيون يريد أن يكرر المهزلة مرة أخرى ، فطرد الرسل شر طردة ، وطلب إليهم أن يخبروا ملكهم ألا يعاود طلبه .

وغضب ألبيون ، وعاد يكرر طلبه مرة ثانية وثالثة ، ولكن رسله عادت بخفي حنين .. ووجد أن القوة هي خير وسيلة يقضي بها مأربه ، وكان أن وجه إليه جنوده فأخذت تهلك الحرث والنسل ، والزرع والضرع .. وانقضت على قوم كوينمود كأنها حجارة من سجيل ترميهم فتجعلهم كعصف مأكول .

وخر كوينمود نفسه صريعاً في أرض المعركة ، فأمر ألبيون بقطع رأسه وحفظها وأخذ ابنته أسيرة مع غيرها من السبايا ..

وعاد ألبيون إلى قصره يحمل شيئين كانا أثمن ما غنم في حياته : رأس كوينمود وجسد فتاته الحسناء .

وفي غمرة من نشوة النصر وفرحة الظفر ، عقد قرانه على الفتاة ، وأمر بأن تصنع له من رأس أبيها كأس يحتسي فيها الخمر ، حتى تصعد حمياها من رأسه ، فتكسبه نشوة فوق نشوة !!

وصفت الموائد ، ونثر فوقها ما لذ وطاب من أنواع الطعام ، وسالت الخمر أنهاراً وسيولا ، وجلس الملك إلى جوار عروسه وقد علاها الوجوم والحزن .

وفجأة ساد الحاضرين الصمت . واشرأبت أعناقهم ، وتطلعت أبصارهم إلى إناء عجيب أحضره الساقي ووضعه أمام الملك .. كان الإناء عبارة عن جمجمة مقلوبة وضعت على قاعدة ذهبية ، وصنعت لها يدان من الذهب المحلى بالياقوت ..

وبدرت من الفتاة صيحة مكتومة كأنها طير ذبيح ، فعضت على شفتيها حتى سالت دماؤهما .. ولكن القوم كانوا عنها ساهين !

وبدأ الملك يتجرع كئوس الصهباء في إنائه العجيب ، حتى أفقدته الخمر وعيه ، وقادته إلى فعلة لايجرؤ الشيطان عليها !

ملأ الملك الجمجمة بالخمر وأمر فتاته بالشرب على روح أبيها !!

ووقفت الفتاة مرتجفة الأوصال وكتم القوم أنفاسهم ، وجحظت عيونهم ، وهم يرقبون المشهد المثير !!

وأغمضت الفتاة عينيها ووضعت شفتيها على حافة الجمجمة .. ولم تلبث أن سقطت مغشيا عليها !!

وساد الهرج والمرج ، وحمل القوم الفتاة إلى فراشها ، ورقد الملك إلى جوارها وقد لفتهما الظلمة الدامسة ، وبدأت سحب الخمر تنقشع عن رأسه

رويداً رويداً ، وأخذ يفيق لنفسه ، ويدرك هول ما ارتكب ! ودار رأسه مرة أخرى ، وعراه اضطراب وخوف هائلان .. فمد يده يتحسس الفتاة التى رقدت بجواره ، ولكنه ردها بسرعة ، فقد اصطدمت بشىء بارد صلب ، وعاد يتحسسه مرة أخرى فإذا بالذى رقد بجواره هيكل عظمى ، وقد بدت جمجمته فى صورة إناء الخمر الذى أمر بصنعه .. وقلبت قاعدته الذهبية فظهرت فى أعلى رأس الهيكل !!

وصرخ الملك صرخة مدوية ، وأخذ يستغيث بصوت مبحوح وفتح باب الحجرة ، وبدت الخادمة تحمل فى يدها مصباحاً أضاءت به الغرفة !!

وعلى ضوء المصباح رأى الملك ماأفزعه وذهب بلبه ، إن المسألة لاتعدو وهما من الأوهام ، وأنه لم يرقد بجواره أحد سوى فتاته بلحمها ودمها ، وأن اضطرابه قد صورها له هيكلا عظمياً ..

وأمر الملك الخادمة بالانصراف ، وعاد إلى فراشه مرة ثانية .. وحاول النوم فلم يغمض له جفن ، وبدأت الأشباح تعاوده ، والاضطراب يعصف به .

كان الرجل فى سبيل الجنون .. أو هو جن بالفعل !

وخيل إليه أن الحجرة امتلأت بالجماجم التى تحولت إلى كئوس خمر !! فقفز من فراشه ، وتسلل إلى حجرة المائدة ليحطم الجمجمة التى كانت سبباً فى هذا الفزع الذى أصابه !

وفى غرفة المائدة ، رأى الملك منظراً عجيباً : رأى كويمنود قد جلس على المائدة ، وأمامه زجاجات الخمر ، ولم يكد يرى صاحبنا حتى صاح به :

– أين الكئوس ياصاح .. من علمك أن تدعو ضيوفك لتسقيهم الخمر بلا كئوس !!

وتسمر الملك فى مكانه . وعقد الهلع لسانه ، فلم ينبس ببنت شفة !

واستمر كوينمود فى حديثه يقول :

– خل عنك .. فلا حاجة بى إلى كئوس ، إن لدى كأساً لاشك أنه سيحلو لك الشراب فيها !

ثم مد الرجل يده إلى رأسه ! فاقتلع جمجمته بما فيها من شعر ، وبدأ يصب فيها الخمر ، ثم دفعها إلى الملك وصاح به :

– اشرب !!

ومد الملك يديه فى فزع وهو يقول فى صوت كأنه فحيح الأفعى :

– لاأريد أن أشرب !

– ألا تعجبك هذه الكأس .. ؟ وإذن فهاك كأساً أخرى !

ومد كوينمود يده فقبض بها على رأس الملك .

وشعر ألبيون بألم هائل ، وأحس أن جمجمته قد اقتلعت من مكانها ، فسقط على الأرض ، ولم يشعر بعد ذلك بشيء ..

★ ★ ★

وفى صباح اليوم التالى عثر أهل القصر على الملك جثة هامدة ، إذ أن قدمه زلت فى حجرة المائدة ، فهوى على الأرض واصطدم رأسه بقاعدة الجمجمة الذهبية التى كانت ملقاة إلى جوار المائدة عقب سهرة الأمس ، فتحطم رأسه وقتل لساعته .

ولم يعرف أحد لماذا ذهب الملك إلى حجرة المائدة .. وكيف زلت قدمه فهوى، ولكن أهل القصر جميعاً عرفوا أن جمجمة كوينمود قد انتقمت لصاحبها.

النبوءة

فطن الأب إلى أن عادة متوارثة فى عائلته قد
فاتته ، وهى أن يستشير العراف قبل الزواج لينبئه
إذا ما كانت هذه الزيجة موفقة أو مهددة بالفشل .

حاول الرجل منذ بدء الخليقة فرض سلطانه على المرأة ، ولم يعترف برسالتها فى الحياة ، ولم يحاول أن يرفعها إلى مستواه إلا بعد قرون عديدة من الرقى والتمدن .

والواقع أن جميع الأمم المثقفة فى العصور القديمة قد اعتادت أن تنزل بالنساء إلى الدرك الأدنى . إلا من أوتيت منهن جمالا وسحراً جردا الرجل من سلاحه وحملاه على الاعتراف بمركزها القوى وشخصيتها الجارفة ..

وظل الشرق أمداً طويلا يصر فى عناد عجيب على أن تكون للنساء مهمة واحدة لامهمة سواها . وهى أن يكن معامل تفريخ ومن بين البلاد الشرقية التى اعتنقت هذه النظرة البدائية شبه جزيرة كوريا . فقد كانت إلى عهد قريب ترى وجوب قصر مهمة المرأة فى الحياة على أن تكون زوجة وأما فحسب ..

وكانت إذا أنجبت أطفالا حرم الأناث منهم من التسمي بأسماء آبائهن وأطلقت عليهن أسماء مضحكة مستعارة لمجرد التمييز !!

وكان الزواج يتم بأن يعقد اجتماع استثماري يضم الآباء والأقارب والوسطاء ، وينتهي باختيار الزوج أو الزوجة الملائمة دون أن يعني أحد بأخذ رأي العروسين ! ولذلك كثيراً ماوجدت الزوجة نفسها مكرهة على معاشرة رجل فظ . غليظ القلب . أو دميم الخلقة أو ثقيل الظل ! وكان القانون لا يجيز الجمع بين زوجتين ، ولكنه يبيح المزوج أن يتخذ من يشاء من المحظيات ، وإن كان يحرم على أبنائهن حق وراثة آبائهم ما دام لهم أبناء شرعيون من زوجاتهم .. وعلى الرغم من هذا كانت المحظيات أسعد حالا من الزوجات وأهنأ ، لأن الرجال يختارونهن عن حب ووجد ، وبمحض إرادتهم ، فكن موضع إعزاز وإكرام ، وكثيراً ماوجد الرجل في محظيته مايفتقده في زوجته التي زفت إليه من غير معرفة أو اختيار ..



وفي جزيرة كوريا وبإحدى مدنها الهامة وفي بيت نبيل من نبلائها الواسعي النفوذ والثراء حدثت هذه القصة .

كان لهذا النبيل ابنة فاتنة وابنة أخ جميلة كفلها بعد أن توفي والدها وهي في المهد ، فدرجت مع ابنته حتى أصبحتا كالتوءمتين جمالا وصحة وقواماً ، وتبادلتا الحب كأنهما شقيقتان .

ولما بلغتا سن الزواج أعدت قائمة بأسماء النبلاء والأمراء والعظماء ليختار منها من يليق بابنته وتخير الأشراف واحداً من الأمراء ليكون زوجاً لابنة صديقهم الكبير ..

ومضى الرسل بالوثائق اللازمة إلى مدينة الزوج البعيدة ليعرف أى زوجة شاءت الأقدار أن تكون عشيرته . ثم عادوا بعد شهور يصلون شكراً لله على أن وفقهم فى مهمتهم ، ويزفون للأب الأنباء الطيبة عن صهره .

وحزم النبيل رايه على أن يختار أميراً أو نبيلا آخر لابنة أخيه بعد أن تزف ابنته إلى خطيبها ، وحدد موعداً لذلك الزفاف وقامت الاستعدادات على قدم وساق لاستقبال الخطيب الشاب بما يليق به من عظمة وأبهة ..

وعندما كان الأمير فى طريقه إلى خطيبته ، ولم يبق على وصوله غير أيام ثلاثة .. فطن الأب إلى أن عادة متوارثة فى عائلته قد فاتته ، وهى أن يستشير العراف قبل عقد الزواج لينبئه إذا ما كانت هذه الزيجة موفقة أو مهددة بالفشل ..

وكانت كوريا حاشدة بالعرافين ، وكان على رأسهم جميعاً عراف أعمى اشتهر بقدرة فذة على التنبؤ بما يخبئه القدر فى حناياه .

ولما دعاه النبيل ليقرأ طالع الزوجين صاح :

– لشد ما حدت عن جادة الصواب يامولاى ! .. إن فى هذا الزواج هلاكا لابنتك الفاتنة ..

فذهل الملك وامتقع ثم هتف فى ذعر :

– كيف ؟ هل بلغ بالرسل الأمر إلى النكاية بى ؟! وهل هذا الخطيب من السوء بحيث يهدد ابنتى الوحيدة بالتهلكة !؟

فأطرق العراف الأعمى برأسه برهة ثم أجاب فى تؤدة وإصرار :

– لقد خدعوك يامولاى .

فأسقط في يد النبيل وضاقت عليه الدنيا بما رحبت وراح يتساءل كيف ينقذ ابنته من هذا الوحش الآدمي الذي حسبه خير الأزواج ؟

وفجأة .. ومضت بخاطره فكرة جعلته يثب من مكانه والدنيا لاتسعه من فرط الفرح ، فقد هداه الدهاء إلى حل يخرجه من هذه الورطة القاسية ! وجرى إلى الحريم- وكانت ابنته تضع على رأسها تاج العرس وترتدي ثوب الزفاف - فصاح بوصيفاتها أن يجردنها مما عليها ويضعنه على ابنة أخيه التي ستزف إلى العريس القادم !

وغشى القوم الوجوم والعجب وذهلت ابنته وهي لاتدري هل مس والدها الخبل أو الجنون ! ولكن الأب صاح صيحة أخرى أعادت إلى القوم رشدهم فأسرعوا يطيعون ماأمر ..

وعندما وفد الأمير انحنى للخطيبة المزيفة ، وانحنت له بدورها وبذلك تم الزواج ! وكان ضمير الأب يؤنبه لأنه دفع بابنة أخيه إلى التهلكة التي لم يرضها لابنته ، وراح يلوم نفسه على أنانيته وهو يجعل من الفتاة اليتيمة كبش الفداء ، ولكنه ما أن شاهد الخطيب حتى استرعته رجولته واستهوته دماثته ، وفطن إلى خطأ العراف وراح يسأل نفسه في غصة بادية .

- أهذا هو الرجل الذي حرمت ابنتي منه ؟ ترى كيف أعيد الأمور إلى نصابها ؟ كيف أرجع هذا الكنز إلى ابنتي التي سلبتها إياه بطيشي وحماقتي ؟ أيخدعني عراف ويشككني في الرسل المخلصين الأذكياء ؟!

وراح يقدح زناد خاطره ويقلب وجوه التفكير .. وأخيراً انبسطت أساريره وقد اهتدى إلى حل لهذه الورطة الثانية .



كانت المشكلة أيسر مما بدت فى أول الأمر وأهون مما تصور عند المفاجأة ، فما كان عليه سوى أن يأمر بإجراء تبديل آخر فى الحال ، فتجرد ابنة أخيه من ملابسها ، وترتديها ابنته ، ولن يدرك الزوج شيئاً لأن الفتاتين متشابهتان وجهاً وقواماً ، ولاشك أن الأمير لم يتفرس فى وجه الفتاة ولم يرها إلا رؤية عابرة .

وفى الصباح قهقه الأب ضاحكا .. وقال للأمير :

– سأقص عليك قصة طريفة ياولدى ، قصة مغامرة جريئة اضطررت إليها وكنت أنت طرفاً فيها .

ثم راح يروى له قصة العراف ونبوءته التى ظهر كذبها ، مما جعله يلجأ فى آخر لحظة إلى خدعة طريفة أتاحت لابنته أن تكون زوجة الأمير . وأخيراً فرك يديه فى إعجاب ثم سأله ضاحكا :

– مارأيك ياصاحبى ؟ الم تشعر بهذه الخدعة ؟

فأجابه الشاب باسماً :

– سواء أكنت لم أشعر بها أم تجاهلتها فهذا لايغير من الحقيقة ، وهى أن ابنة أخيك زوجتى الشرعية أمام الله والقانون ، بعد أن عقدت عليها زواجى عندما انحنيت لها على المنصة المقدسة . أما ابنتك فقد عاشرتها من غير زواج فأصبحت محظية لى !

انقضت الصاعقة على رأس الأب فوجم وتسمرت حدقتاه . وأردف الأمير قائلا :

– مبعث الخطأ أن ابنة أخيك لم تجد من يحميها . أما ابنتك فقد وجدت من أفرط فى حمايتها فأساء إليها عن غير قصد !

وبعد أسبوع آخر غادر الأمير القصر تصحبه زوجة شرعية هى الفتاة اليتيمة ، ومحظية هى ابنة النبيل الداهية !!

بعد العاصفة

فعاودها الحنين القديم ، وأصابها قلق على حبيبها المهاجر ، وتمنت لو كانت بجانبه تدفع عنه الشر والأذى ونسيت ما كان من خيانته لها ، ولم تعد تذكر إلا أنه قد مات وحيداً وسط العاصفة.

نسمات من الريح هبت تحمل فى جوفها صوت شاد يترنم ، وحنين قيثار يشدو ، فينفذ إلى القلوب تغريده ، ويمس النفوس سحره ..

إيه ياشادية الليل .. ! لقد جعلت كل ما فى الكون أرواحاً تتناجى .. وعشاقاً يتطارحون الغرام .. حتى لكأن شدوك لحن من ترانيم الطبيعة .. كحفيف الأوراق وخرير المياه .. أو هو صوت هبط من السماء ليطهر النفوس من أدران الأرض ، ويلفها فى أضواء السماء .. إيه يافاتنة سان بريير .. لقد جعلت كل ما حولك مرابع للجمال ومراتع للفتنة .. وسرى صوتك فى الجزيرة الهادئة .. فاهتزت له الأوراق .. وتمايلت الأغصان .. وانتشى الطير فى مضاجعه ..

جوزفين .. فاتنة المارتنيك (إحدى جزر الهند الغربية) .. ونموذج الجمال .. المكتمل من كل نواحيه .. الذى يصرع القلوب من غير رفق ولالين .. والذى يعززه ذلك الذكاء الخارق .. والإحساس المرهف والنبوغ فى كل نواحي الفن .. من أدب ورسم وموسيقى .. وأخيراً هذا الصوت العجيب .. الذى يخلب اللب .. ويسلب النهى .. هذا الصوت العذب ، الذى لاتكاد صاحبته تغنى أو تقرأ أو تتحدث حتى تنصت الآذان .. وتهفو القلوب .. ثم لايكاد السامع يفهم مما تنطق به كلمة واحدة من فرط افتتانه بالصوت وعذوبته .

هذه الروح العبقرية الموهوبة .. قد اتحدت مع ذلك الهيكل الفاتن الجميل .. فكونا نفساً واحدة هى حسناء شأن برييز .. جوزفين الساحرة .

فى ذات صباح صفت سماؤه .. وسطعت شمسه .. خرجت الفتاة تتنزه كعادتها بين الأحراش وتحت ظلال النخيل .. فصادفت فى طريقها بضع فتيات من الزنوج قد جلسن إلى عرافة عجوز .. محدودبة الظهر .. شمطاء عجفاء .. قد سلبتها السنون كل مظاهر الحياة ، فما هى إلا جلد على عظم .. وقد أخذت تخبرهن بنبوءاتها عن مستقبلهن .. وهن مأخوذات مشدوهات ..

واقتربت الفتاة من العجوز لتتسلى بحديثها الخرافى .. ومدت يدها مرحة ضاحكة .. لتقرأ لها كفها ولتخبرها بما خفى من أمرها ، وما كان منه وماسيكون .. ولم تكد العجوز تلقى أولى نظرة على الكف الغضة البضة التى أمسكت بها فى راحتها .. حتى تراجعت إلى الوراء مأخوذة ، وندت عنها صيحة دهشة ... بينما ابتسمت الفتاة الجميلة فى خبث .. وسألت العجوز فى دهشة مصطنعة :

– ترى ماذا روعك من كفى ؟!

وأجابت العجوز فى صوت خافت كأنما تحدث نفسها :

– يا للفتاة العجيبة .. إنى أبصر أمامك كثيراً من شقاء وكثيراً من هناء .. أرى طريقك قد فرش بالأشواك المشرعة .. وبالزهور اليانعة .. أرى فيه لوعات وبسمات .. وأسمع فيه أنات وضحكات !!

– أفصحى ياأماه عما ترين .. !

– لن تصدقينى يابنية .. فإنى أراه أبعد من أن تصدقه أذن .. وضحكت الفتاة وأجابت :

– إنى لن أصدقه فعلا .. حتى ولو لم يكن عجباً كما ترينه .. ولكن ماذا يهمك أن أصدقك أو لا أصدق .. قوليه وأمرك إلى الله ..

وصمتت العجوز برهة ثم تركت كف الفتاة فسقطت إلى جانبها وقالت هامسة :

– ستتزوجين بعد فترة قصيرة .. ولن يكون زواجك سعيداً .. فستهب عاصفة تنتزع منك زوجك ، وستصبحين أرملة .. وبعد ذلك .. لاتسخرى يابنية مما سأقول ولاتضحكى .. فهو ماتنبئنى به الكف .. بعد ذلك ستتربعين على عرش فرنسا ..

ورغم ذلك التحذير الذى ساقته إليها العجوز لم تستطع الفتاة المرحة أن تكتم ضحكتها ..

هى ستصبح ملكة فرنسا ؟ ياللعجوز البلهاء ! مالها هى ولعرش فرنسا .. !

إن أحلامها لاتكاد تتطاول إلا إلى الزواج من صاحب المزرعة المجاورة .. لتكون هى ربة المزرعة .. فذلك هو كل ما تطمح إليه .. ربة مزرعة فقط .. لاملكة ولا أمبراطورة ..

ومرت الأيام .. ونسيت الفتاة نبوءة العجوز حتى بدأ يلوح فى أفق حياتها .. عنصر من عناصر النبوءة .. فى صورة ضابط صغير هو الفيكونت ألكسندر بوهارنى . وهو أحد سكان الجزيرة الذين رحلوا عنها للاشتراك فى الحرب الأمريكية .. وقد عاد أخيراً ليطالب بأملاك قد ورثها .

والتقى الفتى بالفتاة .. فتركهما اللقاء .. وكلاهما فى لهيب من الهوى يتأجج .. ونار من الصبابة تستعر .. فقد استهواه فيها جمالها الفياض وحديثها الساحر . واستهواها فيه قوامه الممشوق ومخاطراته ومجازفاته . وكانت فى السادسة عشرة وكان فى العشرين .. وفى هذه السن لايملك صريع الهوى المحتوم إلا أن يذعن لسلطانه العاتى .. بل أنه لايكاد يحس سوى متعة الحب .. ونشوة الغرام ..

★ ★ ★

تزوج العاشقان .. وبعد فترة قصيرة رحل بها إلى فرنسا .. وسارت حياتهما هنيئة ناعمة .. فأنجبا غلاما بعد عام من زواجهما .. وأنجبا بنتا فى العام الثالث .

وفى هذا الوقت كان البلاط الفرنسى يصطخب بحياة الخلاعة والفجور ، وكانت الطبقات الأرستقراطية غارقة فى ملاذها ومتعها ، وقد سيطرت عصبة منها على البلاط فحجبت بفجورها وتهتكها تلك الطيبة وذلك الهدوء الذى كان يشمل لويس السادس عشر .. وكانوا سبباً لذلك المصير الذى تردى فيه الحكم الفرنسى فيما بعد .

وكان سوس الفساد ينخر فى كيان القوم ، وكان الشيطان قد ركب رءوسهم .. فأصبح العبث دينهم واللهو والمجون مذهبهم .. ولم يعد الفسق برذيلة تستحق الاستتار .. بل مفخرة تستوجب الافتخار .. ولم يعد بالمستغرب

أن يكون لكل زوج خليلة بل من المستغرب ألا يكون له عدة خليلات يتنقل بين أحضانهن .

وبين هذا الفسق والفجور .. والتهتك والمجون .. بدأ بوهارنى يحيا حياته الجديدة .. وأخذت سحب الحب تتقشع من رأسه .. فإذا به ينسى قديم هواه .. وإذا به يخون العهد فينزلق فى .. مهاوى الفتنة .. ويتردى فى مواطن الفساد .. وبين عشية وضحاها حطم بيده ذلك الهيكل الذى وضع فيه معبودته القديمة .. بعد أن هجر عبادتها وكفر بها .

وانهارت تلك العائلة النموذجية .. وتحطم قلب جوزفين عندما أبصرت بنفسها مهجورة مهملة .. وتعللت بالأمل وتركت الزوج المفتتن ينهب من اللذات جهده .. وعلمت أن مصيره إلى العودة إلى وكره بعد أن يمل حياته الصاخبة .

ومرت الأيام والزوجة المهجورة مازالت فى وحدتها .. والطير الهارب مازال يعيث فساداً ، ولم يفكر بعد فى العودة إلى وكره ، وبدأت تحس بحياتها مرة مضنية .. حتى كلمات التعزية التى كانت تساق إليها من صديقاتها اللاتى حاولن أن يخففن من لوعتها ، كانت تقع عليها وقع السياط ، فقد كانت تحطم كبرياءها وتذل من نفسها .. وهى الأبية العزيزة ..

وأخيراً صممت على أن تعود إلى وطنها الأصلى .. إلى سان بريير العزيزة .. حيث لاصخب ولاضجيج .. ولافجور ولاشرور .. إلى سان بريير الجميلة .. موطن الذكريات .. ومنبع الحب والهناء حيث لم تبصر من الحياة إلا جانبها المشرق البراق .. وحيث لم تشعر إلا بمرح الطفولة ، ونشوة الهوى والشباب ..

وبدأت السفينة تبحر بها وطفليها عائدة إلى جزر الهند الغربية .. وأخذ

ساحل فرنسا يبتعد عن ناظرها رويداً رويداً .. وشرد ذهنها في الذكريات الماضية .. فتذكرت فيما ذكرت نبوءة العجوز العرافة ..

وأحسست بمرارة في نفسها ولوعة في قلبها ..

ملكة فرنسا ؟!!

ياللنبوءة الساخرة الهازلة !! هذه التي ستتربع على عرش فرنسا .. لم تستطع أن تتربع على عرش بيتها .. وعادت طريدة شريدة .. يضنيها اليأس وتذلها مرارة الخيبة وألم الحرمان .. ترى لو رأتها العجوز الآن ... بعد أن عادت من فرنسا تجر أذيال الفشل والهزيمة .. أكانت تصر على أنها ستتربع على عرش فرنسا !! ..

ووصلت جوزفين إلى بيتها القديم وسط الأحراش وبين النخيلات الباسقة ، ومرت بها الأيام هادئة ساكنة حتى انصرم من العمر ثلاث سنوات كانت تحمل في طياتها البداية الحقيقية لأقوى عاصفة هبت في تاريخ فرنسا بل في تاريخ أوربا كلها ... وهي الثورة الفرنسية ...

ففي عام ١٧٨٧ عندما أبحرت جوزفين من فرنسا بدأت الجماهير تتحفز للوثوب ، ثم أخذت العاصفة تشتد في خلال سنتي ١٧٨٨ و ١٧٨٩ .. ووصلت الأخبار إلى جوزفين وقتئذ بأن زوجها قد اندمج في الحركة الجمهورية ... فعاودها حنينها القديم وأصابها قلق على حبيبها الهاجر ، وتمنت لو كانت بجانبه تدفع عنه الشر والأذى ، ونسيت ما كان من خيانته لها ، ولم تعد تذكر إلا أنه قد بات وحيداً وسط العاصفة .

وعادت جوزفين مرة أخرى إلى فرنسا ... فوجدتها أتوناً تضطرم فيه النيران .. والتقت بزوجها ، فإذا به رجل آخر .. قد صهرت نفسه الحوادث وذهب عنه طيشه وافتتانه ... وكان كل منهما يشعر بلهفة إلى الآخر

وحنين ... فعادت العائلة مرة أخرى إلى وكرها ... وأحس الزوجان أنه لا غنى لأحدهما عن الآخر فى وسط تلك العاصفة المخيفة ..

وكان بوهارنى قد طأطأ رأسه لتلك العاصفة التى زلزلت نظام الحكم فى فرنسا .. فخلع عن نفسه لقب الفيكونت وذهب لقيادة الحملة الموجهة ضد ألمانيا وسمى وقتئذ بالجنرال بوهارنى .

وكان فى ميدان القتال أكثر أمناً على حياته من أولئك الذين كانوا فى باريس .. فقد بدأ الأستقراطيون يفرون منها ، خشية أن تدهمهم العاصفة .

ولكنه مع ذلك عاد إلى باريس رابط الجأش ثابت الجنان ، فقد خيل إليه أنه يستطيع أن يكون آمناً وهو الرجل الجمهورى الذى كان رئيساً للجمعية .

وكانت العاصفة على أشدها والجماهير الثائرة متعطشة إلى الدماء . والمقصلة لا تكل ولا تنى .. وقد سقط رأس الملك والملكة فى السلة المجاورة للآلة الحمقاء .. بكل مهانة وازدراء ..

يا للحاكم الذى ينسى شعبه ويذكر نفسه .. ويركبه الغرور فيركب رأسه وتخدعه الحياة ببريقها الزائف فلا يبصره بزيف يومه وخدعة أمسه إلا حلكة قبره وظلمة رمسه ..

ويا للشعب الذى لا يستطيع أن يكون إلا ظالماً أو مظلوماً ... فلا يكاد المظلوم يثور على ظالمه حتى ينسى نفسه ويظلم غيره .. هو لاينكر السيئة إلا إذا وقعت عليه .. أما إذا وقعت منه فليست بسيئة ..

وهكذا انقلبت الأحمال الوديعة المظلومة إلى ذئاب قتالة ضارية .. لا تشبعها إلا الرءوس المتطايرة ..

وباتت جوزفين كالملايين غيرها من الزوجات ترتجف فزعا كلما طرق البيت طارق .. خشية أن يكون نذير سوء يطلب زوجها إلى السجن أو

المقصلة .. إذ لم يكن هناك امرؤ يأمن على حياته .. مادام « روبسبير » فى أوج قوته ..

وفى ذات صباح طرق الباب وتقدم من السيدة رجل يبدو عليه أنه صانع أحذية ، وأنبأها فى صوت خفيض أن تسرع بالفرار مع زوجها لأنهم قد وضعوا اسمه فى القائمة .. وأنه قد أتى ليحذرها لأنه يعتقد أن الجنرال بوهارنى رجل برىء ...

وسمع بوهارنى حديث الرجل فلم يرع منه .. وأصر على البقاء رغم توسل امرأته لأنه لم يعتد الفرار .

وقبيل الظهر .. سيق بوهارنى إلى لكسمبرج الذى كان قد حوله الثوار إلى سجن — وبعد مدة قصيرة .. أنذرت جوزفين بالفرار لأنها هى نفسها قد أصبحت فى خطر .. ولكنها أبت أن تفر وتترك زوجها ، وصممت على أن تبقى بالقرب منه حتى يصيبها ما يصيبه ..

وفى ظلمة الليل .. والأطفال رقود فى مضاجعهم .. سيقت جوزفين وحولها الرجال المدججون بالسلاح إلى الكارمليت التى كانت قد تحولت إلى سجن آخر .. وهناك وضعت فى غرفة واحدة مع سجينتين أخريين هما مدام داجليون وتريزا كايروس .. عشيقة تاليان عدو روبسبير اللدود .. والذى لم يستطع رغم قوة مركزه أن يمنع عشيقته من أن تودع غياهب السجون ..

وكان صانع الأحذية الذى حاول أن ينقذ بوهارنى وجوزفين .. يقوم بتهريب الرسائل بينهما .. وتمكن الاثنان من اللقاء لبضع لحظات .. وقد ظن كلاهما أن سراحهما سيطلق قريباً .. ولكن لم يكد كل منهما يودع الآخر حتى سبق بوهارنى مع غيره وسط الجماهير الصاخبة الحمقاء .. حيث لقى حتفه فوق المقصلة ..

وبعد يوم علمت جوزفين أنها ستساق مع بضع نساء أخر ليلقين مصيرهن المحتوم .. وكان من بين هؤلاء النساء تريزا كايروس التى تعودت أن يمر بها عشيقها تاليان ليراها من أسفل النافذة ، فلم يكد يمر بها فى ذلك اليوم حتى ألقت بورقة بها بضعة كلمات .

وفى نفس اليوم حدثت تلك المعركة الخالدة بين روبسبير وتاليان ..

وفى اليوم التالى مرت امرأة عجوز أمام نافذة السجن .. ونظرت إلى النساء اللاتى أطللن بوجوههن البائسة من النافذة .. ثم أمسكت ثوبها بأصابعها .. وأشارت فى الوقت نفسه إلى حجر ملقى على قارعة الطريق ..

وفكر النسوة قليلا .. فأدركن ماتعنى .. ثوبها يعنى robes وحجر يعنى pierre روبسبير ..

ولما رأت العجوز أنهن قد فهمن ماتقصد .. حركت يدها فوق رقبتها ..

لقد قتل روبسبير !؟

أيمكن أن يكون هذا معقولا ؟! أجل لقد سمعن بعد ذلك ضوضاء وضجة وفتح باب السجن .. واندفعت السجينات بغتة إلى الخارج .. وكان يسمع فى كل مكان فى باريس صدى هتاف يقول : « لقد أنقذت فرنسا » .

وبعد بضع سنين ، وبعد أن هدأت العاصفة ، التقت جوزفين بقائد صغير .. فتنه جمالها الرائع وصوتها العذب .. وأعجبها فيه أنه رجل غير عادى .. رجل ليس كغيره من الرجال .. رجل به شىء من الفظاظة رغم أدبه الجم . رجل استطاع أن يحقق لها نبوءة العرافة . لأنه لم يكن سوى نابليون بونابرت .

ياللعجوز البارعة .. لقد تحقق نبوءتها ، وتربعت جوزفين على عرش فرنسا .. ولكن بعد أن رملتها العاصفة ..

ذو اللحية السوداء

... وأغلق الرجل باب الغرفة وأحكم رتاجه ،
ثم دفن وجهه في يديه وأخذ يبكى !! ..
بكى ذو اللحية السوداء ... الرجل الذى ضربت
بغلظته الأمثال ..

أتراه كان شيطاناً .. أم بهلوناً مهرجاً ؟ .. به مس من الجنون ، أم سافك دماء يبقر البطون ؟!

كان رجلا كث الشعر ، غزير اللحية ، فظيع المنظر ، يخيل للناظر إليه أنه شجرة معشوشة لم تمتد إليها يد التقليم والتشذيب ، حتى ليصعب على الإنسان أن يرى تقاطيع وجهه ، وبريق عينيه، وسط ذلك الشعر الكثيف الذى ينبت غزيراً فوق وجهه وجسده !

وتأنق الرجل وتزين ، فكان في زينته أشد غرابة ، وأرهب منظراً .. إذ مشط لحيته الكثة السوداء ، وقسمها ثلاثة أقسام : جدل الجانبين ضفيرتين طويلتين ربطهما حول أذنيه ، وجدل القسم الأسفل ضفائر صغيرة عقد نهايتها على شرائط مختلفة الألوان تدلت فوق صدره !!

على أن الرجل لم يكن ليكتفي بذلك ، بل أمعن في الشذوذ ، فوضع شمعتين بطيئتي الاحتراق على جانبي رأسه عند حافة القبعة ، فكان لهيبهما يلقي على وجهه ضوءاً يظهر تجاعيده ، ويوضح أخاديده ثم تمنطق بالسيف ، وربط على صدره عدة مسدسات ضخمة ، حتى بدا كأنه مركبة قتال مدرعة !

ذلك هو إدوار تيتش ، ملك القراصنة ، وجبار البحار ، الشهير بذي اللحية السوداء .

ولد الرجل في ميناء برستول ، وبدأ حياته تاجراً شريفاً ، ولكن الحياة الهادئة المملة لم تكن ترضي طبيعته الثائرة ، فرغب عنها ، وأخذ يخوض حياة أخرى أكثر عنفاً وأشد خطراً ، حياة تجلت فيها مواهبه التي حبته بها الطبيعة ، وإذا به بين عشية وضحاها ، رجل شهير ذو حول وطول ، يذكر اسمه فيثير الخوف والفزع في قلوب الناس !

بدأ تيتش حياة القرصنة في عام ١٧١٧ ، حيث أبحر إلى أمريكا مع بنيامين هورني جولد .. وكان بنيامين قرصاناً ممتازاً ، حنكته التجارب ، ولكنه لم يكن في مثل جسارة تيتش وجرأته ، فسرعان ما بدأت شخصيته تفنى وتتضاءل أمام شخصية تيتش القوية الجارفة .. حتى أصبح الرجل بعد مدة قصيرة حاكما بأمره في السفينة ، فخضعت له النفوس ، وذلت الأعناق !

وبدأ تيتش أول غزواته مع شريكه بمهاجمة إحدى السفن الكبرى ، فسلمت له في الحال ، وأخذ ينهب ما فيها حتى أصاب منها ثراء طائلا ، وغنما كبيراً .

وفي الغزوة الثانية أصيب شريكه بجرح أودى بحياته ، فأصبح الرجل وحده صاحب السفينة ، لاشريك له ، ولا منافس ينازعه السلطان .

ولم يكن تيتش في أعماق نفسه بالرجل الفظ الغليظ القلب ، كما يبدو مظهره .. بل كان رقيق الشعور ، مرهف الحساسية ولكنه كان يعتبر هذه

الرقة والحساسية شر مابه ، وأن ما فى قرارة نفسه من مشاعر العطف والحنان .. إنما هو مرض يجب استئصاله إذا كان يعتزم حقاً المضى فى مهنته الجديدة التى لا تعرف معنى الرحمة أو الشفقة .

ويدأ الرجل يعود نفسه على الصرامة والقسوة ، وأخذ يسدل ستاراً يخفى به مافى نفسه من الشعور ، وكان ستاراً من وحشية زائفة وغلظة مصطنعة !! وساعده مظهره الخارجى وطبيعة تكوينه على أن يكون ذلك الرجل الذى تمنى أن يكونه : أشعث أغبر الوجه فظاً غليظ القلب ، يبعث منظره على الخوف فى النفوس والفزع فى القلوب .. وهكذا سار الرجل فى طريقه الجديد ، وشتان بين ظاهره وباطنه ، حتى لكأنه « جوزة الهند » ظاهرها خشن غليظ ، وباطنها صاف رقيق ! ..

وظهر الرجل كأنه شيطان رجيم ، تبدو على وجهه علائم الكراهية للخير ، ومظاهر الرغبة فى الإثم والعدوان ، فأثار ذلك الخوف بين أصدقائه قبل أعدائه ! وكان الرجل محقاً فيما فعل ، فقد كان بحارته وأعوانه من الطغاة العتاة ، استنسروا وتنمروا ، بحيث لم يكن يستطيع كسر شوكتهم إلا رجل مثل تيتش فى مظهره الجديد .

ونجح الرجل فى تمثيل شخصيته الجديدة كل النجاح ، فذاع صيته وانتشرت بين الناس أقاصيص مروعة عن مغامراته وشروره .. وخلع عليه كتاب الروايات من خيالاتهم ثوباً زاده هولا على هول حتى لقد أصبح الناس يخيفون به أطفالهم !

وقد كان الرجل فى بادىء الأمر يجد غضاضة من هذه القسوة التى يضطر إلى ارتكابها ، ولكنه بدأ يعتادها شيئا فشيئا حتى ألفها تماما .

ومرت الأيام ، وطبيعة الشر تتغلغل فى نفسية الرجل ، وطبيعة الخير

تنقرض وتضمحل .. وأخذت الوحشية المصطنعة تنقلب إلى وحشية حقة ، وأخذ الطغيان يصدر من باطن الرجل لا من ظاهره ، وتغلب المظهر على المخبر ، فإذا بالرجل كله قد أصبح كتلة من الشرور والآثام !

وفي ذات يوم ، عقب غزوة موفقة على سفينة ذات صيد وافر مكتنز ، رست السفينة على إحدى الموانى المنعزلة المتطرفة ، ونزل البحارة يتجولون في الميناء ، ويصرفون أنصبتهم من الأسلاب والغنائم في اللهو والخمر .. ورغم ماكان يثقل حقائبهم من ذهب وفضة ، فإن طبيعتهم الشريرة كانت تدفعهم إلى ماتعودوه من سلب ونهب ، فبدءوا يعيثون في الأرض فساداً ، وأخذوا يدخلون الرعب والفزع في المدينة : ينتهكون حرماتها ، ويغتصبون نساءها ..

وسار القوم في الطرقات سكارى يترنحون ، وقد أغلق أهل المدينة دورهم خائفين وجلين ، وساد المدينة سكون وصمت رهيب ، فلم يعد يسمع فيها إلا رنين ضحكات البحارة ونكاتهم البذيئة ..

وانتهوا من تجوالهم ، واخذوا يعودون أدراجهم إلى السفينة . وفي أثناء عودتهم رأى أحدهم كوخاً حقيراً قرب الشاطيء ، فأطل منه برأسه ، وإذا بغنيمة باردة ، وصيد ثمين !

رأى الرجل ثلاث فتيات يختبئن في الكوخ خوفا من فتك الطغاة ، فأثلج ذلك صدره ، وصاح بزملائه ينبئهم بالكنز الثمين !

وأقبل القوم يصيحون وقد تهللت وجوههم فرحا ، وقبضوا على الفتيات وساقوهن أمامهم إلى السفينة !

ووجد القوم في إحدى الفتيات سحراً عجيباً ، وجمالا فاتنا ، فقد كانت تبدو كأنها نسيج وحدها ، حتى خيل إليهم أنها لا يمكن أن تكون آدمية كغيرها من النساء ، وأنه لابد أن يكون في خلقها سر من الأسرار .. واستقر رأيهم على

أن يهدوها إلى ذى اللحية السوداء ، لأنه أقدر منهم على مقاومة سحرها ، ففى منظره المروع ، وقوته الخارقة ، مايتوازن مع فتنتها العجيبة ، ونظراتها النفاذة .

وذهب القوم بها إلى الرجل ، فأخذه جمالها لأول وهلة ، ولكنه تمالك نفسه واصطنع الجد ، وصاح بها فى عنف وشدة : من تكونين ؟ فأجابته ساخرة : ومن تكون أنت ..؟!

– أنا رب السفينة ، أنا سيد البحار ، ذو اللحية السوداء !

– أنت ؟؟. أنت ذو اللحية السوداء ؟.. كان يخيل إلى أن ذا اللحية السوداء خير من هذا بكثير ! لشد ماخيبت أملى ياسيدى !.. إن من يراك الآن يظنك مشعوذاً أو دجالا .. بهذه الضفائر المدلاة على صدرك ، والشموع الموقدة فى رأسك !

وصعد الدم إلى رأس الرجل ، واندفعت الشتائم تنساب من بين شفتيه ، وصاح بالقوم أن يسجنوا الفتاة فى أسفل السفينة ، وأنه سيتولى بنفسه تأديبها على ما تفوهت به !

وانفض الجمع ، وذهب الرجل إلى غرفته وهو يرتجف من الغضب . وكان أول ما فعل أن نظر إلى وجهه فى المرآة !!

وللمرة الأولى فى حياته ، وجد أن منظره أبعث على السخرية منه على الرهبة ، وأن الفتاة قد تكون محقة فيما قالت ...

وهنا قبض على الشرائط التى ربطت بها لحيته ، ونزعها بشدة ، ثم قذف بالشمعتين جانبا ، وارتمى على فراشه يفكر فى الفتاة !

وفى اليوم التالى ذهب إليها فى سجنها ، فقابلته الفتاة ضاحكة ، وأخذت

تقول في سخرية : الآن يبدو منظرك أحسن بعض الشيء !! إياك والعودة الى ذلك المنظر المضحك المخزى !

– ألا تكفين عن سخريتك وسوء أدبك ؟؟ سأريك كيف يجب أن يتحدث مثلك إلى القوم الكبار !

وصاح الرجل بأحد بحارته ، فأحضر له سوطاً ، هوى به على جسدها ، ثم تركها تئن وتتلوى !

وعاد الرجل إلى حجرته ، وهو يشعر لأول مرة فى حياته بألم عميق يمزق نفسه !! لقد خيل إليه أن السوط لم يكن يهوى على جسد الفتاة ، ولكنه كان يهوى على قلبه فيقطع نياطه !

ولأول مرة منذ اشتغل الرجل بالقرصنة ، أحس أن رقة قلبه قد بدأت تظهر ، وأن داءه القديم قد أخذ يعاوده !! لقد كان يظن أنه فقد الحساسية . وكان سعيداً بذلك .. ولكن هذه الفتاة قد حطمت ذلك الدرع من القسوة الذى خيل إليه أنه تحصن به ضد كل خور وضعف !!

وأغلق الرجل باب الغرفة وأحكم رتاجه ، ثم دفن وجهه فى يديه وأخذ يبكى !!

بكى ذو اللحية السوداء ! .. الرجل الذى ضربت بغلظته الأمثال !!

وبعد يومين ذهب إلى الفتاة مرة أخرى ، فقابلته فى صمت ووجوم . وقد بدا فى عينيها الازدراء !

– قال لها : أما عدت تتهكمين على بعد الآن ؟

– لا ياسيدى .. لن أتهكم عليك . لأنك لا تستحق حتى التهكم لقد كنت أسمع عن ذى اللحية السوداء ، وكنت أرسم له فى رأسى صورة عجيبة ، وكنت

أتمنى لو أراه .. رأيتك خاب أملى بعض الشيء .. فقد ساءنى ذلك العبث الذى كنت تصنعه فى وجهك ، ولكن عندما هويت على بالسوط انهارت كل آمالى ، فقد كنت أظن ذا اللحية السوداء ، بالرغم من قسوته .. رجلا شريفاً نبيلا .. ولم أكن أظن أنه يهوى بسوطه على فتاة ضعيفة عزلاء !

ولم ينبس الرجل ببنت شفة ، بل أدار لها ظهره ، وعاد سريعاً إلى غرفته قبل أن يرى أحد رجاله مظاهر الرقة والضعف التى بدت على وجهه ، وفى اليوم التالى طلب الفتاة إلى حجرته وأخذ يعتذر لها وأبلغها أنه أصدر أوامره بأن تعود السفينة إلى بلدتها ، حتى يعيدها إلى أهلها ! ..

وعجبت الفتاة ، وأدركت أن الرجل ذو قلب نقى ، ونفس نبيلة وإن كان مظهره يبدو خشناً غليظاً ، وأن الصورة القديمة التى رسمتها فى رأسها عن ذى اللحية السوداء .. لاتعدو أن تكون حقيقة واقعة وبدأت السفينة تتجه مرة أخرى إلى بلدة الفتاة ، وعندما وصلت الميناء ، كان الرجل والفتاة قد هام كل منهما حباً بالآخر !!

ووجد الرجل أن ذلك الحب سيفقده حتماً قدرته على السيطرة على رجاله وأعوانه ، وأن الفتاة قد صقلته وهذبته ، وأنه لن يستطيع أن يجمع بينه وبين شروره ووحشيته ، فكان عليه حتماً أن يبعدها عنه ، ويتركها فى بلدتها !!

ورست السفينة على الشاطىء ، وشعر الرجل بأن حياته توشك أن تظلم .. فجمع بحارته وأعوانه وأخبرهم أنه قرر أن يعتزل حياة القرصنة ، وأنه سيترك لهم السفينة بما فيها من أسلاب وغنائم ، وأنه لايريد إلا مبلغاً بسيطاً ينشىء به متجراً يعاونه على كسب عيشه !

وذهل البحارة ، وخيل إليهم أن الرجل يهزل ، ولكنه كان جاداً كل الجد ، فقد غادر السفينة مع الفتاة ، وفشل الجميع في إقناعه بالعدول عن فعلته ، وبدأت السفينة تبتعد عن عينيه رويداً رويداً حتى اختفت ، فسالت من عينيه دمعتان مسحهما بكمه ، ثم أعطى ظهره للبحر ، وعاد مع الفتاة إلى المدينة ..



نهاية قريبة

وكان يومئذ فى الحادية والثلاثين من عمره ..
وكانت فى الثانية والعشرين وفي ذلك الوقت من
العمر تبدو نهاية الحياة نائية بعيدة .. حتى ليكاد
المرء يتخيل أنها لن تأتى . ولكن ..

كان طريق كورونارى من أبهج شوارع روما وأكثرها ازدحاما فى خلال القرن السادس عشر ... وكانت تكثر به حوانيت صناع المصابيح وتجار العاديات ، فقد كان يخترق قلب المدينة إلى كوبرى سان انجلو ، وكان هو الطريق المؤدى للفاتيكان ، والذى كان يتدفق منه ذلك السيل الذى لا ينقطع من الحجاج فى طريقهم إلى القدم البرونزية لسان بيتر .

وكان المارة من هذا الطريق يرون من حين لآخر تلك الحوانيت التى اكتظت بالتحف والخزف ... وحوانيت من . نوع يفتح الشهية ويسيل اللعاب .. فقد ملئت بصنوف المطاعم .. وشتى المشارب من شواء تسبى رائحته البطون . وخمر معتقة « صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها » .

وكان حانوت الخباز بتروجا فاريللى .. رغم أنه قد عطل من عبير الخمر والشواء .. إلا أن أرغفته الطرية الساخنة .. ذات الوجه الأحمر المصقول كأنه وجه غادة خمرية فاتنة .. قد جذبت المارة فتهافتت على الحانوت من كل حدب وصوب .

وفى الواقع لم يكن هناك من يستطيع أن يجزم تماما .. ما إذا كانت تلك الأرغفة الساخنة هى التى كانت حقيقة تجذب تلك الزرافات من الحجاج .. أم أن ذلك الوجه الساحر الفاتن الذى كان يبدو خلف تلك الأرغفة .. هو الذى كان موضع السر ، وبيت القصيد .. ولكن أغلب الظن أنهم لو كانوا وقتئذ قد وضعوا صاحبة الوجه فى جانب .. والأرغفة فى جانب .. لولى الناس وجوههم شطر الفتاة ..

كانت الفتاة .. هى ستيلا ابنة صاحب المخبز وكان الرجل يقطن مع زوجته وابنته فوق الحانوت .. وكان تقيا ورعا ً ، قد ملأ الإيمان قلبه .. وقد كرس الرجل حياته لله .. ولابنته .. التى بلغ به حبها حد العبادة ..

وكانت الفتاة قد بلغت من الجمال حداً يضعها فى مصاف العجائب .. وكان أصدقاء أبيها يخشون على الفتاة من فرط جمالها . ولكن الرجل كان يقسم ويجزم أنه مادام على قيد الحياة فالفتاة لن ترى قط ما يحزنها أو تؤلم نفسها .

وكان ذلك العصر هو أكثر العصور ازدحاما بالعباقرة ونوابغ الفنانين ، وكان الكل يتنافسون على إعادة روما إلى مجدها القديم فى عهد قيصر .. وكان البابا يوليس الثانى هو خير مشجع للفن والفنانين فأغدق الأموال الطائلة على بناء سان بيتر .. وحشد كل قوى الفنانين فى سبيل إخراجه تحفة رائعة .. وكان برامانت وميشيلو انجلو ورفائل الذين خلدهم التاريخ .. على رأس أولئك الفنانين .

وكان رفائيل فى ميعة الصبا ومستهل الحياة .. ولكن الفنان الشاب استطاع أن يقفز درجات المجد في سرعة البرق . وإذا بصيته قد ذاع في الآفاق .. وبلغ فنه حداً من الروعة جعل البابا يطلب إزالة بعض الصور البديعة التى رسمها بيروجينو أستاذ رفائيل ومعلمه الأول .. حتى يعاد رسمها مرة أخرى بواسطة رفائيل .. ولكن الفنان الشاب استنكر هذا العمل ورفضه .. وأبى أن يكون جاحداً لفضل أستاذه ناكراً لجميله .

وبلغ من تقدير الناس له في ذلك الوقت وإعجابهم بفنه أن صوروه فى نفوسهم صورة سماوية إلهية ، ووضعوه في مصاف القديسين والأنبياء . وقد حدث ذات مرة أن صنع رفائيل صورة بديعة لكي توضع في إحدى كنائس باليرمو ، ووضعت الصورة في صندوق كبير ، وحملت على إحدى المراكب لكى ترحل إلى باليرمو ، ولكن السفينة تحطمت فى الطريق ، وفقدت الصورة ، فأحس الناس جميعاً أن فقدان الصورة كارثة حلت بهم جميعاً . وبعد ذلك بعدة أشهر عثر على صندوق يطفو في البحر بالقرب من جنوا فلما فتح وجدت به الصورة سليمة كما هي لم تصب بضرر ولم يمسها خدش . واعتبرها الناس معجزة من معجزات رفائيل .

وفي ذات يوم طلب أوجستو سيجى – وهو قطب من أقطاب الفن في ذلك الوقت – من رفائيل أن يرسم له عدة صور على جدران داره المسماه « فيلا فارنسينا» . وكانت الصور المطلوب رسمها تختلف كل الاختلاف عن تلك الصور التي تعود رفائيل رسمها على جدران الكنائس ، والتى أتقنها حتى بلغ بها حد الكمال . فقد كانت الصور تمثل بعض الخرافات القديمة في عهود الوثنية . وضمنها « انتصار جالاتيا » وكان الشعراء قد وصفوا « جالاتيا » (وهى كلمة لاتينية معناها اللبن) وصاحباتها من النساء المقدسات بأنهن ذوات ضفائر كسبائك الذهب .. وبشرة بيضاء كنور يخطف البصر .

وملكت الحيرة رفائيل . فإنه لن يجد وسط نساء جنوب إيطاليا من تصلح لكي تكون نموذجاً لذلك النوع الجديد من الصور .. وأعياه البحث فطلب من بعض أصدقائه معاونته في العثور على بغيته ، ومن بين الخطابات القليلة التي مازالت موجودة حتى الآن .. خطاب أرسله رفائيل لصديقه الكونت كاستيجليون يطلب معونته في البحث عن نموذجه المطلوب وضالته المنشودة .. نقتطف منه ما يلي :

« عندما أرغب في رسم صورة لامرأة جميلة . لابد لي من رؤية عدة نساء جميلات . وهاته الصور التي أرغب في رسمها الآن أشعر بعجزي عن وصفها ، فهل لي أن ألجأ إلى معونتك في البحث عن بعض النماذج التي يمكن أن ترضي خيالي .. وأشعر أن فيها ضالتي المنشودة ؟ أنا أعلم أن النساء الجميلات نادرات كالأصدقاء المخلصين . وعلى ذلك فيخيل لي أني سألجأ في النهاية إلى خيالي فأستوحيه ذلك الجمال العجيب الذي أرغب كل الرغبة في إظهاره » .



وفي يوم من الأيام .. وقد أعي رفائيل البحث عن ذلك الجمال العجيب الذي يرغب في إظهار روعته . كان الفنان يتجول في طريق كوروناري . عندما وقف فجأة كأن قدميه قد سمرتا في الأرض .. وفتح عينيه وأغمضها لكي يتأكد أن ما رآه حقيقة وليست أمنية تراءت له في الخيال .

في حانوت الخباز رأى صاحبنا .. ذلك الجمال الذي لم يره من قبل إلا في أوهامه وأحلامه .. رأى العنق العاجي الذي ركب فوقه وجه دقيق الصنع ، وفوق العنق والوجه ثروة من ذهب براق يأخذ بالأبصار ..

ولم تأبه الفتاة لنظراته .. فقد اعتادت حملقة الناس فى وجهها .. وبادلته نظرة . والتقت الأعين الناعسة بالأعين الجائعة .. فما اهتزت الأولى ولا شبعت الثانية .

وانصرف الفنان .. مكتفياً فى يومه بهذا القدر مصمماً على أن يعود فى اليوم التالى . ولكن لم تمض ساعة حتى عاد صاحبنا يحملق فى الفتاة ليشبع منها نهمه ، وفى المساء أرسل تلميذه جوليو رومانو لكى يجمع عنها كل ما يستطيع معرفته من معلومات .. لأنه كان قد صمم على أن يتخذها نموذجاً لجالاتيا .

وأخذ رفائيل بعد ذلك يحوم حول الحانوت يوماً بعد آخر دون أن يجسر على مواجهة أبيها العجوز . وأخيراً حزم أمره وجمع شجاعته ، ثم تقدم إلى الرجل وواجهه بما يريد قائلا : إنه أحد الفنانين وإنه على استعداد لدفع ما يطلب الرجل نظير السماح لفتاته بالجلوس أمامه ليستعملها نموذجاً لبعض صوره .

واحمر وجه العجوز واهتزت أطرافه من الغضب والانفعال ، ثم انفجر صائحاً :

– فتاتى أنا تستعمل نموذجاً لرسام ! . لابد أنك مجنون . اغرب عن وجهى وإلا ..

ثم ضرب المنضدة التى أمامه بقبضة يده . وأردف :

– ستيلا نموذج لرسام ؟ والله لو كان هذا الرسام هو ميشيل انجلو نفسه لما قبلت !

وحاول رفائيل تهدئة العجوز فسأله :

– حتى ولا رفائيل ؟

- رفائيل ؟ !! يالك من أبله !! إن فى إمكانه الحصول على كل نساء العالم لو أراد .. فهو فى غير حاجة إلى ابنتى . ولكنك على أية حال لست برفائيل فاغرب عنى ودعنى فى هدوء .

- يا أبت .. إن الفنان لايحتاج فقط إلى الفرش والألوان حتى يبرز إلى الوجود فنه .. فلابد له من كائن حى .. شبيه بذلك الكائن الذى فى خياله .. وإن ابنتك هى صورة طبق الأصل لما رسمته فى مخيلتى عن « جالاتيا » التى سأرسمها فى فيلا فارنسينا .. أنا رفائيل صديق البابا وإنى أطلب ابنتك من دون نساء العالم .

وذهل العجوز عندما وجد نفسه أمام رفائيل بدمه ولحمه . وارتج عليه فلم ينطق ببنت شفة .. وكانت الفتاة خلال هذه المناقشة لم يتحول بصرها عن الفنان الشاب الجميل وقد أخذ قلبها يدق بشدة .

وبدأ العجوز يسأل فى أدب عمن تكون جالاتيا ، وماذا ترتدى وأخذ رفائيل بهذا السؤال فلم يكن قد استعد له .. فقال متلعثما إنه لم يقرر بعد ماذا سترتدى لأنها ستكون خارجة من البحر .. ويحتمل أنها تكون قد سترت نفسها ببعض من قش البحر .. أو خمار رقيق .. وهنا لم يستطع العجوز أن يكبح جماح غضبه فصاح :

- ستيلا عارية ! .. أى عار يلحق أسرتنا بذلك ! كلا .. كلا .. لايمكن أن يحدث شىء من هذا .. هل ضاقت الدنيا عليك ياسيدى فلم تجد غير ابنتى تلبسها هذا العار !!

ووجد رفائيل أنه من العبث أن يناقش الرجل فلم يرد عليه بأكثر من قوله : على أية حال سيكتب البابا إليك .

وبدأ رفائيل يكرر زياراته يوماً بعد آخر .. عسى أن تلين قناة الرجل .. وكانت الفتاة تشعر بأنها تقترب من الفنان رويداً رويداً .. وبأنها تنتظر حضوره بلهفة تزداد يوما بعد يوم .

وأخيرا وصلت للرجل رقعة خطت عليها بضع كلمات .. في نهايتها إمضاء البابا نفسه .. فلم تمض لحظة إلا وستيلا قد حزمت أمتعتها ورحلت الى « بورجو نوفو » حيث ستوديو روفائيل .

ولم تكن الفتاة ليخطر ببالها قط أن هناك من يستطيع حملها على أن تعرض جسدها عارياً أمام رجل غريب .. ولكن عندما شملها الاستوديو ، ووجدت نفسها محاطة بمئات الصور واللوحات المليئة بالنساء العاريات وغير العاريات .. اقتنعت بأن مئات من الفتيات غيرها قد ضحين بحيائهن من قبلها على مذبح الفن .. وبدأ الخجل يذهب عنها بعض الشيء ، وأخذت نفسها تعتاد جو الاستوديو وتأنس إليه .. وشيئاً فشيئاً أصبحت الفتاة لاتجد غضاضة البتة فى الوقوف عارية أمام الفنان .. حتى لكأنها قد خلقت لهذا الفن .

ووجه هذا النموذج الجديد فن رفائيل إلى ناحية أخرى تختلف كل الاختلاف عما اعتاده من قبل .. لقد بدأ رفائيل يرسم شيئاً جديداً غير العذراء ويسوع والقديسين و .. شيئاً لم تخف روعته الملابس ، أو يحجب سحره الأقنعة والخمارات .. شيئاً تجرد من كل شيء عدا الأنوثة .. والفتنة .

وفي خلال الجلسات الطويلة التي كان يقضيها رفائيل أمام نموذجه الحى .. بدأ يقص الفنان تاريخ حياته للفتاة .. ويحكي أسراره وأشجانه .. ويحدثها عن متاعبه وعن آماله .

وقص عليها كيف يضايقه الكردينال ديفريو برغبته فى أن يزوجه ابنة أخيه .. وقد وعده رفائيل بذلك بالرغم من أن الفتاة ليس بها شيء من الجاذبية ،

وبالرغم أيضاً من أن البابا قد وعد أن يجعله كردينالا ، فى حين أن هذا الشرف لايمكن أن يناله رجل متزوج ، وعلى ذلك فسيكون زواجه بالفتاة عقبة كأداء فى سبيله .. وأنه لايدرى ما العمل فى هذه المشكلة ؟

وأجابته فى بساطة وهدوء :

– إذا كانت الفتاة تحبك حقاً فيمكنها أن تتنازل عن تلك المظاهر الرسمية السخيفة .. فتكون عشيقتك .. بدلا من أن تكون زوجتك فتتمتع بقربك .. دون أن تكون عقبة فى سبيل مستقبلك .

وبالرغم من أن الفتاة قالت ملاحظتها ببراءة وطهر .. وإخلاص لاتشوبه شائبة ، وبالرغم من أن رفائيل كان غارقا فى وحى من الفن وكانت كل جارحة فيه قد وجهت إلى تلك الصور التى انهمك فى إبداعها .. فقد أحس كأن لسعة تخزه ، وكأنما كان يشعر فى قرارة نفسه بافتتان خفى ، أزاحت عنه الفتاة الستار بالملاحظة التى أبدتها دون قصد .. فبدأ شعوره يظهر قوياً جارفاً .. وحاول الفنان أن يستمر فى عمله ، ولكن يده كانت مضطربة .. وكان الظلام قد بدأ يسقط .. فقرر أن يترك العمل الليلة .. ثم ألقى فرشاته جانباً .. ووجد نفسه مدفوعا بقوة لاتقاوم إلى التقدم إلى نموذجه الحى .. وأمسك له قبل أن يستطيع الإفلات .. وفى غمضة عين انهارت من أسسها تلك القيود الحمقاء والتقاليد الجوفاء التى تعلمها من قبل فى هذه الحياة .

★ ★ ★

وفى ذلك الوقت كان تلامذة رفائيل قد أتموا النقوش الابتدائية فى فيلا فارنسينا ، ولم يبق إلا الصور التى لابد لرفائيل أن يذهب إلى هناك لرسمها على الجدران ، ولكن الفنان كان قد أغلق الاستوديو على نفسه ، وأصم أذنيه عن كل نداء بالذهاب إلى هنالك .

ولم ير اجستوشيجى بدأ من الذهاب بنفسه لاستدعاء الفنان العنيد ..

وعندما دخل الاستوديو أثارت إعجابه تلك العشرات من الصور التى كان قد طلبها من الفنان ملقاة هنا وهناك .. وفى وسط الاستوديو استرعى بصره مقعد النموذج .. خالياً من صاحبته .. وعلى منصة الرسم بدت صورة لذلك الجمال الذى كان يبحث عنه الفنان .. وسأل شيجى .

– أين فينس العظيمة .. التى عثرت عليها فى دكان خباز ؟ وأشار رفائيل إلى حاجز وقفت خلفه الفتاة وكانت قد اختبأت به عند دخول الرجل .. وأمرها رفائيل أن ترفع رأسها .. ففعلت

وصمت شيجى لحظة ثم همهم : إذاً هذا هو السبب .. لقد علمت الآن ..

وسادت فترة سكون أخرى ثم أردف الرجل :

– اسمع يارفائيل .. سأخصص لكما جناحاً فى الفيلا ، وأنتما من الآن ضيفاى .. وستبقيان كذلك حتى تنتهى من عمل « انتصار جالاتيا » و « ثوربروسربين » و «فينس فى رحلة إلى أوليمبس » و « فينس وجوبيتر » .

ثم عدد حوالى العشر صور وقال له :

– عندما تنتهى من تلك الصور .. يمكنك مبارحة الدار والاختفاء حيثما شئت :

ثم أحنى رأسه للفتاة خلف الحاجز ، وسلم على رفائيل ، وغادر المكان ، وخرجت ستيلا من مخبئها متسائلة : هل ستذهب ؟

– نعم .. نذهب إلى أى مكان مادمنا سويا !!

– حتى ينتهى العمل ؟

- بل حتى تنتهى الحياة !!

وكان يومئذ فى الحادية والثلاثين من عمره .. وكانت فى الثانية والعشرين وفى ذلك الوقت من العمر تبدو نهاية الحياة نائية بعيدة .. حتى ليكاد المرء يتخيل أنها لن تأتى .. ولكن ..

انتهى العمل فى فيلا فارنسينا .. وانتهت بعد ذلك عشرات من القطع الخالدة الرائعة .. وكان الفنان لايكل أو ينى ، فعلم الناس كيف يتذوقون الفن ولكن على حين غرة .. شاء القدر أن يقرر أن الفنان قد أدى نصيبه فى الحياة .. ففى السابعة والثلاثين أصابه مرض لم يمهله سوى أيام معدودات .

وهكذا مات رفائيل فى زهرة العمر ، بعد أن كرس تلك الفترة القصيرة التى قضاها فى الحياة لثلاثة أشياء - الحياة بدونها خير منها العدم - تلك هى : جمال الفن ، ولذة الانتصار ، وحلاوة الحب .

الماء الأسود

وذهب المجلس المحترم ، وأخذ فى استجواب الرجل ، ولكنه لم يجب بحرف واحد ، بل صاح بابنته ، فتقدمت حاملة بين يديها منضدة صغيرة ، عليها أكواب الماء الأسود .

- إنه ، ياسيدى ، شيء مخيف ومروع حقاً !!

- هدىء من روعك يابنى ، واسترح قليلا ، ثم خبرنا بجلية الأمر ..

ولكن الرجل لم يسترح ولم يهدأ .. بل اندفع يتحدث فى سرعة دافقة ، وقد ارتجف جسمه ، واحمرت عيناه ، كأن به مساً من شيطان رجيم ..

قال إنه رأى أشباحاً ضخمة مخيفة .. تتحرك ببطء ، وقد تقدمتها حيوانات بشعة لم ير مثلها من قبل .. وكانت القافلة الرهيبة تزحف دون أن يظهر بينها آدمى واحد .. حتى خيل إليه أن أصحابها من الجن والأبالسة .

وسرى النبأ فى القرية سريان النار فى الهشيم .. وعلم أهلوها أن عدواً

غامضاً مخيفاً بات يهدد سلامتهم ، وأنه يوشك أن ينقض عليهم فيوسعهم نهباً وسلباً ، ويذيقهم عذاباً أليما !

وسرعان ما احتشد رجال القرية بأقواسهم ونبالهم ، ومضت جحافلهم تريد العدو .. لمنازلته وسحقه !



كان ذلك فى أوائل القرن التاسع عشر ، فى إحدى قرى ولاية أوريجون بأمريكا الشمالية ، وكانت قرية بعيدة يسكنها الهنود الحمر ، لم يستطيع المستعمرون البيض أن يصلوا إليها فى ذلك الحين .

وفى ذات يوم شاهد أهل القرية رجلا غريباً يقبل عليهم ، وقد ساق أمامه جواداً عجوزاً أعجف ، حمله ما استطاع من بضائع أوروبية أثارت عجب القوم ودهشتهم ..

وتهافت القوم على بضاعة الرجل ، وبدأت المقايضة .. فأخذوا كل ما معه من (بطاطين) زاهية ، وحلى مذهبة ، وأدوات للطبخ والأكل براقة لامعة ، واستولى هو على كل ما لديهم من فراء ثمين ، ثمناً لبضاعته الزهيدة التافهة .. ومع ذلك فقد كان اغتباط القوم بما أعطاه الرجل لهم لايكاد يقدر .. بل أظهروا له عظيم أسفهم عندما أعتزم الرحيل ، ورجوا منه رجاء حاراً ألا يطيل غيبته ، وأن يحضر لهم فى المرة القادمة كل ما يستطيع حمله من سوق الرجال البيض .

وولت الأيام ، والقوم فى انتظار الرجل الأبيض الذى طالت غيبته ، حتى يئسوا من عودته ، وامحت ذكراه من رءوسهم ..

وفى يوم من الأيام أقبل رجل منهم يعول ويصيح وقد تملكه الفزع .. وأخبرهم أنه رأى خارج القرية عدواً مخيفاً جباراً يزحف عليهم كأنه القدر المحتوم . وهرع القوم إلى أسلحتهم ، وهبوا يذودون عن حياضهم .. وسارت جماهيرهم ثائرة صاخبة تهدد الغازى بالويل والثبور ..

وظهرت فى الأفق طلائع العدو ، فذهل القوم لرؤيتها ، وتسمروا فى أماكنهم كالحجارة ! .. لقد صدق النذير ، ولم يكن مبالغاً فيما وصف !!

هذه الأشباح الهائلة المخيفة التى تتقدمها حيوانات ضخمة مروعة ! ترى ما كنهها ؟ وماذا تبتغى ؟ ..

ولم يبد على العدو الزاحف أى إشارة تدل على العدوان .. فزاد ذلك من دهشة القوم ، وأطلقوا عليه بضعة أسهم فى الهواء استفزازاً له ، ولكنه استمر فى مشيته الهادئة ، ومظهره المسالم ، وأخذ يقترب منهم شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح منهم على قيد خطوات ..

.. وفجأة انقلب فزع القوم ودهشتهم إلى موجة فرح وسرور سرت بينهم وإذا بهم يقهقهون ويرقصون حول ماظنوه فى بادىء الأمر عدواً يهدد سلامتهم .. فقد وجدوا عدوهم المخيف ، هو التاجر الأبيض الذى ينتظرونه بفارغ الصبر .. ولم تكن الأشياء الضخمة الرهيبة التى تتقدمها الحيوانات المخيفة سوى عربات كبيرة تجرها الثيران ، وقد حملها التاجر بالبضائع المختلفة !

وسار أهل القرية يتقدمون موكب التاجر ، ودخلوا القرية كالغزاة الفاتحين .. وانتقى التاجر قطعة أرض واسعة فى وسط القرية فحط بها رحاله ، وأخذ يبتنى له كوخاً خشبياً واسعاً جعله قسمين : أحدهما لسكناه هو

وفتاته الحسناء الذهبية الشعر ، والآخر نظم فيه بضاعته تنظيما بديعاً ، استهوى أفئدة الهنود ، وملأهم سروراً وعجباً .

ولم تكد تمضى أسابيع قلائل حتى كان الرجل قد استنفذ معظم ما يملكه أهل القرية من نفائس وفراء نظير جزء ضئيل من بضائعه . ووجد نفسه قد أصاب فى غمضة عين ثراء طائلا لم يكن يحلم به ..

وذهب عمدة القرية لزيارة حانوت الرجل ومشاهدة ما به من تحف ، فاستقبله بالحفاوة والترحاب ، وأكرم وفادته ، وعرض عليه كل ما عنده من بضائع نفيسة .

وعندما هم العمدة بمغادرة الحانوت ، قاده الرجل إلى غرفة صغيرة مظلمة فى مؤخرة الكوخ ، وأسر فى أذنه هامساً :

– سأذيقك نوعا من الشراب إذا أقسمت ألا تبوح بسره لأحد !

وبعد أن أقسم العمدة يميناً غلظة ، ناوله الرجل كوبا مليئة بشراب سماه « الماء الأسود » .. وكان الشراب نوعا من الخمر المعتقة ، أغلب الظن أنه « الروم » .

وكانت الخمر فى ذلك الوقت حرم بيعها للهنود الحمر ؛ لما لها من تأثير بالغ فيهم ، ولكن التاجر كان قد تملكه الجشع ، وأغراه ما حصل عليه من ثروة طائلة ، فطمع فى المزيد ، ورسم لنفسه خطة يتحايل بها على بيع الخمور للقوم بأبهظ الأثمان فتتضاعف بذلك ثروته ، ويستنزف منهم كل ما يملكون .

وفعلت الخمر فعلها برأس الرجل الوقور فأصابته نشوة .. واستخفه طرب .. وذهل الناس عندما رأوا عمدتهم المهيب يعود إلى داره مترنح الأعطاف ، يوزع النكات ذات اليمين وذات اليسار ، ويرفع عقيرته بالغناء ، غير متورع عن الرقص وسط الطرقات !!

وفى اليوم التالى حينما أفاق الرجل ، ولم يجرؤ أحد على مصارحته بهزله الشائن ، وعبثه الماجن .. ولم يجد الرجل ما يمنعه من كوب آخر من الماء الأسود على سبيل « الفرفشة » فولى وجهه شطر حانوت التاجر ..

وتكررت المهزلة يوما بعد يوم .. ووجد أهل القرية أن الأمر أصبح جد خطير ، فانعقد مجلس القرية للتشاور فيما أصاب زعيمهم .. وقرروا آخر الأمر أن التاجر الأبيض قد سلط عليه روحا شريرة أصابته بخبل ، وجعلت منه سخرية وأضحوكة .. واتفقوا على إيفاد رسول منهم إلى التاجر لنهيه عن فعلته الشائنة ، وأمره بطرد الروح الشريرة من جسم الزعيم .

وذهب الرسول فأنذر الرجل ، وأنصت هذا لحديثه حتى النهاية ، دون أن ينبس ببنت شفة .. فلما انتهى قاده من يده إلى الحجرة النائية ، وفعل به مثل ما فعل بالزعيم فى أول الأمر .

وخرج الرسول نشوان مترنحا.. هازلا ماجنا .. يغنى ويرقص .. تماما كما فعل زعيمه من قبل !!

وذهل أعضاء مجلس القرية حينما رأوا ماحل برسولهم ، ومازالوا يستجوبونه حتى باح بالسر .. وهو مخمور لايدرى ما يقول !!

ودهش القوم ، ولم يصدقوا الرجل ، واستقر رأيهم على أن يذهبوا جميعا ليتبينوا الحق من الباطل .. وكان هذا هو كل ما يرغبه التاجر الأبيض !!

ذهب المجلس المحترم ، وأخذ فى استجواب الرجل ، ولكنه لم يجب بحرف واحد ، بل صاح بابنته ، فتقدمت حاملة بين يديها منضدة صغيرة صفت عليها أكواب الماء الأسود !

وتردد القوم برهة ، ثم مدوا أيديهم يجرعون ما بالأكواب .. وبعد هنيهة أصبح مجلس القرية .. مجلس « أنس » ..

وتهافت على التاجر أهل القرية يطلبون أن يذوقوا الماء الأسود فلم يبخل عليهم به .. ورفض أن يأخذ منهم أى مقابل !

وحدث بعد ذلك ما ينتظر كل امرىء حدوثه .. فقد استساغ أهل القرية الخمر ، وأقبلوا عليها ، فرفع الرجل ثمنها شيئاً فشيئاً ، حتى بلغ السعر الذى يبيع به الكأس الواحدة حد الجنون !

وأخيراً نفد الخمر . وهنا كانت الكارثة : ظن الناس أن التاجر قد أخفاه ليبيعه بسعر أعلى ، فتكاثروا عليه وطلبوا إليه أن يعطيهم خمراً ، ولم يجد التاجر نفعاً أن يقسم أيمانا مغلظة بأن الخمر قد نفدت وأنه يعدهم بأن يذهب إلى سوق الرجال البيض ، فيحضر لهم مايشاءون من ذلك الماء الأسود . ورفض القوم الظامئون أن يصدقوا الرجل أو يطلقوا سراحه .. وأخذوا فى تعذيبه أمام ابنته ، والرجل يئن ويتلوى ألما . حتى إذا يئسوا منه أغلقوا عليه وابنته الكوخ .. ثم أشعلوا النار !

وانصرف القوم ، تاركين الكوخ يحترق بما فيه . ولكن رجلا واحداً بقى فى مكانه بجوار الكوخ الملتهب . وقد بدت عليه الحسرة والتأثر !!

كان فتى فقيراً معدماً . منعه الفقر من محاولة شراء الماء الأسود أو تذوقه ، فبقى حافظا رشده دون سائر القوم الذين هوى بهم الشراب إلى حمأة الجنون ، . وكان الفتى يشهد المأساة من أولها إلى آخرها ، فتمزقت نياط قلبه . لاعلى التاجر ، فقد كان يعلم أنه يلقى جزاء وفاقا وقصاصاً عادلا ، ولكن على ابنته المسكينة التى ألقى بها القوم فى أتون اللهب دون أن ترتكب امراً نكراً ، أو فعلا إداً .

وانتهز الفتى فرصة انصراف القوم ، فقفز من مكانه إلى داخل الكوخ ، وخاض وسط اللهب ، وسرعان ما عثر على الفتاة وقد شبت بثيابها النيران ، فحملها على كتفيه ، وأخذ يعدو بها حتى وصل إلى الكوخ الذى يعيش فيه مع أمه العجوز ، فأمرها أن تضمد للفتاة جراحها ، وأن تهدىء من روعها .

وشفيت الفتاة من جراحها البسيطة ، ولكن الصدمة كانت شديدة الوقع على نفسها ، أصابتها بذهول عجيب فكان يستولى عليها فزع شديد عندما ترى أحد الهنود الحمر ، حتى الفتى نفسه الذى أنقذ حياتها ، وكانت لاتطمئن إلى أحد سوى المرأة العجوز .

وذات يوم ولت الفتاة فراراً ، فأصاب الفتى هم مقيم ، وانتابه شعور بالحزن العميق .. ولكن هذا الشعور لم يطل ، فقد عثر عليها بعد بضعة أيام خارج القرية ، وقد اتخذت من الجرف المطل على النهر مأوى لها .

ولم يظهر لها الفتى نفسه ، خشية أن تفر منه مرة أخرى .. بل استمر يحضر لها الطعام كل ليلة ، ويتركه على مقربه من المكان الذى تأوى اليه .. فتأخذه الفتاة فى الصباح دون أن تدرى شيئاً عن مصدره ..

وأحس الفتى برغبة جامحة فى رؤية الفتاة ، فبكر فى موعده يوماً ليراها فى ضوء النهار .. والمحته الفتاة ، فأصابتها نوبة من الفزع ، وأطلقت ساقيها للريح تبتغى الفرار .. وخشى الفتى ألا يستطيع العثور عليها هذه المرة ، فأخذ يعدو خلفها ليمسك بها ويثبت لها أنه لايريد بها شراً .

واشتد فزع الفتاة حينما شعرت بالفتى يعدو خلفها ، واستمرت فى عدوها بين المرتفعات والصخور ، حتى أشرفت على الهاوية المطلة على النهر .

وترددت الفتاة برهة ، ونظرت خلفها فوجدت أن الفتى لم يظهر بعد ، فنزعت عن جسمها بعض الثياب ، ثم ألقت به فى النهر ، واختفت هى خلف

إحدى الصخور . ووصل الفتى فلم يجد الفتاة ، وأطل فى الهاوية فلمح ثيابها طافية فوق الماء ، فعلم أنها قد ألقت بنفسها فى النهر !

ولم يكن ليتردد لحظة واحدة بل ألقى بنفسه فى الماء لينقذ الفتاة ! وصرخت الفتاة صرخة مدوية .. إذ لم يخطر على بالها قط أنها ستكون سبباً فى موت الرجل الذى أنقذ حياتها ، وأسرعت إلى حافة الهاوية ، تحاول إنقاذ الفتى ، وتطلب إليه الانتظار حتى تحضر حبلا تدلى إليه به ، ليستطيع تسلق الجرف .

وسرعان ما عادت الفتاة بحبل متين سرقتة من كوخ قريب ، فربطت طرفه بإحدى الصخور ، ثم ألقت فى اليم بطرفه الآخر ، وانتظرت أن يمسك به ليصعد .

ولكن الفتى لم يأبه للحبل ، بل قال لها إنه لن يصعد إلا إذا وعدته ألا تفر مرة أخرى .. وأجابت الفتاة أنه لاحاجة به إلى هذا الوعد ، فإنها لن تفارقه حتى لو رغب هو فى فراقها !

وسرعان ماتسلق الفتى الجرف .. ودهشت الأم عندما عاد إليها الفتى مبلل الثياب ، وقد اصطحب معه الفتاة الهاربة وهى شبه عارية .. وتزوج الاثنان ، ولم تعد الفتاة بعد ذلك تخشى الهنود الحمر !

فنـــــان

وجلس الرجل حزينا مكتئبا ، وقد بدت أمامه الحياة حالكة السواد ، لايضيئها إلا قبس خافت يريه بعض الهداية والرشاد ، ذلك القبس هو تلك الفتاة الراقدة في ركن الغرفة .

أطل الرجل من نافذة حجرته في أعلى الدار ، فاذا بالمدينة يلفها ظلام دامس حالك السواد ، وإذا بالريح تهب شديدة عاتية ، عاصفة مزمجرة .

وأحس الرجل شيئاً من القناعة والرضى ، وشعر ببعض السلوى والعزاء عندما أبصر بذلك المرتجف المقرور ، الذى أضر به البرد ، وآذاه المطر ، دون أن يجد لنفسه مأوى يدفع عنه قسوة الطبيعة ، إلا تلك الجدار الواهى المتداعى .

ونظر الرجل إلى السماء ، فاذا بالسحب تتسابق أمام الريح . كأن نفراً من الجن قد ألهب بالسياط ظهورها ، فاندفعت هاربة شاردة . ومن خلال السحب كانت النجوم تطل بين آونة وأخرى مرتعدة مرتجفة ، كأنها بارقات الأمل الكاذب في ظلمات حياته المدلهمة !

وعوى كلب .. فأرسل عواؤه صوتاً خافتاً موجعاً ، وبعث فى الفضاء الأسود أنيناً حزيناً ، حتى خيل للرجل أنه والكلب فى الهم سواء ، وأنهما زميلان فى التعاسة والشقاء !

وسرت فى جسد الرجل رعدة المقرور ، فمد يده وأغلق النافذة ، وما كان به من حاجة إلى إغلاقها ، فقد كانت الريح لاتعترف بتلك الوريقات التى لصقها الرجل على إطار النافذة ، بدل زجاجها المهشم المحطم .

ودار ببصره فى أنحاء الغرفة التى تكدست فيها لوحاته ، وقد علاها التراب ، ونسج عليها العنكبوت خيوطه فبدت خربة موحشة .. وألقى عليها نظرة عابسة ، مهددة متوعدة ، ثم رفسها بقدمه رفسة جعلتها تهوى على الأرض ، مرسلة نعيباً مؤلماً كأنه نعيب البوم والغربان .. فلم يزده الصوت إلا نكالا ، فانقبضت نفسه ، واضطربت أعصابه ، وأيقظ الضجيج مخلوقا كان يرقد فى أحد اركان الغرفة المظلمة ، فتقلب قليلا فى أغطيته البالية ، ثم عاد ثانية إلى سباته !

ولأول مرة بدت فى عينى الرجل نظرات العطف والحنان ، فاضطجع على مقعد ، وأغمض عينيه ، وراح يسبح فى عالم من الأحلام !

تذكر الرجل زمناً كان يريه الكون مشرقاً يغمره النور والجمال .. زمناً كان كل ما فيه دانى القطوف ، عذب المورد .. كانت نفسه وقتئذ تزخر بالأمانى ، وقلبه يفيض بالآمال والأحلام .

منذ سنوات مضت ، كان يخيل إليه أن الدنيا كلها بين يديه .. كان يحلم بأن يكون فنانا من أولئك الفنانين الذين طبقت الآفاق شهرتهم ، وخلدهم التاريخ فوضعهم فى مصاف الرسل والأنبياء ، وبدأ العمل وهو أشد مايكون ثقة بنفسه ، وإيماناً بقدرته .

وقابلها لأول مرة ، موردة الوجنتين ، ساجية الطرف ، كل مافيها ينطق بالفتنة والجمال ، فوجد فيها ضالته المنشودة ، ونصفه المفقود ، وانتابه شعور لذيذ يغمره من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، وأمسك بيدها فسرى فى جسده تيار خفى عجيب !

ومكث الساعات الطويلة يحدق فى شفتيها حين تتكلم ، وكأنه لم يرشفتين غيرهما من قبل . ولم يكن ليستطيع أن يقنع نفسه بأنهما من دم ولحم ، فقد خيل إليه أن صانعهما لابد وأن يكون قد صاغهما من شهد وورد ، أو – على الأقل – من مادة أخرى غير تلك المادة التى صنعت منها بقية الشفاه !

ورأت فيه الفتاة رجلها الأمثل ، فاتحدت القلوب ، وائتلفت الأفئدة ، وانغمسا فى لجة من الهوى أنستهما الدنيا ومافيها !

ووجد الرجل فى فتاته الساحرة خير نموذج لصوره ، وأحس أن المجد قد فتح له بابه على مصراعيه ، فشمر عن ساعده ، وبدأ فى الرسم .

وأخذ الرجل يواصل آناء الليل بأطراف النهار لايكل ولاينصب وفتاته جالسه أمامه لايعتريها الملل ، أو يصيبها السأم !

ومرت الأيام تترى ، والرجل يرسم ، حتى تكدست لوحاته الرائعة بعضها فوق البعض .

وشعر الرجل فجأة بأن الطريق أمامه مظلمة طويلة ، وأنه قد بدأ يتخبط دياجير ظلمتها ، فقد رأى أنه يرسم لنفسه ، وأن أحداً لايحس له وجوداً ، وأن لوحاته التى أضنى فيها نفسه ، وأعتصر فيها رأسه ، قد بدأت تتكدس فى ركن الغرفة كأنها كومة من عظام نخرة وأطلال خربة ، توحى بالهزيمة واليأس !

أوشكت نقود الرجل أن تنفذ ، وأحس أنه في حاجة إلى أن يعمل شيئاً يكسب منه قوته ، ويقيم به أوده وأود من معه .

وكان الرجل كغيره من الفنانين ، قليل الخبرة بشئون الحياة وطرق الكسب فتعثر في طريقه ، وصدمته سخافات الناس ولؤمهم . وبدأ الرجل يذوق الفقر والحرمان ، وارتطم بحقيقة الحياة ، وتبددت أحلامه الحلوة ، وأمانيه العذبة . وأخذ ينكمش في نفسه فانتقل بفتاته وصوره إلى غرفة حقيرة في سطح أحد المنازل ، بعد أن باع كل ما يملك لسد رمقه .

وجلس الرجل حزيناً مكتئباً ، وقد بدت أمامه الحياة حالكة السواد ، لايضيئها إلا قبس خافت يريه بعض الهداية والرشاد ، ذلك القبس هو تلك الفتاة الراقدة في ركن الغرفة !

وأحس الرجل أنه يكاد يختنق ، وشعر بأنه في حاجة إلى الخروج ، فقام على أطراف أصابعه حتى لايوقظ فتاته ، وتسلل خارج الغرفة .

وسار الرجل في الطريق وقد خلا من السابلة . وأحس الريح الباردة تلفح وجهه . وظل يهيم على وجهه في الطرقات شارد اللب مشتت الفكر !

وعلى حين غرة أحس خلفه ضجيجاً ، ثم شعر بصدمة ألقته على الأرض ، فقد على أثرها وعيه ، ولم يعد يشعر بشيء مما حوله !

وحينما أفاق الرجل ، علم أن مركبة الحاكم قد صدمته في ظلمة الليل ، وهي عائدة بالحاكم إلى قصره ، وان القوم ضمدوا جراحه وأعادوه إلى داره ، أو على الأصح إلى غرفته !

وفتح الرجل عينيه ، على فتاة تحنو عليه ، وقد بدا في عينيها حزن عميق وسألته هامسة في رفق .

– لم خرجت فى هذه الليلة الليلاء !؟

– كنت أشعر بضيق ، وخيل إلى أن الخروج قد يزيل بعضه .

ولم الضيق ياحبيبى مادمنا معا ؟ إن الحياة لاتستحق العناء . وأنت رجل فنان ، ولابد ان يسطع نورك على الناس فى يوم من الأيام .. فلم الحزن ؟

وبعد بضعة أيام طرق الباب طارق كان هو الحاكم نفسه ، أقبل ليعود الرجل . واسترعى جمال الفتاة أنظار الحاكم ، فلم يفعل خلال زيارته سوى التحديق فيها بنظراته النهمة الجائعة .. وعند انصرافه حاول أن يعطى الرجل مبلغاً من المال ، ولكن الرجل رده إليه قائلا : إنه ليس فى حاجة إليه .

وشفى الفنان من جراحه واسترد قواه وبدأت الفتاة تنفخ فيه الروح ، وتبعث فيه الأمل من جديد .. فنفض عنه غبار اليأس ، وعاد إلى ريشته مرة أخرى .. وعادت الفتاة إلى الجلوس أمامه الساعات الطويلة .. دون أن يصيبها كل أو ملل .

وكانت الصورة الجديدة هى أروع مارسم الرجل ، وفى ذات يوم ، وقد أوشك أن يفرغ منها ، وجلست أمامه الفتاة عارية ، سمع الرجل طرقاً على الباب ، فأمر الطارق بالانتظار ، حتى يعطى الفتاة فرصة لارتداء ملابسها ولكن الطارق لم ينتظر ، بل اقتحم الباب ، واندفع داخل الحجرة !

وكان الطارق ، مرة أخرى ، هو الحاكم نفسه . وكان يبدو أنه ثمل بعض الشيء ، وحنق الرجل من هذا التهجم ، وصعد الدم إلى رأسه فأمره بالخروج من الحجرة فى الحال !!

ولكن الحاكم لم يخرج . بل نظر إلى الصورة ، ثم إلى الفتاة العارية ، وقال ساخراً :

– لم يكن بك من حاجة إلى كل هذا العناء ، إنى أريد أن أبتاع الأصل لا الصورة !!

وأظلمت الدنيا فى وجه الرجل ، فلم يرد عليه بكلمة واحدة . بل انتفض فى مكانه ، ولكمه لكمة ألقته خارج الغرفة ، وجعلته يتدحرج على السلم كأنه كرة من المطاط !

وقام الحاكم يتحسس أعضاءه وينفض الغبار عن ثيابه ، وقد غلى مرجل الغضب فى رأسه . وأسرع فى العودة إلى قصره .

وعلم الرجل أن الحاكم لابد سيقتص منه ، وأنه بعد برهة سيزج به فى غياهب السجن ، فقرر أن ينجو بنفسه .

ومسك بالصورة الأخيرة ، فقذف بها فوق بقية الصور فى حنق وغيظ ، ثم غادر الغرفة وفتاته ، تاركا كل ما يملكه من صور وأدوات للرسم ، غير آسف ولانادم .

واختفى الرجل ، وبحث عنه رجال الحاكم دون جدوى ، ووضعت مكافأة لمن يستطيع العثور عليه !

وفى ذات يوم سطا رجل بائس على غرفة الفنان المهجورة ، وعبث بما فيها ، فلم يجد مايستحق السرقة ، وساءه أن يعود بخفى حنين فحمل الصور وأدوات الرسم وانطلق هارباً من الدار !

وذهب الرجل يعرضها فى السوق ، فابتاعها أحد التجار بثمن بخس ، وأخذ يعرضها فى متجره .

ولعب القدر الساخر لعبته ، فإذا بالصورة تنتقل من يد إلى يد ومن متجر

إلى متجر . وفى كل انتقال يرتفع ثمنها ، وتزداد قيمتها ، حتى أصبحت فى النهاية مثار العجب ، وموضع الدهشة والتقدير .

وزاد القدر فى تهكمه ، وأمعن فى سخريته ، فإذا بالقوم يعرضون على الحاكم أروع الصور وأبدعها ، وهى الصورة الأخيرة التى رسمها الفنان !

ونظر الحاكم إلى الصورة ، فتذكر فعلته الشائنة ، وعلم بمبلغ إهانته للفنان . وظلمه له ، وعجب كيف لم تدهشه الصورة ، كما أدهشته الآن ، وهى قطعة رائعة من الفن والجمال !

وأعلن الحاكم أنه قد عفا عن الفنان ، وأمر بالقبض على السارق الذى سطا على صوره .

وعاد الفنان إلى الظهور فوجد أن صيته قد ذاع ، ونجمه قد تألق ، ودعاه الحاكم إلى قصره حيث أكرم وفادته ، وأمر بأن تهيأ له دار يتابع فيها عمله ، وأمر أن يعوض عما سرق من غرفته ، وأن يعطى ثمن كل ماسلب منه !

وأمر بأن يؤتى بالسارق ، وترك للفنان أن يتخير توقيع الجزاء ونظر الرجل إلى السارق فألفاه يرتجف ، فتقدم منه وعانقه فى لهفة وشوق ، ثم مد يده إليه ، وأعطاه كل ما نقده الحاكم من نقود ، وقال فى صوت مليء بالشكر ، وعينين مغرورقتين بالدموع :

– لقد أعطيتنى الشهرة ، وأنرت لى ظلمة المستقبل ، وأصبح الطريق أمامى سهلا معبداً ؛ فخذ هذا أجراً لك ، وسأعرف بعد ذلك كيف أحصل على أضعاف أضعافه .

وذهل الحاكم ، وخيل إليه أن بالفنان خبلا ، ولكنه لم يعترض على ما فعل !

وخرج الرجل يقص على امرأته ماحدث ، فاحتضنته هامسة :

– لقد كنت أشعر بأن المجد آت لاريب فيه .

ولم يعد الفنان يشعر بعد ذلك بشظف العيش ، وبدأ الكون أمامه مرة أخرى مشرقاً يغمره النور والجمال .. وتحققت كل مافى نفسه من الأمانى والأحلام !

انتصار

سلام عمن ملأه بالقوة والأمل ، وعمن أضاء له
سبيل الحياة بعد ظلمة حالكة ، سلام عن سلطان
الحب ، وهل ينتصر فى هذه الدنيا سواء ؟

جلس الصاحبان حول منضدة فى أحد المنتديات ، وقد انهمكا فى الحديث عن المرأة ومدى تأثر الرجل بها .

قال أحدهما : إنه مامن رجل لاتغريه المرأة الفاتنة ، فالرجل يستطيع أن يسيطر على نفسه فى كل ناحية من نواحى الحياة ، ولكنه يعجز عن ذلك فيما يختص بالمرأة ، ومهما بلغ الرجل من رجاحة العقل وقوة الإرادة ، فهو أمام المرأة الجميلة ، طفل ضعيف تحركه كيفما شاءت ، وعظماء الرجال الذين قبضوا بأيديهم على زمام العالم كان زمامهم فى يد امرأة ، ومامن عمل يعمله الرجل فى هذه الدنيا إلا ويبغى به إرضاء امرأة .

فأجاب الآخر : إن هذا حديث الضعاف من الرجال ، فهناك أنواع من الرجال ينظرون إلى المرأة كشىء تافه أو كلعبة مسلية .

وفى تلك اللحظة أقبلت فتاة ، فإذا بهما يصمتان ، وإذا كل من حولهما من الرجال يتركون مافى أيديهم ويشرئبون بأعناقهم إليها .. وقال الأول معلقا على ما بدا من اهتمام الرجال بالفتاة !

– أرأيت كيف تؤثر المرأة في الرجل ؟ ، إن كل شيء في حياة الرجل هو الحب ، ومنبع الحب هو المرأة .

وابتسم صاحبه ، وقال وهو يشير إلى رجل كان الوحيد الذى لم يحرك ساكناً عندما أقبلت الفتاة :

– هذا رجل من النوع الذى حدثتك عنه ، النوع القوى الذى لا يأبه للنساء .

ونظر إلى الرجل فإذا بالفتاة قد اتجهت إليه وجلست بالقرب منه وهو جامد في مكانه لايحرك ساكناً ، فقال لصاحبه :

– قد يكون نوعا شاذاً من الرجال ، ولكنى أعرف أسطورة أغريقية ، تثبت أنه حتى هذا النوع مصيره في النهاية أن يتمرغ تحت أقدام المرأة .

وبدأ يقص على صاحبه الأسطورة ، قال :

– زعموا أنه كانت توجد بقعة نائية خالية ، لايكاد يبدو فيها أثر للحياة ، ولايكاد يسمع فيها سوى شدو بلبل أو تغريد عصفور .

هبت على تلك البقعة ريح خفيفة أخذت تعبث بأوراق الشجر ، ثم اشتدت الريح رويداً وحملت في طياتها همساً مازال يشتد حتى أضحى جدلا صاخباً ، وحواراً عنيفاً بين ثلاث قوى تتنازع الحكم وتزعم لنفسها السلطان .

هتفت إحداها بصوت حلو رنان :

– أى سلطان فى هذه الحياة لغيرى ، من الذى أذل الأعناق واسترق النفوس سوى سلطان المال ، من الذى ملك على الإنسان عقله وسلبه رشده ، من الذى تحكم فيه فحركه كما يشاء ، من الذى عبده الإنسان من دون الله ؟

وأجاب صوت ساحر نفاذ يصل إلى أعماق النفوس :

– أنا الذى ملكت على الإنسان نفسه ، أنا الذى اضاع الإنسان عمره فى البحث عنه ، سل أى أمرىء عن الشهرة ، يجبك أنها أمتع شىء فى هذه الحياة ، سل أى امرىء عن اللذة التى يشعر بها عندما يشير إليه الناس ويهمسون : « هذا هو الرجل العظيم » ، وخيره بين شهرته وبين أن تهبه مال قارون ، تجده يضرب بسلطان المال عرض الحائط ، ويقبض على الشهرة بالنواجذ .

– يا للغباء ! إن صاحب المال لايعجز عن ابتياع الشهرة .

– قد يستطيع ابتياع الشهرة الكاذبة الزائفة ، أما الشهرة الحقة ، فهى هبة أغدقها على من يروقنى تمييزهم عن غيرهم من الناس .

وهنا قال صوت ثالث ، يفيض بالرقة والعذوبة كأنه لحن يطرب النفوس ويهز القلوب :

– ياللحمق والغرور ! تتحدثان عن سلطانكما ، وهو ذرة فى سلطانى ، ألم تسمعا الإنسان يقول : «الحياة الحب والحب الحياة » أسمعتماه مرة يقول إن الحياة هى المال أو الحياة هى الشهرة ؟ سلا أى امرىء عمن غيّر الكون فى عينيه فجعله ناضراً مزدهراً ، سلاه عمن ملأه بالقوة والأمل ، وعمن أضاء له سبيل الحياة بعد ظلمة حالكة ، سلاه عن سلطان الحب ، وهل ينتصر فى هذه الدنيا سواه ؟

واحتدمت المناقشة واشتد الجدل ، واختلطت الأصوات حتى لم يعد المرء يميز فيها سوى خليط من الصيحات والصرخات ، وأخيراً سمع صوت سلطان الحب وهو يهتف :

– إنى أتحداكما ، وأقبل النزال ، ليس فقط مع أحدكما ، بل مع كليكما ، لتتحدا سوياً ولتأتلفا معاً ، فتكونا حليفين ، وأنا زعيم بأن أبرهن لكما على أن سلطانكما الذى تدعيانه هباء فى هباء .

وتحالف سلطان المال وسلطان الشهرة ، وقبلا ذلك التحدى من سلطان الحب ، واتفق الفريقان على أن يحشد كل منهما قواه ويشحذ أسلحته ، على أن يكون اللقاء فى ميدان للقتال تم الاتفاق عليه .



نحن الآن فى ميدان القتال ، وهو ليس بنجاد ولاوهاد . ولاحقول ولاصحراء ، بل هو مخلوق آدمى اختارته القوى الثلاث ليكون مظهراً لقدرتها ومقياساً لسلطانها ، والرابح من الفريقين من استطاع السيطرة عليه والتحكم فيه وطرد الفريق الآخر من قرارة نفسه فاشلا مخذولا .

كان ميدان القتال فتى فى مقتبل العمر ، مليء النفس بالأمل . ولكن تصاريف الحياة كدته وأوهنت قواه ، وتركته حائراً مغموراً .

استلقى الفتى على فراشه خاوى البطن والذهن والفؤاد ، ونظر من خلال النافذة إلى النجوم التى تلمع فى ظلمة السماء ، وسأل نفسه عما يأمل فى هذه الحياة .. وأى خير يرجوه منها ، إذا استمر هذا الجوع ، جوع القلب وجوع النفس ! .

لقد كان أشد مايؤلمه أن يرى نفسه مهملا فى ميدان الحب ، فما من فتاة

أقبلت عليه مرة ، وما من فتاة أنعمت عليه بابتسامة ، فكلهن ينفرن منه ويتجنبنه ويعاملنه بالغلظة والقساوة .

ترى هل ذلك لعجزه عن استمالتهن ، أم إن السبب قلة ماله ، أو قلة وسامته ؟

★ ★ ★

وعصف اليأس بنفس الفتى ، وفاض به الشجن ، فقد كان فشله فى اجتذاب الجنس الآخر يوهن من نفسه ، ويحط من قوته .

وخيل إليه فجأة أن النافذة تحمل إليه صوتاً يسرى مع النسيم ، فأنصت ، فإذا الصوت يهتف به :

– أيها التافه الأحمق ، ماذا يخيفك منهن وماذا يفزعك ، وهن أحقر من أن يجلبن الوجيعة والألم ! اخرجهم من قلبك ، فمكانهن تحت القدم لاداخل القلب ، أقبل على نفسك ، فهى أحق منهن بالأقبال إياك وما يسمونه الحب ، فهو بريق زائف وسراب خلب ، لاتجر وراء أوهام كاذبة وأحلام تمحوها اليقظة ، سر فى الحياة بلا قلب ، فما اتفق القلب والعقل قط ، واقتل مافى نفسك من شعور وإحساس فإنها سوس ينخر عظامك ، وجراثيم تفتك بجسدك ، ولو برأت منها لاستطعت أن تمسك الدنيا كلها بين يديك ، ولأصبحت خير الرجال فى هذه الأرض .

★ ★ ★

ومنذ ذلك اليوم والفتى قد تغير وتبدل ، وغاضت من نفسه الرقة ونضب الشعور ، وأضحى يقابل جفاء النساء بجفاء مثله أو أشد ، وأغمض عينيه عن كل مافيهن من إغراء وفتنة ..

وبدأ يسير فى الحياة وهو مغلق القلب جامد الحس .. وأخذت تلك القوة الكامنة في قلبه تتسرب إلى رأسه .. وتحول جهاده فى الحب إلى جهاد فى سبيل المال والشهرة .

لقد خيل إليه أن به نقصاً يصرف ربات الجمال عنه . فصمم على أن يكون شيئاً فى هذه الحياة .. أو لايكون قط .

★ ★ ★

ودهش الناس لما أصاب الفتى .. فقد بدأ الحظ يبتسم له .. وبدا لهم منه نبوغ وعبقرية .. ومرت الأيام فإذا الفتى المغمور قد أضحى نجما ساطعاً .. وإذا به صاحب منصب خطير ومال وفير .

واشتهر الفتى بشدة كرهه للنساء ونفوره منهن .. فقد كان يحذرهن كما يحذر السليم الأجرب .. ويتجنبهن كما يتجنب المرء أفعى ذات سم زعاف .

★ ★ ★

وهبت الريح فى البقعة النائية .. فحملت صوت سلطانى المال والشهرة وفيه نشوة الانتصار ، وقال أولهما للآخر :

– يا لسلطان الحب الأحمق المغرور ! أية هزيمة منكرة تلك التى حاقت به .. لقد انهارت سطوته وزال ملكه .. وعرف الأنسان أنه مخادع محتال .. واكتشف أن نعيمه زيف وبريقه خداع ..

وفى تلك اللحظة كان الفتى يقف وعلى وجهه عبوس وفى نظراته جد وقسوة .. وقد ركعت أمامه فتاة بالية الثياب رثة المنظر ، بدت فى وجهها صفرة مرض وبؤس وفاقة وقد أخذ جسدها يهتز من فرط البكاء وهى تصيح :

- إنى لم أجرم ولم أسرق .. إنى أريد أن أعيش .. أريد ما أسد به رمقى .

ولم يلن وجه الفتى ولم تبد عليه بادرة شفقة أو رحمة ، بل أشار بيده إلى بعض الخدم فأبعدوها عن أقدامه .. وزج بها فى السجن فقد كانت سارقة أثيمة .

وخلا الفتى إلى نفسه فأحس بخلجة فى قلبه .. قد بدأ يتحرك بعد طول سكون .. كان فظاً قاسياً على الفتاة المسكينة فلم يرحم ضعفها وبؤسها .. لقد صمم على أن يعرض عن النساء ويقسو عليهن : ولكن هذه ليست امرأة .. إنها هيكل بائس محطم .. دفعه بقية أمل فى الحياة إلى أن يسرق ليسد رمقه ..

لشد ما أخطأ فيما فعل لقد كان جامد الحس والقلب والعقل !!

ولم ينم الفتى ليلته .. واشتد به وخز الضمير .. وذهب عنه ذلك الجحود والقسوة .. وعاد إليه قديم رقته .

وكان أول ما فعله أنه راح يزور الفتاة فى سجنها خفية .. ليخفف من لوعتها ويرفه عنها وتكررت زيارته لها .. إذ تبين فيها نفساً رقيقة .. شديدة الصفاء .. وتبين أكثر من ذلك أن بالفتاة فتنة أخفتها الفاقة .. وسحراً حجبه البؤس المضنى .

ومرت الأيام فإذا بالفتى الحذر قد كلف بالفتاة وأحبها .

واستمر بعد ذلك يزورها فى بيت أبقاها فيه تحت جنح الظلام .. حتى مل أخيراً ذلك التستر .. وعزم على أن يرفعها حيث هو .. وقرر الزواج منها .. ضارباً بأقوال الناس عرض الحائط .

وأخذت المرأة بمظاهر النعمة والرفاهة ، وأغراها الجاه والمال .. فإذا بها تصنع بالفتى ماصنعت الأفعى بالرجل الذى حملها من البرد القاتل فأدفأها فى

داره .. فما أن أحست بالدفء وانتعشت حتى كان الرجل أول من لدغته .. أجل لقد أحست المرأة بالدفء فكشرت عن أنيابها للفتى .. تبعثر ماله .. وتلوث سمعته .. وهو غارق في حبها .

وبدأت الدنيا تدبر عنه .. فنفذ ماله .. وقل خطره وساءت سمعته .. وأخذ يعود كما كان مغمورا منسياً وهو قانع من كل هذا بحبه وهواه .. حتى كان ذات يوم أنزلت به ضربتها الأخيرة .

وكانت الصدمة قاسية أصيب منها بالذهول .. فهام على وجهه بعد أن فقد ماله وشهرته وحبه .. وانتهى به الأمر إلى أن جاع فسرق ليسد رمقه - كما فعلت الفتاة - وألقى به في السجن .

وصهر السجن نفس الفتى فبدأ يعود إلى وعيه .. وأدرك أن ضعفه هو الذى ألقى به إلى التهلكة .. فعزم على أن يعود إلى سابق قسوته وجموده .. وأن يحاول الخوض في معركة الحياة ، فلعله بالغ مرة أخرى ماكان قد بلغ .

وأطلق سراحه في صباح يوم مشرق وخرج إلى الطريق يرسم في رأسه خططه المقبلة .. ولكنه رأى ما أذهله وقلب تدابيره رأسا على عقب .

رأى المرأة تنتظره وقد أطرقت برأسها في هدوء وصمت ورفعت إليه عينين تفيض منهما الدموع .. لقد عادت إليه تطلب المغفرة .

وأحس الفتى أنه قد أضحى مسلوب الإرادة .. وتطاير من رأسه كل مارسمه من خطط .. وخانه ذلك الجمود وتلك القسوة .. وانقاد لها كأنه طفل غرير .

وقادته المرأة إلى ذلك البيت الذى كان يزورها فيه خلسة . جلسا حيث تعودا أن يرتشفا كئوس الحب حلوة مترعة .. ونظرت إليه في سكون تستغفره ..

فلم يسعه إلا أن يغفر .. ومد يده فتخلل شعرها بأصابعه .. ثم أمسك بوجهها الصغير بين كفيه ووضع شفتيه ببطء على شفتيها .. واختلطت أنفاسها بأنفاسه .. وراحا فى نشوة ..

وهبت على البقعة النائية .. موجة من الريح هائجة عاتية .. وسمع من خلالها صوت يزمجر مغضباً :

– ويل للإنسان الأحمق المأفون .. لقد أطاح بسلطانى وسلطانك .. ولم يبق على مال ولم يبق على شهرة ..

وأجابه صوت ناعم رقيق :

– لن أجيبك بشىء .. بل سأدع الفتى نفسه يجيبك .

وهمس الفتى فى أذن الفتاة :

لاأريد فى هذه الدنيا مالا .. ولاشهرة .. أريدك أنت . أريد الحب .. فكل شىء ماخلا الحب عبث !

وانتهى الرجل من قصته ونظر إلى صاحبه يسمع رأيه . ولكنه أبصر بفتاة أخرى قد أقبلت من الباب ، فاشرأبت الأعناق كما تعودت أن تشرئب كلما دخلت فتاة فاتنة .. ولكن فى هذه المرة كان أشد الرجال تطلعاً .. ذلك الرجل الذى لم يحرك ساكناً فى المرة الأولى .

ونظر إليه صاحبه ضاحكا ثم قال :

– لاأظن بالرجل شذوذاً أو غرابة .. فأغلب ظنى أن الأولى كانت زوجته !

كارابــــو

«إن الحرارة والثقة اللتين تقص بهما قصتها ، تؤكدان للمرء أنها لايمكن أن تكون كاذبة ، وأن مظهرها النبيل وحركاتها الارستقراطية التى تحيا بها ، كل هذا يقنع تماما بأنها لايمكن أن تكون سوى أميرة» .

أرخى الليل سدوله على القرية الهادئة .. فسادها السكون العميق ، وخيم عليها الظلام الدامس ، وأقفرت طرقاتها من كل حركة ، وإذا الدور التى كانت تصخب بضجيج الحياة ، قد غمرها الصمت الرهيب ولم يبق من هذه الحياة الصاخبة المضطربة غير أصوات خافتة تتصاعد بين آونة وأخرى من حانة القرية ..

كان ذلك فى ٣ أبريل سنة ١٨١٧ ، وفى إحدى قرى جلوسسترشير على بعد عشرة أميال من باث .. حينما كان شبح هذه المرأة الصغيرة .. وسط حلكة ذلك الليل الصامت الرهيب .. يطرق أحد أبواب هذه الدور التى غمرها السكون حتى بدت وكأنها قد خلت من قاطنيها» .

وسمع وقع أقدام على السلالم الخشبية وهى تهبط نحو الباب ، حتى إذا فتح قليلا ، وبدا منه بصيص من ضوء .. صاح صوت من الداخل :

– من هناك ؟

وردت طارقة الليل .. مجيبة مفسرة .. ولكن السائل لم يستطع أن يفهم حرفاً واحداً مما قالته .. ففتح الباب على مصراعيه وخرج واقفاً على عتبته ، وبدأ يستفسر منها عما تطلب فى هذه الساعة من الليل .

وتحدثت الغريبة مرة أخرى . فإذا بها تتحدث بلغة أجنبية غير مفهومة .. ولكن كان يفهم من حركات يديها أنها تحاول أن توضح أنها تطلب مأوى فى هذا الليل البهيم .

وأيقظ حديثها الغريب .. ولغتها غير المفهومة ، أهل الدار جميعا ، فاندفعوا نحو السلم ، يستجلون الأمر .

ولم يكن غريبا على القوم أن تطرق دورهم فى خلال الليل .. لطلب مأوى أو طعام .. أو لسؤال عن الطريق الموصل إلى جهة ما ، ولكن الذى أثار دهشتهم هو لغة الفتاة . التى لم يستطيعوا أن يميزوا منها حرفا واحداً .. كذلك ملابسها العجيبة التى لم تقع أبصارهم قط على مثلها .

وحاول بعضهم التفاهم معها ببعض اللغات المعروفة كالإنجليزية أو الأسبانية ، ولكن لم يبد عليها أنها سمعت شيئا عنها من قبل .

ولم يجد القوم أفضل من أن يعرضوا هذه المعضلة على المستر وورال .. وهو أكبر من فى القرية سنا وأكثرهم حنكة وتجربة .. والذى أحبه القرويون لطيبة قلبه ، وشدة عطفه عليهم ، وبره بهم .

وقادوا الفتاة الى بيته الكبير ، وأدخلوها عليه ، وكان لايزال ساهراً يتسامر مع بعض ضيوفه .

وبالرغم من أنه لم يستطع التفاهم مع الفتاة فإنه قد شعر بالاطمئنان إليها والميل إلى مساعدتها .

والواقع أن القوم كانوا يشعرون جميعا بمثل شعوره ، فقد كانت الفتاة فى ميعة الصبا . وكانت رائعة الجمال .

ورأتها المسز وورال العجوز ، فألقت عليها نظرة فاحصة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها ، وبعد أن اطمأنت إليها هى الأخرى بدأت تشترك معه فى اجتلاء السر ، وحل اللغز .

وأخذ الزوجان العجوزان ، يستمعان لسيل منهمر من كلمات الفتاة ، وأرهفا سمعيهما لعلهما يعثران ، من بين الكلمات العجيبة المتدفقة من فيها ، على كلمة تحل العقدة ، أو تكتشف عن جنس الفتاة وأصلها ، ولكن حينما اخلدت الفتاة إلى الصمت ، بعد أن أتمت حديثها ، نظر العجوزان كل إلى الآخر وهز رأسه ، وكأن الفتاة لم تنبس ببنت شفة !

ولم يكن مع الفتاة أى أوراق يستدل منها على شخصيتها ، وكانت ترتدى ثوبا أسود فضفاضا يصل إلى قدميها الجميلتين اللتين وضعتهما فى حذاء غريب المنظر ، وأن كان يبدو أنه شرقى الطراز .

ولما يئس المستر وورال وزوجته من الوصول إلى اكتشاف أمرها فى هذه الليلة ، أمرا بعض الخدم باصطحابها الى فندق القرية ، كما أمراهم بأن تفرد لها غرفة خاصة ، وأن يجهز لها عشاء طيب .

وحينما قدم إليها الطعام فى الفندق ، تناولته بطريقة تشعر بتمدينها ، ولكن

العجب العجاب حدث عندما دخلت الفتاة حجرة النوم ، ورأت الفراش الوثير الذى جهزوه لنومها ..

نظرت إليه دهشة ، ثم هزت رأسها وتمتمت بضع كلمات بلغتها العجيبة ، ثم أشارت إلى الأرض وكأنها تقول :

– لا ..لا .. ماذا تقصدون بكل هذا ؟ لن أنام إلا على الأرض ، لأنى لم أتعود غيرها .

وحاولت صاحبة الفندق أن تفهم الفتاة أنه قد يكون لديها من الظروف ماعودها النوم على الأرض ، ولكن ليس هناك أشد حمقاً من أن يكون لديها مثل هذا الفراش الدافيء الوثير ، ثم تفضل بعد ذلك أن تفترش أرض الغرفة .

وحاولت أن تقنعها عمليا بأن النوم فى الفراش ليس بالأمر المستعصى ، ولا بالأمر المخيف ، وأن الفراش لن يهوى بها إلى جوف الأرض ، ولا يصاعد بها فوق السحب . فأمرت ابنتها بأن ترتدى ثياب النوم ، وبأن تنام أمام الفتاة فى الفراش .

وبعد هذا البيان العملى ، اطمأنت الضيفة الشاذة ، ولم تعترض بعد ذلك على النوم فى الفراش .

وبمساعدة السيدة ، خلعت عنها ثيابها العجيبة ، وارتدت ثياب النوم التى أحضرت لها ، ثم ركعت فى وسط الغرفة لتتلو صلواتها قبل النوم . وكانت هذه الصلوات عبارة عن سلسلة من الركعات والسجدات على أرض الغرفة ، وسلسلة من رفع الأيادى إلى سقفها . ولما انتهت من الصلاة ذهبت إلى فراشها هادئة ناعمة البال .

وفى الصباح بذلت عدة محاولات أخرى للتفاهم معها ، فأحضرت لها عدة

صور تمثل مناظر شرقية من بلدان الشرق ، من المعابد والمساجد ، والمقاهى والملاهى ، والحصون والقلاع ، والسفن ذات الأشرعة ، وعرضت كلها أمامها واحدة واحدة ، علها تستطيع تمييز بعض المناظر التى قد يستدل منها على بلدتها ، أو قد تلقى بعض الضوء على جنسها أو دينها .

ولكن ذلك لم يكن ليجدى شيئاً ، فكل مافعلته الفتاة العجيبة أنها أبدت بعض الإعجاب بالصور الصينية ، وصور المراكب الشراعية .

وقرر مستر وورال أن ينزلها فى بيته ، حتى تكون تحت رقابة زوجته ، علها تستطيع أن تكشف عن سرها ، وعندما استقرت الفتاة فى المنزل ، حاولت مسز وورال أن تأخذها باللين ، فجلست وإياها على انفراد ، وأخذت تفهمها أنها وزوجها سيبذلان لها كل المساعدة ، ويوفران لها الملبس والمأكل على أن يهيئا لها عملا ترتزق منه ، إذا هى عرفتهما بشخصيتها ، وهددتها كذلك بأنهما سيعتبرانها شريدة محتالة إذا هى استمرت على أسلوبها هذا من ادعاء البلاهة والشذوذ وسيكون مصيرها المحتم أن تودع أعماق السجون .

وفى خلال هذا الحديث الطويل كانت مسز وورال ترقب وجه الفتاة بإمعان وتدقيق ، وكانت تدرس التعبيرات التى ترتسم على تقاطيعها ، علها تستطع أن تنتزع سر الفتاة ، من صدرها ، ولكنها لم تتمكن بكل هذا الإغراء والترغيب ، والإنذار والتحذير ، من أن تظفر من الفتاة إلا بابتسامة بريئة ساحرة .

ولم يكن هناك شك فى أن الفتاة لم تفهم من حديث العجوز حرفا واحداً ، وأن محاولتها قد ذهبت أدراج الرياح

وفى النهاية حاولت السيدة محاولتها الأخيرة ، فضربت بيدها على صدرها وصاحت : « وورال ، وورال ! » .

وذلك رغبة منها فى أن تقلدها الفتاة .

ونجحت المحاولة ، ورفعت الفتاة رأسها ثم ضربت صدرها بيدها ، مقلدة العجوز ، وبدأت في الصياح ، ولكن بدلا من أن تنطق اسم وورال نطقت اسمها . كارابو ، كارابو ، ولم تنطق أكثر من ذلك .

★ ★ ★

وذاع أمر الفتاة ، وطار صيتها فى الأنحاء المجاورة ، وأقبل القوم لمشاهدة الأعجوبة الجميلة .

وكان من بين الجموع التى دفعها حب الاستطلاع لمشاهده الفتاة ، رجل من الملايا ، أقبل عليها يجاذبها أطراف الحديث ، وبعد مناقشة طويلة بين الرجل والفتاة ، التفت الرجل إلى القوم ، وأنبأهم قصتها فكانت ، عجبا !!

كانت كارابو ، أميرة يجرى فى عروقها الدم الملكى ، وكان موطنها جيرفازو بالهند الشرقية ، وقد اختطفت الأميرة فى إحدى السفن ، وبعد سفر طويل فى عرض البحر ، أحضرها خاطفوها إلى سواحل هذه البلاد ثم تركوها ورحلوا ، أما سبب الاختطاف وسبب كل هذه الرحلة فبقى سرا ، لم يمكن اجتلاؤه بعد .

وسواء أكان الزوجان الطيبان – مستر ومسز وورال – قد شعرا بأن وجود الأميرة البربرية فى دارهما سيزيدهما شرفا ، أم أنهما شعرا بأن من واجبهما أن يحميا امرأة وحيدة لاعائل لها ، فقد أصرا على أن تبقى كارابو معهما وتستمر ضيفة دائمة عليهما ، حتى يفعل الله بها وبهما ما يشاء .

وبعد أيام قليلة ، بدأت صاحبة السمو تصنع لنفسها ثوبا أصرت على ارتدائه ، ضاربة بكل ثوب غيره عرض الحائط ، وكان هذا الثوب الجديد

عبارة عن قميص قصير يصل الى ركبتيها ذى أكمام واسعة مدلاة تصل أطرافها حتى الأرض ، وبقيت ساقاها عاريتين ، واستمرت على ارتداء الصندل ذى النعل الخشبى فى قدميها .

وتحت تأثير إلحاحها ، أحضر لها مستر وورال ، قوسا وبضعة أسهم ، ولم يندم الرجل على شيء قط فى حياته قدر ندمه على إعطائه الفتاة البربرية ذلك القوس وتلك السهام ، فقد كانت الفتاة الأميرة تملأ نفوس من فى المنزل رعبا حينما تبدأ اللعب بهما ، وكانت الخادمة العجوز فى قلق دائم وهم مقيم ، من جراء تلك الأسلحة الفتاكة ، كما كانت تسميها ، وكثيراً ماكان القوم يصابون فى جلساتهم الهادئة بسهم يلصق فى سقف الحجرة ، أو على المائدة ، تكون الفتاة قد أطلقته من الحديقة أو من حجرة أخرى !

وبعد ذلك اتخذ هذا المظهر الحربى شكلا آخر ، إذا كان أقل خطراً فإنه أشد إزعاجاً وإقلاقاً للراحة ؛ ارتدت الأميرة إلى جانب الريش الذى وضعته فوق رأسها ، والسيف والخنجر اللذين تمنطقت بهما ، دفا من النحاس علقته على كتفيها بسير من الجلد ، وأخذت فى قرعه بمقرعة فى يدها طيلة النهار مثيرة بقرعة ضجة هائلة ، جعلت البيت الهادىء القديم ، أشبه بميادين القتال !

أما العجوزان المسكينان – صبرهما الله على ماابتلاهما به – فقد كانا أشبه بالتائهين فى غيبوبة ، ينظران إلى الفتاة وكأنهما فى مستشفى مجانين ، أو كأن الله قد أرسل لهما شيطانا جميلا لاقدرة لهما على التخلص منه ، فليس أفضل لهما من اكتساب رضائه ، وأخذه بالحيلة والمعروف !

ولم يكن كل مافعلته كارابو يخيفهما ، قدر ما كان يقض مضجعهما الخوف مما تعتزم فعله .

وبالصبر وطول الأناة ، أمكنهما أن يعلما الفتاة أسماء بعض الأشياء الضرورية التى تحتاج إليها ، وبعض الكلمات التى تمكنها من التفاهم معهما .

ولكنهما مع ذلك لم يستطيعا أن يمنعا الفتاة عن أعمالها الهمجية وتصرفاتها التى لاتمت للمدينة بأية صلة !

وفى ذات يوم عادت مسز وورال إلى المنزل بعد غيبة قصيرة ، فوجدت أن كارابو قد اختفت ، وبالرغم من أنها شعرت بعودة البيت إلى هدوئه وسكينته ، فقد أحزنها أن تفقد الشيطانة الجميلة .

وعاد إلى البيت صمته ووحشته مرة أخرى ، وشعر الزوجان بالسكينة تعود إلى حياتهما وكأنهما كانا فى زوبعة ثائرة .

ولكن – وياللأسف – لم يطل بهما هذا الشعور أكثر من أسبوع واحد عندما وردت إليهما الأخبار تباعا بأن شيطانتهما قد وجدت تستحم على الشاطىء ، وبلغهما – فيما بلغ – أنها قد احتلت مركزاً ممتازاً وسط ذلك الجمع الأرستقراطى الذى تعودت الذهاب إليه للتمتع بالاستحمام على الشاطىء طيلة موسم الصيف .

أما كيف وجدت الفتاة طريقها إلى مكان الاستحمام ! فذلك ماأدهش مستر وورال وحير فكره .

وكان مجرد تفكير مسز وورال فيما يمكن أن تحدثه مثل هذه الشيطانة الحمقاء باستحمامها وحيدة وسط هذه الجموع التى لم تكن تثق كثيراً فى أخلاقهم يسبب لها فزعا هائلا .

وبسرعة البرق خطفت أقرب معطف وجدته فى طريقها وأسرعت هى

وزوجها يبغيان الوصول إلى الشاطىء لإعادة الفتاة إلى المنزل قبل أن يحدث ما لاتحمد عقباه !!

★ ★ ★

وفى قصر سيدة من سيدات الطبقة الراقية على شاطىء البحر ، وفى وسط أحد الصالونات الأنيقة الفخمة رأت مسز وورال ما ملأها عجبا .

الأميرة كارابو ، جلست فى كبرياء وعظمة ، تحف بها جمهرة من علية القوم وأسيادهم ؛ فهذه سيدة شقراء تركع أمامها ، وتلك أخرى ترجو أن تقبل يدها ، وهؤلاء خليط من الأساتذة والعلماء قد التفوا حولها ، كل يرجو أن يعرف كنه هذه الساحرة التى هبطت عليهم وكأنها أسطورة من أساطير ألف ليلة .

وكان أحدهم قد طير خبرها إلى إحدى الصحف التى ظهرت . وقد احتلت الأميرة كارابو من صحائفها مكان الصدارة .

لقد أثارت كارابو فى المصيف عاصفة من الدهشة ، وأضحت شغل القوم .

واندست مسز وورال بين تلك الجمهرة التى أحاطت بالأميرة ، واخذت تسائل نفسها ، كيف تستطيع أن تعيد هذه الشيطانة مرة أخرى إلى المنزل ، وكيف تتمكن من تخليصها من وسط هؤلاء القوم . وفيما هى مأخوذة بالمنظر الذى أمام عينيها ، انفجرت القنبلة التى قوضت هذا المنظر من أساسه ، وقلبته رأسا على عقب .

وكانت هذه القنبلة فى صورة سيدة من علية القوم ، متوسطة السن ، اقتحمت الغرفة ، وقد أمسكت فى يدها نسخة من الجريدة التى ظهرت فيها قصة الأميرة كارابو .

وعندما بدأت تتكلم السيدة هدأ الجمع الصاخب ..

وتحدثت السيدة ، وكان ملخص حديثها أنه كان لديها فىْ وقت من الأوقات خادمة تشبه كثيراً فى الاسم والأوصاف تلك التى ذكرتها الجريدة .. وأنها تستطيع الآن أن تؤكد – بعد أن رأت الأميرة المزعومة – أنها هى نفس الخادمة !

وكانت الضربة قوية مفاجئة بحيث لم تستطع كارابو أن تتلافاها .

فخرت مستسلمة !

وكما ذهلت الفتاة وجمد ذهنها فلم تستطع التفكير فى المقاومة والاستمرار فى تمثيل دورها الذى أجادت تمثيله ، ذهل القوم ووجموا وتمنوا لو كانت السيدة غير محقة فى ادعائها .. وأن الفتاة الساحرة أميرة حقا !

ولكن الفتاة كانت قد فقدت أعصابها تماماً .. وخانتها شجاعتها فخرت من عرشها باكية مستعطفة .. واعترفت – فى لغة انجليزية صحيحة – أنها كانت حقاً خادمة .. وأن حبها الجنونى للمخاطرات قادها إلى مافعلت ..

وانهارت الأميرة من عليائها .. وأصبحت – فى غمضة عين – خادمة من الطبقة الدنيا . كأنها قصر جميل صنع من الخشب أو الورقْ ثم أصابه الشرر .. فإذا به ، بعد لحظة هشيم تذروه الرياح ..

وأصبحت الأميرة العظيمة ، أفاكة محتالة ، وأمرت بعد ذلك بمغادرة الأراضى الإنجليزية ، ونجح مستر وورال فى الحصول لها على جواز سفر إلى فيلادلفيا .

ولكن قبل أن تصل إلى فيلادلفيا ، شاءت الأقدار أن يبزغ نجمها مرة أخرى قبل أن ينطفىء نهائياً !

وكان ذلك عندما بدأ البحر يثور . وتلاعبت الأمواج بالسفينة التى أبحرت عليها الفتاة من ميناء بريستول ، فاضطرت السفينة إلى أن تغير مجرى سيرها مؤقتاً حتى تهدأ العاصفة ، فولت وجهها شطر جزيرة سنت هيلانه ، ووقفت بالقرب من ساحلها برهة حتى هدأ البحر ثم أقلعت ثانية ، وبعد إبحارها . وجد أنها قد خلفت وراءها شيئاً . يظهر أنه كان أحد قوارب النجاة الصغيرة .

وشق القارب طريقه متجها إلى الجزيرة التى كان نابليون قد نفى إليها منذ سنتين . وخرج حاكم الجزيرة يستطلع أمر القارب وليرى القادم الجديد .

ورسا القارب على الأرض ، ونزلت منه امرأة صغيرة جميلة .

وتقدمت فى ثقة واعتداد ، بخطى ثابتة متزنة وعرفت نفسها للسير هدسون لو بأنها الأميرة كارابو ، أميرة جيرفازو ، وبأنها لم تكن راغبة فى رحلتها إلى فيلادلفيا ، ففرت من المركب وقطعت حبال أحد القوارب الصغيرة واتجهت به إلى الجزيرة التى تعرف أن بها رجلا عظيما تشبه قصته قصتها !

وكان الثبات الذى روت به قصتها ، والهدوء التى تكلمت به ، قد جعلا السير هدسون لايشك لحظة فى صدق كلامها فقادها إلى الأمبراطور المنفى .

وأثرت القصة المثيرة التى روتها فى نفس نابليون فلم يتمالك نفسه من أن يقبلها ويحتضنها ، بل أنه أمر السير هدسون بأن يجهز لها طابقاً فى البيت الذى يسكن فيه .

ولما كان نابليون معروفا بميله إلى النساء فقد أتيح النجاح للأميرة «كارابو» !!

وفى ١٣ سبتمبر سنة ١٨١٧ صدرت جريدة بستول وبها جميع تفصيلات

القصة ، ومن بينها خطاب من السير هدسون لو يصف فيه الحادث العجيب ، واختتم خطابه كما يأتى :

« وإن الحرارة أو الثقة اللتين تقص بهما قصتها ، تؤكدان للمرء أنها لايمكن أن تكون كاذبة ، وأن مظهرها النبيل وحركاتها الأرستقراطية التى تحيا بها ، كل هذا يقنع المرء تماما بأنها لايمكن أن تكون سوى أميرة » .

ويحكى أن كارابو أصبحت بعد ذلك ملكة سنت هيلانة .

وإذا كانت كارابو ما لبثت أن اختفت من مسرح التاريخ ، إلا أنها استطاعت – رغم ذلك – أن تتذوق لذة الانتصار ، عند ماركع الإمبراطور العظيم تحت قدميها .

الطاغية

مات أتيلا .. ولكن هل نجا العالم بعد ذلك من
الدمار والخراب .. كلا : فما مات أتيلا إلا ليظهر
للعالم أتيلا آخر ...

فى صبيحة يوم مشئوم منذ عدة قرون ، وقف أتيلا يحمل بيمينه سيفاً قديما علاه الصدأ .. وقد ركع أمامه أحد الرعاة فى ذلة وخشوع ، وبدأ يقص قصته العجيبة ..

قال الرجل إن إحدى بقراته عادت إليه يوما وقد شق حافرها وسالت منه الدماء . وأحس الرجل أن قوة خفية خارقة تدفعه إلى أن يتبع آثار الدماء .. فقادته فى النهاية إلى حيث عثر على هذا السيف الأثرى الجميل .. ولم يشك الرجل لحظة فى أنه أحد سيوف «مارس» إله الحرب ، وأن السما قذفت به إليه ليحمله للرجل الذى يستطيع أنه يقهر به العالم بأسره .. ومن يكون هذا الرجل سوى أتيلا القائد الجبار !!

وكان الإيمان بالقوة الخفية فى ذلك الوقت ، يتضاءل أمامه الإيمان بالمنطق

والعقل .. ولاسيما إذا كان فيها ما يرضى كبرياء امرىء نفخ الغرور أوداجه ، وأعمت المطامع بصيرته .. وسرعان ما اقتنع أتيلا ، بعد سماعه حديث الرجل ، بأن الأقدار قد اختارته حقاً ليقهر الإمبراطورية الرومانية ، وبالتالى ليقهر دول الأرض جميعاً !

وكان أتيلا يحكم – بالاشتراك مع أخيه – جميع القبائل التى تسكن فى أوربا الوسطى .. والتى بدأت تزداد تضخما ، وأخذ جيشها يزداد قوة ، فقد كانت قبائل البربر تتدفق من فنلندة وألمانيا والأورال ، منحدرة صوب الرين والدانوب وهما حدود الإمبراطورية الرومانية من الشمال ..

واتسع سلطان أتيلا وأخيه ، حتى شمل ما بين الأدرياتيك والبلطيق ، ثم امتد حتى غابات اسكندناوه .. ولم يكن يضايق أتيلا إلا مشاركة أخيه إياه ، فى هذا الملك الواسع .. فقد كان لايؤمن بالشركة قط ، وكان يعيب على الرومان شطر إمبراطوريتهم شطرين إرضاء لإمبراطوريها المتحدين ..

وكيف يرضى أتيلا بالشركة ، وقد خصه مارس بسيفه ، واختارته الأقدار لقهر العالم ؟

واستقر رأى أتيلا على التخلص من أخيه .. فأمر بقتله .. وقد لايكون فى ذلك شيء من الغرابة .. فإن الإنسان ، قد بدأ قصة حياته بقتل أخيه الإنسان .. ولكن الغريب حقاً هو قدرة أتيلا على التأثير فى نفوس الناس .. فلم يكن هناك من يجرء على رفع بصره إلى عينيه النفاذتين القاسيتين .. ولم تكد تمضى برهة حتى تقدم إليه كل من أقسم يمين الطاعة لأخيه معلنين ولاءهم واستعدادهم لنصرته ، والعمل تحت لوائه ..

وكان أتيلا قصير القامة ، قوى البنية ، ذا رأس ضخم ركب على عنق كأنه جذع شجرة ، وقد بدت عليه الخشونة والغلظة فلا يكاد يسمع منه إلا حديث

صاخب مزمجر كأنه بحر يهدر أو أسد يزأر .. ولا يكاد يفعل فى حياته شيئا إلا التأهب والاستعداد للحرب ، وحشد الأسلحة ومعدات القتال .. ولم يكن يهمه إطعام جنوده ، فقد كان عليهم أن يحصلوا على الطعام لأنفسهم من عدوهم المغلوب على أمره ، فكان بذلك يبيح لهم السلب ، والنهب وارتكاب كل منكر وموبقة ، دون أن يحاول أن يحد من شرورهم !

وكان الإمبراطور ثيودوسيوس يعلم أن أتيلا يتحين الفرصة للانقضاض على إمبراطوريته . فاتبع معه سياسة الاسترضاء واللين ولكن الذئب لم يستطع على التهام الحمل صبراً ؛ فادعى أن مارجوس أسقف الرومان قد اقتحم قبور أجداده ، فسلب ما بها من كنوز !

ولم ينتظر أتيلا حتى يرد الرومان على تهمته ، بل انقض بجيوشه على المدن الرومانية .. فأعمل فيها التدمير والتخريب والذبح والتقتيل فسبى نساءها ، وشرد أطفالها ، وترك رجالها جثثا ممزقة ، ومنازلها أطلالا خربة !

ولما تلقى احتجاجاً من بلاط القسطنطينية كان رده عليه : « أعطونا الأسقف ، وإلا استبدلنا به حياتكم أجمعين » ولم يرض ثيودوسيوس أن يضحى بحياة الأسقف البرىء .. فقد كان يعلم تماماً أن أتيلا لن يعدم حجة أخرى يتخذها وسيلة لإشباع شهوته المتعطشة إلى سفك الدماء .. فلم يجد خيراً من التسويف والمماطلة .

على أن هذه الطريقة لم تكن لتجديه نفعاً فى وقف أتيلا المتحفز فقد وثب بجيشه على « تشكوسلوفاكيا » فدمر عاصمتها ، وأهلك الحرث والنسل ، وترك أهليها أشلاء فوق أشلاء ، لاتجد من يواريها التراب !

ومضى أتيلا يتقدم كأنه الريح العاتية ، لاتبقى ولا تذر ، لايخلف وراءه غير

الموت والدمار .. وأخيراً لم يجد ثيودوسيوس بدأ من التسليم بعد أن تحطمت جيوشه وتفرق شملها .

وكانت شروط أتيلا لإخلاء الأراضى الرومانية مريرة قاسية فقد طلب أن تكون له سوق حرة على ضفاف الدانوب .. وأن يدفع له سنويا سبعمائه رطل من الذهب .. وأن تكون الإمبراطورية الرومانية فى حالة حرب مع أية دولة تفكر فى مهاجمة أتيلا !

ولم تدم هذه الفترة من السلم طويلا ، فقد وقع حادثان كانا سبب تقويض بنيانه ، وتعكير صفوه .. أولهما موت ثيودوسيوس فجأة عقب سقوطه من فوق جواده .. فخلفه ماركيانس الذى كان أقوى منه مراساً ، وأشد بأسا .. وكان الحادث الآخر رسالة عجيبة تلقاها أتيلا من إحدى الأميرات !

وتبدأ قصة هذه الأميرة منذ بضع سنوات .. فقد كانت الإمبراطورية الرومانية ، كما قلنا مقسمة قسمين : القسم الغربى ، وعاصمته رافينا ، وعلى رأسه الإمبراطور فالنتيان ، والقسم الشرقى وعاصمته القسطنطينية ، وعلى رأسه الإمبراطور ثيودوسيوس .. وكان للإمبراطور فالنتيان أخت صغيرة ، رائعة الجمال ، شديدة السحر .. وتشاء الأقدار الساخرة أن تهوى الأميرة الصغيرة أحد أتباعها فتنزل معه .. ويخشى الإمبراطور الفضيحة فيبعدها إلى قصر تيورسيس ، طالباً من زوجته العناية بها !

واستمرت الأميرة الطائشة كامنة فى وكرها حقبة من الزمن .. ثم شاء لها نزقها أن تبعث مرة أخرى ، فبعثت إلى أتيلا برسالة تعرض عليه فيها الزواج منه ، وبذلك يمكنه أن يضم جزءاً كبيراً من الدول الرومانية إلى أملاكه :

أثار هذا العرض العابث اغتباط أتيلا ، وأرضى غروره ومطامعه . فلم يتوان فى أن يرسل إلى فالنتيان يعرض عليه الزواج من أخته ويطلب معها

بائنة كبيرة إلى جانب الجزية السنوية .. كما طالب بحقه فى عرش الإمبراطورية الغربية !

ورد عليه فالنتيان بقوله إن الأميرة لا يمكنها الزواج منه ... لأنها متزوجة .. وهى فوق ذلك ليس لها أى حق فى عرش الإمبراطورية .. لأن الميراث فى العرش مقصور على الذكر .. ثم أبلغه فى النهاية أنه قد قرر ، بالاتفاق مع زميله الإمبراطور ماركيانس ، التوقف عن دفع الجزية السنوية .. والاكتفاء بأن يرسلا إليه بعض الهدايا من آن لآخر إذا وعد بالمسالمة ، وبأن يقبع داخل حدود دولته !

وثارت ثائرة أتيلا ، وجن جنونه .. فلم يكن يخطر على باله قط أن هناك من يحاول أن يقف فى وجهه ، أو يعصى له أمراً .. وبدأ يحشد قواه للانقضاض على فريسته مرة ثانية .. وحاول الرومان أن يكسبوا بعض الوقت حتى يستعدوا لصد غائلته ... فأوفدوا إليه الرسل لتهدئته وكبح جماحه .. ونجح الرسل فى تأخير العدوان .. وأراد أتيلا أن يسلى نفسه بزواج آخر ، حتى يحين وقت حصوله على الأميرة .. فقرر الزواج بأخته ، مبالغة منه فى احتقار عادات الرومان وتقاليد المسيحية .

ولم تكد تنتهى مراسم الزواج حتى بدأت قوات أتيلا تتدفق تدفق السيل على الإمبراطورية الرومانية .. وكانت الجحافل التى حشدها أتيلا من الضخامة بحيث لايكاد يتصورها العقل .. فقد تحركت الأمة بأجمعها الى ميدان القتال . وسار الجند مصطحبين زوجاتهم وأولادهم وما شيتهم وكل ما يملكون من حطام الدنيا حتى عبروا الرين عند مدينة ستراسبورج .

واتجه أتيلا إلى أورليان ، ولكن الجيش الرومانى بقيادة اكتيوس اضطره الى تعبير اتجاهه نحو سهل شالون .. وهناك ذاق أتيلا مرارة الهزيمة للمرة

الأولى فى حياته .. فغلب على أمره ومزق الرومان جيشه حتى اضطر أخيراً إلى التقهقر وعاد أدراجه إلى الدانوب .

على أن هذه الهزيمة المنكرة لم تكن لتثنى أتيلا عن الوصول إلى الأميرة بل زادته رغبة فيها ، وتلهفاً عليها . وسرعان ما بدأ فى لم شعثه ، وحشد جنوده مرة أخرى .. وأقسم فى هذه المرة ليقدمن روما هدية إلى الأميرة الحسناء ..

وعبر أتيلا جبال الألب ، ثم وصل إلى بكارا على بحيرة جاردا وهناك قابل البابا ليو الأكبر الذى استطاع أن يقلب خطط الطاغية رأساً على عقب .. فقد أقنعه بأنه خير له – إذا كان يرغب فى الحصول على الأميرة – أن يذهب رأساً الى القسطنطينية بدلا من أن ينهك قواه بالقتال فى الأراضى الإيطالية ..

وعاد أتيلا الى قصره فى الناحية الأخرى من الدانوب .. وأمضى بعض الوقت فى الاستجمام والراحة .. وهناك أثارت إحدى الفتيات إعجابه ، فرغب فى الزواج منها حتى يكون له فيها العزاء عن فشله فى زواج الأميرة ..

وأراد أتيلا أن يكون الاحتفال بالزواج احتفالا عظيما رائعاً . حتى يزيل من نفسه ما علق بها من حزن وضيق .. فتفنن القوم فى الزينة . وأمعنوا فى تهيئة وسائل الاستمتاع والتنعم .. فسالت الخمر أنهاراً ، وانتشرت الراقصات والمطربات في أنحاء القصر يملأنه متعة وحبوراً ، وجلس القوم يلتهمون الأطعمة الفاخرة اللذيذة فى أطباق من ذهب وفضة ، وجلس أتيلا فى وسط ذلك الجو الضاحك الصاخب .. وليس أمامه إلا طبق وكوب خشبى ، يتناول فيهما طعامه وشرابه ، فقد كان لا يرضى عنهما بديلا !

وغرق أتيلا فى الشراب .. وظل يحتسه كأساً بعد كأس ، حتى كاد أن

يفقد وعيه ، فساعده نفر من أتباعه على السير إلى غرفته كي يفيق ، فيزفوا إليه عروسه الفاتنة ..

وكانت الفتاة فى ذلك الوقت قد أخذت تتـزين وتتعطر ، حتى بدت آية فى الجمال .. وبعد أن أتمت زينتها جلست فى انتظار استدعائها للذهاب إلى أتيلا ..

وطال انتظار الفتاة دون جدوى .. فقد كان أتيلا لايزال مستغرقاً فى سباته .. وطرق القوم باب غرفته فما كان الرجل ليجيب بشىء ! وخشوا أن يكون قد مسه ضـر فاقتحموا الغرفة ، ثم اقتربوا منه ، فإذا به جثة هامدة !!

مات أتيلا الجبار .. فقد انفجر فى رأسه الضخم شريان صغير عجل بالقضاء عليه .. بعد أن ترك نصف أوروبا خراباً بلقعا ، لا أثر فيها إلا هذه الجثث الهامدة وتلك الأنات الموجعة الخافتة .

مات أتيلا !! ولكن هل نجا العالم بعد ذلك من الدمار والخراب ؟ .. كلا .. فما مات أتيلا إلا ليظهر للعالم أتيلا آخر .. ! وثالث ورابع .. فما كان للعالم أن يحيا بدون أتيلا ليقوده إلى الخراب والدمار .

وعبثا يحاول العالم التخلص من أتيلا .. فما هو بجسد يقتل .. بل روح تحيا فى كل عصر .. وتبقى :

كالحسام الجزار يبقى على الدهر
ويفنى فى كل عصر قرابه

أقـوى من الـزمن

الإهداء

إلى الذين جعلوا من الأمنية حقيقة .. ومن الأغنية واقعاً ملموساً .

إلى الذين قالوا : « حانبنى السد » وبنوه .

إلى أصحاب المعجزة .

إلى القائد بعزيمته وصلابته وإصراره .

والشعب بقدرته وجلده وصبره .

الذين قدموا الدليل على إرادة الإنسان وتفوقه المطلق فى هذه الأرض .

يوسف السباعى

الفصل الأول

تبن .. ولبن .. وعطر

المنظر الأول

(أمام معبد فرعونى على شاطىء النيل .. قبيل الغروب .
(عمر المهندس بالسد ، ومصطفى مساعده .. وصبحى سائق كهل سمين يحمل صفيحة فارغة . وقد توقفت بهم العربة قرب المعبد .. وقد ساروا على أقدامهم مقتربين من المعبد) .

صبحى – سير المروحة قطع .. والعربة تغلى .

عمر – (فى سخرية وهو يتأمل المعبد من على بعد) شاطر .

صبحى – كان السير قديماً .. وطلبت تغييره منذ أسبوع . وعندما ذهبت إلى المخازن ... لم أجد أبو الفتوح وذهبت إلى ..

مصطفى – (مقاطعاً) انتهينا .. أدر العربة للريح ودعها تبرد .

صبحى – لو وجدنا هنا مَن يملأ لنا الصفيحة .. إن مياه العربة تغلى .

عمر – املأها من النيل .

صبحى – كيف ؟

مصطفى – (مشيراً بيده إلى الشاطىء) اذهب إلى هناك ومد يدك بالصفيحة إلى المياه واملأها .

صبحى – (متردداً) قد تنزلق قدمى من فوق الطين وأغرق .

مصطفى – لاتخش الغرق أبداً .. جثتك السمينة ستطفو .

صبحى – والتماسيح .. ؟

عمر – تماسيح ؟ . أية تماسيح ؟

صبحى – لقد سمعت أنها تملأ النهر هنا .. عبد السميع قال لى .

مصطفى – (يمد يده ويحاول أخذ الصفيحة) هات . سأملؤها أنا .

صبحى – ولِمَ لاتسأل شخصاً من هنا (مشيراً إلى المعبد) لعله يعطينا ماء نظيفاً نشرب ونملأ العربة .

عمر – (فى غيظ) ياأخينا .. لن نجد هنا أحداً .. هذا معبد .

صبحى – معبد .. يعنى إيه ؟

مصطفى – يعنى بيت للعبادة .

صبحى – بيت من بيوت الله ؟

عمر – أجل .. الله .. آمون .. أو أزوريس .. أو إخت .. أو سخت .. أى شىء .. الآلهة .. كانت عندهم كالرز .

صبحى – مهما كان . فلابد أن يكون له ميضة وخادم .

مصطفى – ميضة إيه .. وخادم إيه .. ياأستاذ .. هذا كان منذ آلاف السنين .

صبحى – (متقدماً يستحث الخطا تجاه المعبد) سأذهب وأرى .. بيوت الله دائماً عامرة .

(يعبر باب المعبد ثم يختفى داخله) .

مصطفى – (متأملا المعبد) عجيبة .

عمر – ما العجيبة ؟

مصطفى – هذه الضخامة والروعة .

عمر – والمتانة .. بعد كل هذه السنين الطويلة .. تبدو كأنها بناء صالح للاستعمال .. لا أطلالا عفى عليها الزمن .

مصطفى – أتذكر عندما زرناه أول مرة .

عمر – أجل .. أذكر أسطورة بنت فرعون المنقوشة على الحجر تروى قصة حبها لأمير الشمال حين أتى لغزو أرضهم من الضفة الشرقية .

مصطفى – تصور .. كل هذا كان يمكن أن يذهب هباء .. أن تغرقه المياه .. ويصبح كأن لم يكن .

عمر – (مفكراً) لو أنه لم يكن من البداية لكان أفضل .

مصطفى – ماذا تقصد ؟

عمر – أفرض .. لو أنه لم يوجد ، لوفر علينا هذه الملايين التى ستنفق من أجل نقله وصيانته .

مصطفى – ولكن أنت نفسك قلت أنه يستحق الإنقاذ .. إنه شيء له قيمة .

عمر – لمن ؟

مصطفى – لـ .. لـ .. لنا جميعاً ، شيء نفاخر به .

عمر – الآن ؟

مصطفى أجل .

عمر – ولكن .. في البداية .. في أول خلقه .. هل تظنه أنشيء من أجل أن نفاخر به .. هل تظن أجدادك الذين أنشئوه .. قد كلفوا أنفسهم كل هذا الجهد .. من أجل أن يتركوا لك شيئاً تفاخر به .. أتظنك كنت تشغل بالهم إلى حيث لابد لهم أن يتركوا لك شيئاً تفخر به !

مصطفى – لاتنس أن كل هذا عنصر هام من عناصر الجذب السياحي .. والسياحة .. كما تعلم قد أصبحت مورداً هاماً من موارد البلد .. لقد قرأت منذ بضعة أيام أنها ستدر علينا من العملة الصعبة .. أكثر من قناة السويس .

عمر – لاتحاول أن تقنعني بأن أصحابه بنوه لكي يكون مورداً للعملة الصعبة .

مصطفى – طبعاً لا .. أنا أعرف أنهم بنوه ..

عمر – (مقاطعاً) لكي يكون مأوى لأجسادهم .. وجعلوه من الروعة بحيث أصبح علينا نحن أن نصونه ونفاخر به ولا نملك إلا أن نفعل هذا .. ولسنا وحدنا الذين جرنا أجدادنا إلى هذا المطب .

عندما كنت أدرس في روسيا ، ذهبت إلى لينينجراد ، ورأيت قصر القيصر .. أية فخامة .. وأي بذخ .. وأية مبالغ طائلة أنفقها فرد .. لكي يصنع

مأوى لنفسه .. بالذهب والأحجار الكريمة .. ووقفت أتأمل فى ذهول حجراته الرائعة حجرة بعد حجرة .. وهى تبدو فى بريقها وجدتها كأنما نفض الصانع منها يده منذ لحظات .. وأبديت تلك الملاحظة لمرافقى .. فقال ببساطة مؤكداً .. أجل .. لقد أعيد تجديد كل هذا .. لقد صنع من جديد حسب نماذج مصورة .. بعد أن دمرها الحصار النازى الذى استمر تسعة أشهر حول لينجراد .. وعندما سألته فى دهشة .. كل هذا أعدتم أنتم صنعه من جديد ؟ .. رد فى تفاخر : أجل .. وقلت لنفسى : أفهم أن يصنع القيصر كل هذا من أجل متعته .. ولكن لماذا تعيدون أنتم صنعه ؟

وأتم مرافقى حديثه وكأنه يجيب على سؤالى :

– هذا تراث قومى ينبغى أن نحافظ عليه .. إنها آيات من الفن ينبغى لها أن تبقى .

ولقد كانت فعلا كذلك .. وهذا هو الخازوق .. وبدا لى كأن القيصر يخرج لسانه قائلا : لم يعجبكم أن أصنع هذا لنفسى للاستعمال .. حسن .. اصنعوه أنتم الآن .. للتفاخر .. لمجرد أن يقولوا للناس فى تيه وإعجاب : هنا كان يرقد القيصر .

مصطفى – وماذا كنت تريد منهم أن يفعلوا ، أيتركُونه أنقاضاً فى خرائب الحرب .. وماذا تريد منا أن نفعل الآن ؟

عمر – (يهز رأسه فى حيرة) شىء محير !!

مصطفى – نترك المياه تغمره ، ونقول للناس كانت لنا أمجاد أغرقناها فى قاع النهر .

عمر – (يقلب شفته) ولَم لا .. لافتة ببضعة جنيهات ، وسهم يشير إلى قعر

النهر .. «هنا يرقد المرحوم أمنحتب فى قبر صفته كذا وكذا .. أغرقه السد العالى الذى منح الحياة للملايين» .

مصطفى – أنت شديد الانفعال بالسد العالى .. أتظن أن حرصنا على بناء المستقبل .. ينسينا المحافظة على أمجاد الماضى ؟

عمر – (ينظر إلى الساعة ويهتف فى قلق) موعد الوردية اقترب .. أين هذا الغبى الذى يحضر الماء ؟

مصطفى – (فى سخرية) مازال يبحث عن خادم بيت الله لعله قد وجد (سبيل) .

(يبدو رأس صبحى مطلا من باب المعبد وهو يصيح)

صبحى – يا باشمهندس .. يا باشمهندس .

عمر – هذا الغبى .. لماذا يصرخ ؟ (صائحاً) ماذا تريد ؟

صبحى – (صائحاً) تفضل .. تفضلا .

مصطفى – ترى ماذا وجد ؟

عمر – دعك منه .. (صائحاً) هيا بسرعة .. لابد أن العربة قد بردت ، وليس لدينا وقت .

صبحى – (مستمراً فى الصياح) تعال يا باشمهندس .. تعال ..

عمر – (صائحاً) ماذا تريد ؟

صبحى – تعالى .. وانظر .

عمر – أنظر ماذا ؟

صبحى - (واضعاً يده حول فمه خافضاً صوته كأنما يخشى أن يسمعه أحد) تعال .. لنرى العجب .. الظاهر أن هنا جوقة ممثلين .. واحدة منهن تبدو بملابسها الراقصة .

عمر - الظاهر أن الرجل قد انخبل .

مصطفى - تعال لنرى .

عمر - ليس لدينا وقت .

مصطفى - بضع دقائق لن تؤخرنا .. هيا بنا .

عمر - ربما كانت إحدى الشركات السينمائية .. تصوّر بعض اللقطات .

مصطفى - ولكن ليس هناك أى أثر لعربات أو أسلاك ممتدة .

عمر - ربما كانت موجودة فى الخلف .

صبحى - (مستحثاً إياهما) عجيبة .. أشياء عجيبة !

(عمر ومصطفى يصلان إلى باب المعبد ويختفى الثلاثة داخله) .

(ينزل الستار)

المنظر الثانى

(بهو المعبد .. يبدو البناء جديداً .. والنقوش دقيقة .. والألوان واضحة .. صفان من الأعمدة على جانبى البهو وفى الواجهة باب عريض يؤدى إلى مرسى .. والنيل يبدو من خلاله .. وعلى اليمين بابان منخفضان وباب كبير تؤدى إليه بضع درجات .. على اليسار وراء الأعمدة ممر به بئر يحيط بها سور قصير مستدير)

(صبحى يسير فى حذر ، وقد أمسك بالصفيحة ووراءه عمر ومصطفى) .

صبحى – كانوا هناك .. لمحتهم يقفون قرب الباب بملابسهم المخططة ، ثم دخلوا واتجهوا إلى هذا الباب الكبير ، واختفوا جميعاً دون أن يلمحنى أحد .. ووقفت أرقبهم مذهولاً .. وبدوا لى فى أول الأمر كأنهم مشخصاتية .. ولكن حركاتهم المتزنة وأشكالهم المهيبة ، جعلتنى مشدوهاً . ووقفت أرقبهم .. لا أنبس بكلمة حتى اختفوا .. وتذكرت الصفيحة فى يدى .. ومياه العربة التى تغلى .. وكانت هى تسير فى المؤخرة .. ولم تعبر الباب بعد .. بل تلفتت وراءها ووقفت مترددة كأنما نسيت شيئاً .. ووجدتها فرصة سانحة فهتفت بها «من فضلك من أين أستطيع أن أملأ الصفيحة ؟» ونظرت إلىّ فى كثير من

الدهشة .. وأخذت تفحصنى كأنى مخلوق غريب .. ثم أشارت بأصبعها إلى البئر .. وقالت فى صوت رقيق : «من هنا» .. ثم صعدت الدرج واختفت وراء الباب .. وانطلقت أنا أدعوكما لتريا .. بعيونكما .

عمر – (مبهوراً بكل ما حوله) عجيبة .. هذه ليست آثار .. هذا بناء جديد .

مصطفى – ألم أقل لك .

عمر – قلت لى ماذا ؟

مصطفى – قلت لك .. إن هذا تراث قيم ينبغى أن نحافظ عليه .. إنها أمجاد الماضى .. لايجب أن يطمسها الحاضر أو المستقبل .

عمر – ماهذا الذى تقول .. عن أى تراث تتحدث . إنه حاضر . إنها ليست آثارا . ألا ترى الحصر المفروشة . ألا ترى الألوان والنقوش !

مصطفى – إنها معجزة .

عمر – ليست معجزة .. لابد أن برعوسنا شيئاً .. اسمع ياصبحى .. أمتأكد أنت أنك رأيت أناساً هنا ؟

صبحى – طبعاً يا باشمهندس .

عمر – (يهز رأسه فى حيرة) قد يكونون عمال الآثار ، أعادوا ترميم البناء .. ولكن لماذا .. إذا كان المعبد بأكمله سينقل من هنا حتى لايغرق .. ما الداعى إلى هذه الترميمات ؟

مصطفى – لابد أن المبلغ كان موجوداً فى الميزانية .. وخشيت المصلحة من ضياع الاعتماد .

عمر – هذا إسراف .. جنون .. ولكن لماذا يرتدى عمال الآثار الملابس المخططة .. أمتأكد ياصبحى أنهم كانوا يرتدون ملابس غير عادية .

صبحى – طبعاً يا باشمهندس .. كلهم .. لقد كانوا كالفرقة الراقصة التى نراها على المسرح فى التليفزيون ، عن إذنكم .. سأملأ الصفيحة .

(يتجه إلى البئر ويحاول أن يملأ الصفيحة) .

(تبدو مريت بالباب الكبير .. وتهبط الدرجات وقد بدت عليها الدهشة) .

مصطفى – ها هى .. ذى .

عمر – عجيبة !

مصطفى – وجميلة .

عمر – جداً .. أظنها ممثلة .

مصطفى – من أين ؟

عمر – وجه جديد .

(تقترب مريت منهما وتفحصهما كأنما تفحص حيوانين غريبين)

مريت – اثنان جديدان .. الآخر كان سميناً .. ما هذا الذى ترتدونه .. ومن أين جئتم ؟

عمر – (وقد بدا عليه الشعور بالخجل وهو يرى نفسه تحت الفحص كمخلوق غريب) نحن .. من القاهرة .

مريت – (باستغراب) القاهرة !

مصطفى – (باعتزاز) ولكننا نعمل هنا فى السد .. فى الضفة الأخرى .

مريت – (بخوف) فى الضفة الأخرى .. منذ متى أتيتم ؟

عمر – منذ مدة .

مريت – كثيرون ؟

عمر – ثلاثون ألفاً .

مريت – (تصرخ فى جزع) مرة واحدة .. هذه كارثة .. لقد تحققت النبوءة .

مصطفى – أية نبوءة ؟

مريت – النبوءة التى أسرّوا بها إلى أبى .

عمر – أبوك .

مريت – أجل .. لقد أكدوها له .

مصطفى – ومن يكون .. السيد والدك .. لم نتشرف بمعرفته بعد ؟

مريت – أبى .. فرعون .

عمر – (فاغراً فاه) فر .. فرعون .

مصطفى – (يضحك) هكذا مرة واحدة .. وبم أنبئوه ؟

مريت – أنبئوه بالغزو القادم من الشمال .

(صبحى مقبلا وهو يحمل صفيحة المياه وقد أغرقت المياه ملابسه) .

صبحى – لا أعلم كيف يخرجون المياه .. لقد كدت أغرق .. ولكنها مياه حلوة .. باردة كالثلج .. هل من يشرب ؟

مريت – (تنظر إليه فى جزع) مخيف .. لابد أن أنبئهم بما حدث لكى يتخذوا أهبتهم . لن يتركوكم تهربون .

عمر – (يمسك بيدها) سيدتى .

مريت – دع يدى والا صرخت .

عمر – أرجوك لاداعى للفضيحة .. افهمينا .. ودعينا نفهمك ..أؤكد لك .. أننا لا نفهم شيئاً من كل هذا .. النبوءة .. والغزو .. والسيد فرعون ..والدك .. كل هذه ألغاز محيرة .. لماذا لانجلس للتفاهم .

مريت – نتفاهم على ماذا ؟ إذا كنتم قد أتيتم للغزو .. فليس لى سلطة التفاهم معكم .

عمر – غزو ماذا ياسيدتى ؟ . نحن مهندسون فى السد .. نعمل فى الضفة الأخرى .

مريت – فى الضفة الأخرى .. وقادمون من الشمال !؟

عمر – (ينظر إلى مصطفى فى حيرة) نحن قادمون من الشمال ؟

مصطفى – طبعاً .. القاهرة فى الشمال .

صبحى – أنا من ملوى .

مصطفى – يعنى من الشمال .

مريت – وثلاثون ألفاً !؟

عمر – تقريباً .. بالخبراء .

مريت – هذا مخيف .. مخيف .. النبوءة بعينها .

عمر – سيدتى .. أرجوك .. نحن نعمل فى السد .

مريت – السد !؟

مصطفى – أجل .. السد العالى .

صبحى – ألم تسمعى عنه .

مريت – لا .

صبحى – غير معقول .. فى أسوان ولا تسمعين عن السد ؟

مصطفى – فى مصر ولا تعرفين السد !؟

عمر – فى عصرنا هذا .. وتجهلين السد .. معجزة القرن العشرين !

مريت – القرن العشرين .. ماذا تعنى ؟

عمر – أعنى القرن العشرين بعد الميلاد .

مريت – ميلاد من ؟

مصطفى – المسيح .

مريت – ومن يكون ؟

عمر – لا .. هذا غير معقول .. الظاهر حقيقة أن أباك فرعون .

مريت – طبعاً .. ماذا تظننى ؟.. أكذب عليك .. سأنادى الحراس حتى .. تعلم .

عمر – لا .. لا.. لاضرورة أبداً .. أنت ابنة فرعون .. ابنة فرعون .. هيا بنا ياجماعة .. دعونا نعد ، وقت الوردية أزف .

مريت – (فى تشكك) تعودون إلى أين ؟

صبحى – إلى الشغل .. ماذا حسبتنا ؟ عواطليه ؟

مريت – تذهبون .. لكي تعودوا مرة أخرى ومعكم الباقون ..لا .. لا لابد أن أبلغ الحراس لكي يقبضوا عليكم ويستجوبوكم .

عمر – (فى ضيق) يانهار أسود نحن لم نفعل شيئاً يستحق الاستجواب .. وليس لدينا وقت لهذا اللعب .. ثم من الذى له سلطة القبض علينا واسجوابنا ؟

مريت – سترى (تهم بالصراخ) .

مصطفى – سيدتى .. أرجوك (لعمر) ويحدين .. دعنا نأخذها على عقلها .. قد تكون ابنة عمدة وبها هفة .. أو شىء من هذا القبيل وتدعى أننا اعتدينا عليها . وتدعو الخفراء يقبضون عليك .. وحتى تثبت أنك مهندس تكون قد لقيت الكفاية من الضرب والبهدلة .

(لمريت) سيدتى نحن تحت أمرك .. ولكن تأكدى أننا لا نلحق أذى بأى مخلوق .

مريت – إذن ما الذى أحضركم إلى هنا ؟

عمر – العربة وقفت هنا .

مريت – معكم عربة ؟

مصطفى – طبعاً .

مريت – من عربات الغزو ؟!

صبحى – لا عربة جيب ٦ سلندر موديل ٥٤ .

مريت – لاأفهم .

عمر – (مغمغماً) ولن تفهمى أى شىء .. ولن نأخذ منك سوى العطلة وضياع الوردية .

مريت – ماذا تقول ؟

عمر – أحدث نفسي .. مجنون .

مريت – يظهر هذا .. لنكلم العقلاء (توجه القول إلى مصطفى) .

مريت – لماذا وقفت العربة هنا ؟

صبحي – سير المروحة انقطع والعربة سخنت .

مريت – لا أفهم .

عمر – بالاختصار أصابها عطل .

مريت – وماذا أدخلكم هنا ؟

صبحي – لملء صفيحة المياه .. كما طلبت منك .. ألا تذكرين !.

مريت – أجل .. أذكر .. وإلى أين تذهبون ؟

مصطفى – إلى الموقع .

مريت – أي موقع ؟

عمر – (في ضيق) موقع السد .. ياسيدتي .. دعينا نذهب .. لقد أزف الوقت .

مريت – (في إمارة) .. إذا لم تصمت أنت .. سأنادي الحراس يضعونك وحدك في السجن . أفهمت ؟! قلتم إنكم ذاهبون إلى موقع السد .. وإنكم تعملون في بناء السد .. وعددكم ثلاثون ألفا ؟!

مصطفى – تقريباً .

مريت – عجيبة !! هذا المعبد الضخم لم يعمل فى بنائه أكثر من ثلاثة آلاف .. لابد أن يكون هذا الذى تبنونه .. شيئاً هائلا .

عمر – طبعاً .

مريت – هل تظنون فرعونكم يستحق هذا الشيء الضخم ؟!

مصطفى – فرعوننا ؟

مريت – الذى تبنون له هذا الشيء الذى تسمونه السد .

عمر – ليس لدينا فرعون .

مريت – ليس لديكم فرعون ؟ .. من الذى يحكمكم ؟

عمر – واحد منا .

مريت – عجيبة .. ومن أجل من إذن تعملون السد ؟

عمر – من أجلنا جميعاً .

مريت – (في دهشة) ماذا تقول ؟ ستدفنون فيه جميعاً .. هذا هو السر إذن .

عمر – (فى ذهول) أى سر ؟

مريت – سر الثورة التى حدثت بين الشعب .. لابد أنكم المحرضون عليها .

مصطفى – محرضون على ماذا ؟

مريت – على المطالبة بحق التمتع بالجنة السماوية كى تصبح حقاً مشاعاً لكل الشعب على السواء .. أنتم الذين حرضتم على نشر المبادىء الثائرة من أجل حرية التمتع بالجنة السماوية .

عمر – (لمصطفى) فاهم ؟!

مصطفى – ولافاهم حاجة أبداً . الظاهر أن بها خبلاً .

مريت – (مستمرة) ومن أجل هذا تريدون دفن الشعب كله فى مقبرة واحدة مع فرعون .. حتى يذهبوا كلهم معه فى السماء .

عمر – (فى هدوء) سيدتى .. أرجوك .. نحن لانبنى السد لكى يدفن الشعب فيه .. بل لكى يعيش منه .

مريت – ماذا تعنى ؟

عمر – أعنى أننا نقيمه على النيل لكى نحجز به كل المياه الضائعة فى البحر وقت الفيضان .. ونتحكم فى استعمالها كما نشاء طوال العام .. ثم نروى بها المزيد من الأرض ونطعم بها المزيد من الناس .. عندنا ثورة ولكن من أجل حق الحياة .. لا من أجل حق الموت والآخرة ، والجنة السماوية .

مريت – (تهز رأسها فى دهشة) هذا كلام عجيب .. أشياء عجيبة تدور من حولنا دون أن ندرى عنها شيئاً .. لابد أن نكون قد بلغنا آخر الزمن .. هؤلاء الناس الذين استقروا فى وطنهم .. قد ثاروا من أجل حقهم فى الجنة السماوية .. يريدون مشاركة فرعون فيها .. وراحوا يهاجرون إلى الشمال .. إلى حقل القربان فى هليوبوليس بعد أن يئسوا من الصعود إلى السماء مع النجوم الثابتة حيث ينعم فرعون وأخصاؤه بالجنة السماوية .

عمر – (فى دهشة) يهاجرون إلى أين ؟

مريت – (فى تأكيد) إلى الشمال .. إلى حقل القربان فى هليوبوليس ، لكى يتمكنوا من الوصول إلى الحقل الجميل على الطريق الطيب .. حتى يتمتعوا بجنة الأرض بعد أن يئسوا من جنة السماء .

مصطفى – (يهز رأسه) يهاجرون إلى الشمال .. أى نعم .. ولكن هليوبوليس .. كثير .. لأنهم قطعاً سيتوقفون فى كوم امبو .. وسيمنحون أراضى .. من يدرى .. قد يجعلونها جنة الأرض .

مريت – أنتم تعرفون إذن بأمر هذه المؤامرة ؟

عمر – أية مؤامرة ؟

مريت – تحريض الشعب على الثورة .. وعلى الهجرة .

عمر – أما من ناحية الثورة .. فنحن فعلا فى ثورة .. ولقد قلت لك إنها من أجل حقنا فى الحياة .. من أجل عدالة توزيع الرزق فى الأرض .. ومن أجل منع الاستغلال فى الدنيا .. أما مسألة حق التمتع بالآخرة السماوية حتى تصبح حقاً مشاعاً لكل الشعب على السواء .. فهذه فى الواقع مسألة لم تخطر ببالنا .

مصطفى – ولو خطرت كيف تدبرها ؟

صبحى – يدبرها الله .. إن أكرمكم عند الله أتقاكم .. والجنة للمتقين .. الذين إذا ...

عمر – مفهوم .. مفهوم .. لانظن أن جنة السماء ستكون حكراً على الملوك والأمراء .. حتى نفكر فى الثورة من الآن .

صبحى – ملوك .. وأمراء مَنْ .. هذا زمن الشعوب .

مريت – (فى استنكار) ماهذا الهذيان .. ألم تسمع ما قيل من أن فرعون صعد إلى السماء بين النجوم الثابتة وأنه تآخى مع نجم الشعرى اليمانية .. ونجم الصباح يرشده وكلاهما يأخذان بذراعه إلى حقل القربان ، وكذلك يقال لفرعون

إنك تخترق السماء وتتخذ مسكنك فى حقل القربان بين الآلهة الذين ذهبوا إلى أرواحهم .

عمر – (ينظر إلى الساعة فى قلق) (لمصطفى) لابد لنا من العودة .. غير معقول أن تبقينا هذه المخبولة .. لتسمعنا هذا الهذيان عن النجوم التى تأخذ بذراع فرعون إلى السماء .. يجب أن نعود .

مصطفى – أعترف أنها خفيفة الدم .

عمر – ليس هذا وقته .

مصطفى – وجميلة .

عمر – أزف ميعاد الوردية (لمريت) عن إذنك ياسيدتى .. فرصة سعيدة جداً (لصبحى) ياالله ياصبحى .. اسبق بسرعة ، وصبّ المياه فى العربة وجهزها .. مع السلامة .

مريت – (فى إصرار) أتحسبان الخروج بمثل هذا اليسر .. وقد ثبت اشتراككم فى المؤامرة ؟

عمر – (فى غضب) عدنا ثانية إلى المؤامرة .

مريت – ألم تعترف بنفسك بأن الشعب فى ثورة وأنهم سيرحلون إلى الشمال ؟

عمر – قلت إن الشعب كله فى ثورة .. ولست أنت التى تحاسبين الشعب على الثورة .. ولا حتى أبوك إن كان فرعون كما تقولين .. أما الرحيل إلى الشمال .. فهذه مسألة لابد منها ، إذ لايمكن بقاؤها فى هذه الأراضى بعد غرقها .

مريت – غرقها !! من قال إنها تغرق ؟

مصطفى – بعد أن يتم بناء السد ، ستغرق هذه الأراضى .

مريت – (فى جزع) من ادعى هذا ؟

عمر – هذا ليس ادعاء .. هذه حقيقة مقررة .

مريت – (فى شرود) ستغرق أرضنا ؟

عمر – بما فيها هذا المعبد الذى نقف فيه .

مريت – (صائحة) هذا المعبد .. يغرق .. مستحيل .. لاتقل .

مصطفى – (مطمئناً) لاتخافى هكذا ، لن نتركه يغرق .. لقد دبرنا أمر نقله .. إلى هضبة عالية .. تصونه من الغرق .

مريت – (فى ذهول) ينقل من هنا .. حتى لايغرق !

عمر – أجل .. لأنه يعتبر من الآثار القيمة .. التى ينبغى صيانتها وحفظها .

مريت – آثار .. ماذا تعنى بآثار ؟

عمر – نعنى مبانى أثرية .. شيدت منذ آلاف السنين .. وهى من التراث القومى الخالد .

مريت – (فى استنكار) آلاف السنين .. أتمزح ؟

عمر – وأى مزاح فى هذا ؟

مريت – ياسيدى .. الذكى .. هذا البناء لم يستكمل إلا منذ بضعة أشهر .

مصطفى – منذ بضعة أشهر !!

عمر – عجيبة !

مريت – أى عجب فى هذا !؟ انظر إلى الجدران .. والنقوش .. أتبدو عليها آلاف السنين ؟

عمر – (يهز رأسه) فى دهشة) لا .

مصطفى – حسبناها رممت .

مريت – (فى استنكار) رممت .. أيبدو عليها الترميم ؟

مصطفى – الحق .. لا .

مريت – إننا لم ننته من بنائها إلا منذ بضعة أشهر .. وقد بذل أبى كل ما يملك من جهد حتى أتمه .. قبل أن تتحقق النبوءة .. ولقد أوقف كل تلك الأراضى المحيطة به للقرابين الجنائزية .

عمر – القرابين الجنائزية ؟

مريت – أجل .. لتقديم الطعام الذى لابد منه للآخرة .. إن طعامنا فى الآخرة هو التين .. وشرابنا النبيذ ، وشذانا العطر .

مصطفى – باسم الله ما شاء الله .. كل هذا سيقدم لكم .. تين ونبيذ وعطر ؟

مريت – (مؤكدة) بالطبع .. ألا تصدقان ؟

عمر – نصدق .. نصدق ماذا ؟

مريت – لماذا تبدو عليكما كل هذه الدهشة .. تعال .. (تجره من يده نحو الممر الذى به البئر حيث توجد كوة فى الجدار) انظر .. هذا هو بيت الأبدية ..

كل هذه الحقول وقف على المعبد .. ومنها سيقدم إلينا التين .. والنبيذ .. والعطر .

عمر - (يهز رأسه كأنما يحاول أن يفيق من حلم) هذه أشياء عجيبة .. كأننا في حلم .. هذه الأشجار والزهور .. والتماثيل المحيطة بالبناء .. والقصر الأنيق .. فى الأفق .. والبحيرة الجميلة .. والحقول اليانعة .. التى تنتج التين والنبيذ والعطر .. هذه لاينبغى لها أن تكون خرائب وأطلالا وآثاراً ، (ينظر إلى مريت نظرة جادة) اسمعى ياسيدتى .. لقد بدأ رأسى يدور .. تعالى نجلس وحدثينا من جديد .. افهمينا .. من أنت .. وسنحاول أن نفهمك من نحن .. هناك أشياء عجيبة .. لابد أن نفهمها .. أشياء غير معقولة .

مريت - أنا لا أرى بى شيئاً غير معقول .. ولكن أنتم .. هذا السد الذى تبنونه .. وتريدون أن تغرقوا به أرضنا .

مصطفى - نحن لانقصد إغراق أرضكم ، وقد منحناكم غيرها .. وسننقل كل المعابد التى ستغرقها المياه .

عمر - ليس بنا شىء غير معقول .. ولكن أنت ياسيدتى .. هذا المعبد الجديد .. وأبوك فرعون .. وبيت الأبدية .. والأملاك الموقوفة على القرابين الجنائزية .. هذه أشياء وجدت منذ آلاف السنين .. أنت لاتعيشين فى زمننا ياسيدتى .

مريت - أنا ؟!

مصطفى - أجل .. أنت تبدين كحلم .. أو وهم .

مريت - بكل هذا الواقع من حولى .. بكل هذه الجدران .. والحقول .. أبدو وهماً.. وأنتما .. بثيابكما المضحكة .. وكل ما تتحدثون عنه من خرافات.

عمر – خرافات .. ألا تصدقين .. أن على الضفة الأخرى سداً يبنى .. وآلاف الناس تحمل ؟

مريت – (تهز رأسها فى حيرة) ولماذا ؟! بدل أن تقيموا مقابر تقى أجسادكم وتهيئكم لجنة الآخرة .. تضيعون جهدكم فى حائط على النهر تغرقون به أراضى الآخرين .

عمر – عبثاً نحاول إفهامك .. لماذا لاتأتين معنا ؟

مريت – أين ؟

مصطفى – (فرحاً) إلى الضفة الأخرى .

عمر – لترى بعينيك ماذا نفعل .

مريت – غير معقول .. (تفكر فى حيرة) .

(يسمع وقع أقدام ثم ترى سخمت خادمة مريت) .

سخمت – سيدتى .. سيدى الأمير حور يستعجلك .

مريت – حور .. (لعمر) إنه أخى .. يستعجل حضورى (للخادمة) قولى له أن يذهب .. سألحق به فى القصر .

سخمت – (لاتنصرف بل تنظر إلى عمر ومصطفى فى دهشة) أتحتاج سيدتى إلى خدمة ؟

مريت – (مضطربة) لا ياسخمت .. إن السيدين غريبان وكانا يطلبان جرعة ماء .. لا ضرورة لأن تخبرى حور عنهما .

(سخمت تنصرف وقد بدا عليها الارتياب) .

مريت – منظركما مريب .. مريب جداً .. ولن يصدق أحد هذه الخرافات التى تحكونها .. والبلد فى حالة غليان .. الثورة .. والهجرة .. وكل غريب هنا يدعو إلى الريبة .

عمر – ولكنك أنت .

مريت – أنا ماذا ؟

عمر – لم تعودى ترتابين بنا .

مريت – وماذا بهم ؟

عمر – أبداً .. الإنسان يحب دائماً أن ينصف نفسه .. لاداعى لأن ترتابى بنا بغير مبرر للريبة .

مريت – أشعر أنكما مخلصان .. وماتقولانه يقنعنى إلى حد ما .. ثورة الشعب من أجل حق الحياة .. أولى من ثورته من أجل حق الآخرة .. والسد للحياة .. أولى من المقابر للجثث .. أشياء كثيرة فى حياتنا كانت تقلقنى ، وقد زادنى كلامكما قلقاً منها .

مصطفى – وستأتين معنا .. لترى واقعنا .. كما رأينا واقعك .

مريت – لست أدرى .

عمر – لماذا .. ألا تثقين بنا ؟

مريت – أنا أثق بكما .. ولكن كيف أقنع من حولى أن يثقوا بكما .

(تسمع صوت خطوات مقتربة .. ثم يبدو حور وراءه سخمت وتابع آخر) .

مريت - (تخفى عمر ومصطفى) . اختبئا أرجوكما .. إنه غيور وقاس .. وليس من وقت لتفسير وجودكما .

(يختبىء عمر ومصطفى وراء باب)

حور - هيا يامريت .. إن أبى فى انتظارنا .. إنه شديد القلق .. بعد أن اجتمع بالوزير موس .. الذى أنبأه عن اضطرابات حدثت .. وأن الشعب يطالب بالتمتع بالآخرة السماوية .. وقد بلغنى أن بعض الجواسيس قد تسربوا إلى البلد آتين من الشمال .. لكي يشيعوا الاضطراب فى البلد .. توطئة للغزو الذى تحدثت عنه النبوءة .

مريت - كلام فارغ .

حور - بل كلام أكيد .. لقد أمرت بإجراء تفتيش دقيق .. هيا بنا .. حتى لايزداد قلقه .

مريت - إنى آتية .. سألحق بك حالا .

(يخرج حور ووراءه التابع .. وتبقى سخمت)

سخمت - (فى قلق) : سيدتى .. هذان الغريبان اللذان كانا يقفان هنا فى المعبد .

مريت - مالهما ؟

سخمت - إنى أخشى أن يكونا ..

مريت - لاتخشى شيئاً .. ولاتقولى شيئاً لأحد .

سخمت - أواثقة أنت ياسيدتى ؟

مريت - أجل .. أجل .. اذهبى أنت وسألحق بك حالا .

(تخرج سخمت .. ويظهر عمر ومصطفى)

مريت – اخرجا بسرعة .. وانصرفا .. قبل أن يراكما أحد .

عمر – سيدتى .

مريت – نعم .

عمر – لم أعرف اسمك بعد .

مريت – اسمى مريت .

عمر – واسمى عمر .

مريت – عمر .

مصطفى – وأنا مصطفى .

عمر – (ينظر إليها فى إعجاب شديد) مريت .

مريت – (تنظر إليه برهة .. ثم تبتسم) تنطق باسمى بطريقة جميلة ، قله ثانية .

عمر – مريت .

مريت – (ضاحكة) لم أعرف أن له هذا الرنين .. (فى قلق) اذهبا بسرعة .

عمر – ماذا دفعك إلى الثقة بنا إلى هذا الحد .. بعد كل ما سمعت عن الجواسيس الذين يبحون عنهم ؟

مريت – جواسيس (ضاحكة) أنتما أغبى من أن تكونا جواسيس .

مصطفى – شكراً .

عمر – ستأتين إلينا ؟

مريت – ربما .

عمر – عدينا .

مريت – فى يوم ما .

مصطفى – قريباً ؟

مريت – أجل .. أجل .. اذهبا قبل أن يعود حور ويقبض عليكما .. اذهبا .. إنه غيور .. وقاس .. مع السلامة .

(عمر ومصطفى يخرجان)

عمر – سنلتقى ثانية ؟

مريت – أجل .

(ستار)

الفصل الثانى

قدرة .. قادر

المنظر الأول

(موقع السد .. جسم السد ، مكان الردم فى الصنادل . على شاطىء النيل .

(الوقت ليلا وتبدو فى المواجهة الشرفة الخشبية الممتدة فوق الجرف حيث تبدو للواقف عليها أعمال تفريغ الصخور من اللوريات فى آلة الفرز ثم تعبأ فى الصنادل كى تفرغها فى موضع جسم السد . وفوقها وقف المهندس قدرى يرقب العمل ، وعلى اليسار كشك خشبى صغير يقف ببابه مساعده جمال .. تسمع أصوات اللوريات مختلطة بأصوات قذف الصخور وصوت دوران آلة الفرز . وعلى اليمين تبدو لافتة كتب عليها : يا بناة السد باق ١٢٠ يوما .. يقبل عبد الغفار الملاحظ معفر الثياب ويصيح وسط الضجيج مخاطبا جمال)

عبد الغفار – لورى ٢٤ معطل فى مدخل النفق .

جمال – شغل بدله لورى من الورشة ، واسحبوه من الطريق بسرعة .

عبد الغفار – ومن يشتغل عليه ؟

جمال – عندك عبد الوارث .

عبد الغفار – دخل المستشفى .

جمال – لمه .. ماذا به ؟

عبد الغفار – أمس وهو يلف بعربته بعد أن أفرغ حمولته .. ضربته عربة خلفه من فرط عجلتها .. وقد ضغط الدركسيون على صدره .. واستمر يعمل حتى آخر الوردية .. وهو يشعر بألم فى صدره .. وقرب الفجر لم يستطع مقاومة الألم.. وذهبوا به إلى المستشفى فاتضح أن ضلعين من أضلاعه مكسوران

جمال– مسكين .. كان ينبغى عليه أن يكف عن العمل بمجرد أن أحس بالألم

عبد الغفار – لا أحد هنا يريد أن يكف عن العمل .

(يقبل المهندس قدرى من فوق الشرفة وفى نفس الوقت يصعد السائق صبحى من أسفل المنحدر ليلتقيا أمام الكشك الخشبى)

قدرى – ماذا هناك ؟

جمال – محتاجون لسائق .

صبحى – أنا مستعد .

عبد الغفار – لم يحل بعد موعد ورديتك .

صبحى – قلت لك إنى مستعد .

جمال – إنك لم تسترح بعد من الوردية السابقة .

صبحى – استرحت .. وكان المفروض أن أسوق للباشمهندس عمر العربة الجيب فى مشوار خصوصى .. ولكنه زاغ وحده مع المهندس مصطفى .

قدرى – ذهبا إلى أين ؟

صبحى – (يرفع كتفيه فى استنكار) وماذا عرفنى .. من عادتى عندما أسوق ...

جمال – (مقاطعاً) انتهينا .. إذا كنت مستعداً للعمل فاذهب مع عبد الغفار.

صبحى – (لعبد الغفار) .. مستعد جداً .

عبد الغفار – هيا بنا بسرعة .

(يسرعان بالخروج .. قدرى وجمال يسيران نحو الشرفة)

قدرى – أطوار عمر هذه الأيام غريبة .

جمال – كيف ؟

قدرى – ألا تراه دائماً شارد الذهن .

جمال – قد يكون هناك ما يشغله ، من منا بلا مشكلات .

قدرى – وماذا يمكن أن يكون لديه من مشكلات .. أعزب .. خالى القلب .. خالى البال .

جمال – ربما كانت صحة أمه هى التى تشغله .. لقد كانت مريضة فى الشهر الماضى .

قدرى – أمه على خير حال .. لقد أنبأنى أنها حضرت لزيارته هى وأخته التى تعمل فى الإذاعة .. وهما تقيمان معه فى مسكنه .

جمال – قد يكون هذا ما يشغله .

قدرى – لا أظن .. لقد كان اليوم حريصاً على الانصراف بسرعة بعد الوردية ، وأنت تعرف نسكعه معنا .

جمال – (مؤكداً) لأنه يريد أن يذهب إلى البيت .. لأمه وأخته .

قدري– ألم تسمع من السائق صبحي أنه ذهب مع مصطفى في مشوار خصوصي

جمال – لا تصدق هذا الغبي .

قدري – أنا أعرف أن لهما اختفاءات مريبة هذه الأيام .. وهو يعود منها دائماً شارد الذهن .. وهذا الذي تظنه غبياً .. لا شك يعرف كل شيء .

جمال – ياشيخ .. بلا أوهام .. أي مجال تظنه هنا للاختفاءات المريبة ؟

(يتوقف قدري وينظر أسفل المنحدر حيث يرى عمر ومصطفى ومعهما سيدة)

قدري – انظر .. ها هما قد عادا ، ومعهما فتاة .

جمال – قد تكون أخت عمر .

(يدخل عمر ومصطفى صاعدين من المنحدر تصاحبهما مريت وقد ارتدت ملابس عصرية ويقتربون من الشرفة)

عمر – مساء الخير .

قدري – أهلا .. مساء النور .

مصطفى – سنلقي نظرة من الشرفة لنعطيها فكرة عن العمل هنا .. بعد إذنك .

قدري – تفضل .

(يتقدم عمر وهو يمسك بيد مريت ووراءهما مصطفى نحو الشرفة)

(قدري ينظر إليهم وهم يسيرون ثم ينظر إلى جمال نظرة ذات معنى ثم يحدثه بصوت لا يسمعه الباقون)

قدري – إذن هذا هو السبب .

جمال – وكنت تظنه خالي القلب .. خلي البال .

قدري – لم يقل لي كلمة عنها .

جمال – لطيفة !

قدرى – فقط ؟ .. إنها تحفة .

جمال – أين عثر عليها ؟

قدرى – اصطادها من بين المعابد .. لابد أنها تزور الآثار .. حلال عليه .

جمال– ولكن لماذا تتهمه هو فيها.. أليس من المحتمل أن تكون تبع مصطفى

قدرى – لا أظن .. كل هذا الاهتمام .. وتكون تبع مصطفى .. أنت تعلم ثقل عمر .. ليس من السهل أن يطوى ، ولكنه مع صاحبتنا يكاد يحملها من فوق الأرض .. هيا بنا نرى اللوريات .

جمال – هيا .

(مريت تقف على الشرفة متكئة على السور الحديدى بين عمر ومصطفى وقد بدا عليها الذهول وهى تتطلع إلى من حولها)

مريت – أهذا هو ليلكم ؟

عمر – أجل .

مريت – ولكن لماذا .. لماذا قلبتموه نهاراً ، وكيف ؟

عمر – لماذا ؟ لأن نهارنا لم يعد يكفى .

مريت – يكفى ماذا ؟

عمر – ما نريد أن ننجزه .

مصطفى – (مشيراً إلى اللافتة) . لابد أن تنتهى المرحلة الأولى .. قبل أن تنتهى أيام هذه اللافتة .. نحن فى سباق مع هذه اللافتة .. كل يوم ينقص منها .. لابد أن نضع فى النهر آلاف الأطنان من الصخور .

عمر – ولابد أن نحفر من باطن الجبل .. وأن نبنى من الأنفاق .

مريت – ومن يكرهكم على هذا .. من يدفعكم إلى هذه الحركة الجنونية .. بلا سياط تلهب الظهور ؟

عمر – أشياء كثيرة .. أولها إرادة التحدى .

مريت – تحدى من !

عمر – تحدى الزمن الذى تركنا نغفو .. والعالم يطير .. والذى يحمل إلينا النسل .. ويقبض يده بالرزق .

مصطفى – وتحدى المستخفين بنا .. الهازئين منا .. المنكرين لحقنا فى الحياة الكريمة .. الذين يؤكدون من آن لآخر .. أننا لن نقيم السد .

مريت – ومن هؤلاء .. ولماذا ينكرون عليكم حق الحياة !

عمر – تاريخ طويل يامريت .. لقد استعبدنا كثيراً ، لقد استغلت أراضينا وجهودنا .. واستنزفت مواردنا .. ولم يترك لنا سوى الفتات .. وعندما ثرنا من أجل حقنا فى الأرض وحقنا فى نتاج الجهد والعرق ، لم يكن من السهل أن يترك المستعبد ما أنشب فيه أظافره طوال قرون الاستعباد .. ولما أردنا أن نبنى هذا السد نبحث عن إشراقة المستقبل لم يكن لنا منه إلا مزيد من القيود .. وفى الشمال لنا قناة حفرناها بأيدينا وأسناننا .. وبالسياط على ظهورنا .. ولما قلنا نأخذ إيرادها من أجل بناء هذا السد .. عاد هذا المستعبد يريد أن يغزو ديارنا ، ويدمر أراضينا .

مريت – (فى جزع) وماذا فعلتم ؟

مصطفى – طردناه .. وأثرنا العالم كله عليه .. وخرج ذليلا كاللص متلبساً بجريمته .

عمر – وبدأنا نشيد السد بأيدينا ، وبمعاونة أصدقاء كرماء ، لم يضعوا لمعونتهم قيداً ولا شرطاً .

مريت – وما حاجتكم الشديدة إلى هذا السد !؟ لماذا أنتم حريصون على إقامته كل هذا الحرص ؟

عمر – حريصون عليه من أجل حياة أبنائنا .. الذين يتكاثقون على الأرض يوماً بعد يوم .. ومياه النيل تهدر في البحر .. والأرض الطيبة جرداء قاحلة محرومة من المياه الضائعة .. التي تنبت الزرع .. وتمنح الحياة .

مريت – وماذا يجرى هنا على الجرف .. ما هذه الصخور التي تقذف من العربات .. وماذا يفعل بها .. وإلى أين تحملها المراكب ؟

مصطفى – الصخور تحملها اللوريات من الجبل لتفرغها في الصنادل لتلقى بها في عرض النهر لإقامة السد .

عمر – وهذا الغربال الحديدى الذى يبدو أسفلنا لا يبقى به سوى الصخور الكبيرة التي تفرغ في الصنادل .. أما الصخور الصغيرة والأتربة فتحمل لتلقى في أمكنة معينة من جسم السد ، الذى يبدو هناك حيث تقف الصنادل لتلقى بصخورها .. وقد بدا سطحه على وجه الماء من ناحية الشاطىء حيث تقذف إليه اللوريات بالصخور مباشرة .

مريت – أشياء عجيبة .. وماذا يحدث عندما يقوم السد في النهر ؟

مصطفى – سينحدر المجرى في قناة جانبية محفورة في الجبل حول المكان الذى أقيم به السد .

عمر – عندما ننتهي من مشاهدة أعمال الردم .. سنذهب إلى هناك لنشاهد حفر القناة .. وبناء الأنفاق .

مريت – كل هذا عجيب .. عجيب .. ولكن أعجب منه هؤلاء الناس المتلهفون على العمل .. انظر هذا اللورى يكاد يدفع الذى أمامه ليحل محله .. وهذا المركب يقف على أهبة الاستعداد لا يكاد الذى أمامه يتحرك خطوة .. حتى يندفع ليحل مكانه في هذه الخطوة .. كأني بكل منهم يخشى أن تضيع منه لحظة بلا عمل .

عمر – إنهم فعلا كذلك .

مريت – وبلا فرعون .. رمز القوة ، وبلا أعوان له ، يلوحون بالإرهاب .

عمر – بل بزعيم .. رمز حب ، وخير وعدل وحق .. وبأعوان .. يلوحون بالمثل الطيبة والتواضع والعمل .

مصطفى – نحن كلنا نتحرك كتلة واحدة .

مريت – (تهز رأسها فى إعجاب وتبتسم) .

عمر – لماذا تبتسمين ؟

مريت – يبدو لنا .. أنه قد آن الأوان لنا .. نحن أجدادكم الفراعنة – كما تصرون على الزعم – بأن نفاخر بأحفادنا .. إنكم حقاً شىء يستحق الفخر ..

مصطفى – لقد طالما فخرنا بكم .. بحضارتكم .. بتقدمكم .. بتفوقكم ، بنوركم الذى شع فى عالم الظلمات وقد آن لكم أن تردوا لنا هذا الافتخار .

عمر – (محدقاً فى وجه مريت بإعجاب) أنا شخصياً .. لم أحاول أبداً التفاخر بأجدادى .. إلا بعد أن رأيتك .

مريت – أنا ؟!

عمر – أنت جدة خطيرة .

مريت – أغزل هذا ؟

عمر – ولِم لا .. إنى أحس بخطورتك فعلا .

مصطفى – ومنذا الذى لايحس بها !

مريت – والفواصل الزمنية بيننا ؟

عمر – كل الفواصل الزمنية تتهاوى أمام عينيك ..

مريت – أمسموح الغزل عندكم .. فى وسط هذه المعمعة من العمل ؟

عمر – نحن فى الراحة .. لقد انتهت ورديتنا .

مريت – (تلمح صبحى فجأة يدير عربته ليفرغ الصخور) .. الله .. أليس هذا .. زميلكم الذى كان يحمل الصفيحة ؟

عمر – (ينظر فى انزعاج) أجل . إنه صبحى .. تعالى قبل أن يراك .. حتى لا يثير لنا مشكلة .

(قبل أن تتحرك يلمحها صبحى من أسفل ويسمع صوته صائحا)

صبحى – الله .. ما هذا ؟ .. مساء الخير ياست .. مساء الخير .

(يترك صبحى العربة ويسرع إلى الشرفة)

صبحى – أهكذا يا باشمهندس تخلى بى .. وتتركنى .

(يبدو قدرى وجمال مقبلين) .

مصطفى – (يحاول أن يسكت صبحى) اسمع ياصبحى .. اذهب الآن إلى العربة .. وسأراك غداً .

صبحى – ياباشمهندس العربة تفرغ حمولتها .. دعنا نسلم على الست .. أهلا وسهلا .. الموقع نور .

مريت – أهلا بك .. كيف حالك ؟

(يسلم على مريت فى حرارة)

صبحى – رضا (ينظر إليها فى إعجاب) يا ماشاء الله .. هكذا والا فلا .. هذا أحسن كثيراً من ثوب التمثيل المخطط الذى كنت ترتدينه .. طول عمرى .. لا أحب ثياب الرقص .. حتى ولو كانت حشمة .

(قدرى وجمال يسمعان كلام صبحى من بعيد فتبدو عليهما الدهشة)

قدرى – صاحبتك طلعت راقصة .. ألم أقل لك إن هذا الغبى يعرف كل شىء .

جمال – ترى من أين التقطها عمر ؟

قدرى – ياماتحت السواهى دواهى .

(مصطفى يجر صبحى من يده هابطاً به إلى العربة حتى يتخلص منه)

مصطفى – تعال .. تعال الله يهديك .. اطلع بالعربة حتى لا يتعطل العمل .

صبحى – يا باشمهندس .. لابد أن نعمل الواجب للست .. لقد أكرمتنا هناك .. فى بيت والدها المعلم فرعون .. وكنا نظنه بيت الله .. ملأت لنا الصفيحة .. أفلا أقل من أن ندعوها لفنجان قهوة .. أو زجاجة كازوزة ؟

مصطفى – بعدين ياصبحى ، بعدين .. تعال .. تعال ..

(يهبطان إلى العربة)

قدرى – (لجمال) والدها المعلم فرعون .. يعنى اسمها .. حاجه .. فرعون .. هل سمعت بهذا الاسم من قبل ؟

جمال – لا .

قدرى – ربما كان لها اسم شهرة .. زميللك .. أو كيت كات .. أو أى شىء من هذا القبيل .

جمال – ربما .

(يهبط عمر ومريت من الشرفة ويصعد مصطفى وحده بعد أن تخلص من صبحى ويلتقون بقدرى وجمال)

قدرى – انتهيتم ؟

عمر – أجل .. أعطيناها فكرة سريعة .

جمال – لم نتشرف بالتعرف على الآنسة بعد .

عمر – (مرتبكا) الآنسة .. مر .. مريم .

قدرى – مريم فرعون ؟

مصطفى – (فى ذهول) كيف .. كيف عرفت ؟

قدرى – ومن الذى يجهلها .

عمر – (يجر مريت من يدها فى عجلة) .. عن إذنكم .. لابد أن نذهب إلى الأنفاق وننتهى منها بسرعة .. السلام عليكم .

(ينحدر الثلاثة)

عمر – (لمصطفى) مريم فرعون . اسم معقول .. هذا الغبى صبحى كاد يفضحنا .. كان يجب أن ننبه عليه .

مصطفى – لم نكن نتوقع أن نراه مطلقاً .

عمر – الحمد لله أن لحقناه قبل أن يفضحنا .. لو قلت لهم ما حدث لاتهمونا بالجنون .

مصطفى – أو بالتحشيش .

(يخرج الثلاثة هابطين إلى العربة)

قدرى – (يهز رأسه فى حيرة) مريم .. بنت المعلم فرعون .

جمال – وكانت ترتدى ثياب الرقص .

قدرى – لايبدو عليها أبداً أنها راقصة .. إنها تتحرك كأميرة .

جمال – ياأستاذ .. الراقصة .. تتحرك أفضل من أميرة .. إنها محترفة حركة .

« ستار »

المنظر الثانى

(فى مدخل القناة المحفورة فى الجبل . على الجانبين يبدو الجداران العاليان المنحوتان فى الصخر وفى المواجهة حائط الاسمنت الضخم تبدو فيه فتحات الأنفاق التى ستوضع عليها بوابات الصلب التى تنظم حجز المياه) ..

(معركة العمل على أشدها تبدو من بعيد فى الأنفاق .. يسمع صوت نسف الصخور والآلات القاضمة للصخور فى مقدمة الوادى المحفور الذى لا يبدو للمشاهدين) ..

(تدخل مريت وعمر ومصطفى يتقدمون تجاه الأنفاق ثم يتوقفون برهة ينظرون الجدران الشاهقة ويرقبون عملية تحطيم الصخور) ..

عمر — هذا هو مدخل القناة التى حفرت فى الجبل لتدور حول المنطقة حيث أقيم السد وتنتهى إلى النهر مرة أخرى ليتحوّل فيها مجرى النهر بعد أن يغلق السد مجراه الأصلى .

مصطفى — ومن هنا حفرنا القناة فى الجبل حتى هذا الجزء الذى تبدو منه مداخل الأنفاق . ثم شقت الأنفاق داخل الصخر لمسافة معينة يبدأ بعدها الجزء الذى حفر فى الجبل من الناحية الأخرى ليتم مخرج القناة إلى النهر .

عمر – وعلى فتحات النفق ستوضع بوابات الصلب الضخمة التى تحجز المياه لكيلا تهدر فى البحر وقت الفيضان وتخزنها وراء السد فى بحيرة شاسعة تغمر كل الأراضى التى وراء السد .

مصطفى – بما فيها الأراضى التى تقطنونها .

مريت – والمعبد .. وكل شىء ؟

عمر – (يهز رأسه موافقاً) أجل .. كل ما وراء السد .

مريت – (فى دهشة) أتغرقون البلاد كلها .. لكى تخزنوا المياه فوقها .. لمه .. ومن أجل من ؟

عمر – من أجل الملايين المكدسين فوق شريط ضيق من أرض خضراء ، تروى بما يشبه النشع من مجرى النيل .

مريت – ولكن لماذا لايعملون لكى يزرعوا بقية الأرض ؟

مصطفى – أى أرض ؟

عمر – يامريت .. مشكلة عالمنا لم تعد الجهد .. بقدر ماهى مشكلة أين يبذل الجهد .. لم تعد أزمة الإنسان الذى يزرع الأرض .. ولكنها أزمة الأرض التى تطعم الإنسان .. لقد اعتصرت الأرض .. اعتصرت عصراً ..اعتصر فحمها وحديدها وبترولها .. والقوة البشرية تزداد وتتكاثف ، والأرض تعتصر خيراتها .. وتضيق رقعتها .. والمحاولات تبذل لمزيد من الاعتصار والاستغلال .

مريت – (تهز رأسها فى حيرة) لا أستطيع أن أصدق .

مصطفى – بل لقد بدأ البحث عن بديل للرقعة الأرضية .. فى كواكب السماء .

مريت – البحث فى السماء .. السماء لا تحتاج إلى بحث .. جنتنا

موجودة .. نحن نعرفها جيداً .. إن مأوانا ..نحن المختارين .. فى السماء بعد أن ينتهى مصيرنا فى الأرض .

عمر – لا نقصد هذا .. نحن نبحث فى السماء عن بديل للأرض .. عن مقر لأجسامنا .. لا لأرواحنا .

مصطفى – (ضاحكا) مقر الأرواح ليس من اختصاصنا .. بل من اختصاص من يأخذ تلك الأرواح يضعها حيثما شاء .. إنما الذى يشغلنا الآن هو مصيرنا على الأرض .. مصير هذه الأفواه الجائعة ، والأجساد التى لاتنتهى حاجاتها .

مريت – (تنظر حولها فى استغراب) عجيب .. أنتم إذن أغرقتم أرضنا لكى تجعلوها مخزناً للمياه .

عمر – لم نقصد أن نغرقكم ، ولكن لم يكن من هذا بد .. والمياه المنقذة المختزنة ستوزع على الوادى كلة .. بما فيه أنتم .. أنتم أنفسكم .. ستفيدون منه بعد رحيلكم .

مريت – لا تقل رحيلنا .. أنت تعرف أننا سنبقى .. نحن نعرف مقرنا جيداً .. فى الأرض وفى السماء .

عمر – (ينظر إليها فى شغف) ليت مقرك معنا .

مريت – (تلتفت إليه وتنظر إليه فاحصة) أتريدنى معك حقاً ؟

عمر– (هامساً) لا أظننى أحسست أنى أريد أحداً معى .. كما أحسست بك

مريت – (ببساطة) وأنا أيضاً ، ولكن كيف .. كيف يستقر أحدنا مع الآخر .. وهو أكذوبة فى واقعة .. كيف نعبر هذه القرون .. كيف نجتاز هذه الهوة من الزمن .. من منا .. سيقفز إلى الآخر .

عمر – كل ماأعرفه أنك أصبحت حقيقة بالنسبة إلىّ .. أصدق من كل هذه الحقائق التى تحيط بى .

مريت – (تتنهد في عمق) كيف .. كيف أفر من واقعي .. وأبقى معك .. ماذا تقول عني .. كيف تفسرني ، إني أسير معك وكأني جريرة ، تحتاج إلى ستر .. أو لغز يحتاج إلى تفسير .

(تبدو صفية أخت عمر قادمة من ناحية الأنفاق ومعها مجموعة من الزملاء والزميلات وزوّار السد .. عمر يلمحها فيبدو عليه الارتباك) .

مصطفى – (محذراً) عمر .. صفية قادمة .. هي وثلتها .. خذ حذْرك .. يجب أن نستعد لتقديم التفسيرات .

عمر – أجل .. أجل . لاينبغي ألا نؤخذ كما أخذنا مع قدري وجمال .

مصطفى – على أي حال .. الغبي صبحي ليس هنا حتى يثير الفضائح والمشكلات

عمر – من يدريك .. ربما هبط علينا .. وهو يقود عربة محملة بالصخور من مدخل القناة .

مصطفى – على أية حال يجب أن نتفق على التفسيرات .

مريت – ألم أقل لك .. إني بت معكم كالجريرة .. أو كاللغز .. أحتاج إلى إخفاء أو تفسير .

عمر – أبداً .. مجرد أن نتفق على شيء نعرفك به .. وننتهي .

مصطفى – اسمها .. انتهينا منه .. مريم فرعون .. اذكريه جيداً .

مريت – أمره سهل .. إنه يكاد يكون اسمي فعلا .

عمر – وأنت ضيفة .. ونحن نشرح لك العمل في السد .

مريت – مسألة يسيرة .

مصطفى – ولكن ماذا تعمل ؟

مريت – أضرورة أن أعمل شيئاً ؟

مصطفى – أعتقد .. نساؤنا كلهن يعملن الآن .

عمر – تعمل .. تعمل .. فى مصلحة الآثار .. خريجة قسم الآثار .. هذا أسهل شىء .. أظنك تعرفين عن أهلك أكثر مما يعرف أى خريج فى الجامعة .. وأى أستاذ للآثار .

مصطفى – بل أحسن .. من الأب دريتون .. ومن سليم حسن .

عمر – ولكن احذرى أن تتحدثى عنهم كأنهم حاضر .

مصطفى – أجل .. أجل .. قولى دائماً .. كانوا .. كانوا منذ زمن طويل .. من آلاف السنين .. مفهوم ؟

مريت – (تهز رأسها فى خوف) سأحاول .. ولكن أرجو ألا يسألونى كثيراً

عمر – لاتخشى شيئاً .. تحدثى عن المعبد ، وعن جنة الأرض فى حقل القربان الذى يذهبون إليه من طريق القنوات المتفرعة من النيل .

مصطفى – وحدثيهم عن الحقل الجميل الذى على الطريق الطيبة .

عمر – وعن ثورة الشعب من أجل المطالبة بالتمتع بالآخرة السماوية .

مصطفى – أى شىء من هذا الذى قلت لنا .. سيجعلك عالمة آثار .

عمر – ولكن تذكرى .. منذ زمن سحيق .. منذ آلاف السنين .

مصطفى – ولاتكثرى الدهشة .. كفى عن الانبهار .. والاستغراب .. خذى كل شىء فى يسر .. كأنك تعرفينه . واذكرى أن إنسان هذا العصر .. قد فعل كل شىء .. حتى الانطلاق فى السماء والدوران حول الأرض .

مريت – (تهز رأسها فى حيرة) لاأصدق .. لاأصدق أبداً .

عمر – حدث والله .. صدقيه من أجل خاطرى .

مصطفى – تظاهرى بالتصديق .. حتى لاننفضح .

عمر – انتهينا .. لاتستغربى شيئاً .. وتحدثى عن أهلك كما تشائين على أنهم أشياء قديمة .. وجدت منذ آلاف السنين .

مصطفى – مفهوم ؟

مريت – سأحاول .. سأبذل كل جهدى .

(تقترب صفية .. وهى تحمل جهاز تسجيل صغيراً ، وفى يدها الميكروفون .. وتبدو فرحتها بلقاء مصطفى واضحة) .

صفية – هاى .. عمر .. هالو مصطفى .. ماذا تفعلان هنا ؟

(مصطفى يقبل عليها فى فرحة ولهفة) .

مصطفى – هذا مقر عملنا .. ماذا تفعلين أنت ؟

صفية – أسجل بعض اللقطات لبرنامج جديد اسمه «مع العمالقة» .. لقد سجلت بعض لقطات فى النفق مع العمال والمهندسين .. وسأسجل لكم بضع دقائق .. أهناك مانع ؟

مصطفى – أبداً .. أبداً .

صفية – (تنظر إلى مريت مستفسرة) الآنسة ؟!

عمر – الآنسة .. مريم فرعون .. مهندسة آثار .

صفية – أهلا وسهلا .. آنسة مريم .

عمر – (مقدماً صفية) أختى صفية .. بالإذاعة .

مريت – (تهز رأسها كأنها تفهم) أهلا .

صفية – فرصة جميلة أن نسجل لمهندسة آثار .. رأيها .. فى أهرام القرن العشرين .. يمكنها أن تعطينا مقارنة لطيفة بين .. معجزة الفراعنة ، ومعجزة أحفادهم .

(صفية تقترب بالميكرفون من فم مريت .. مريت لا تعرف ما المقصود بالميكرفون ، ولكنها تنظر إليه كأنها تعرف .. ثم تنظر إلى عمر مستعينة لعله يرشدها إلى ما يمكن أن تفعله بالميكرفون الذى اقترب من شفتيها .. عمر يحرك شفتيه لكى يفهمها أن عليها أن تتكلم فتظن مريت أنه يحرك شفتيه علامة الأكل .. ولا شك أن الميكرفون شىء يؤكل .. وتفتح شفتيها وببساطة تقضم الميكرفون وتحس بصلابته فتتألم .. ولكنها تكتم ألمها ودهشتها) .

(صفية تصيح وتسحب الميكرفون من فم مريت .. مريت تنظر إلى عمر لعله يرشدها إلى ما ارتكبته من خطأ) .

صفية – الميكرفون .. ما هذا ؟

عمر – (متضاحكا لصفية) لماذا تصرخين هكذا ؟ .. إن مريم تحب المزاح .

صفية – مزاح .. لدرجة أكل الميكرفون !

مريت – (تبتسم ببساطة) لا تخشى عليه .. فأنا قطعاً لا أستطيع قضمه .

صفية – طبعاً لا تستطيعين .

مصطفى – (محاولا تغطية الموقف ، يغرق فى الضحك) . دمها خفيف .

صفية – (تنظر إليهم فى غيظ) خفيف جداً .. (لمريت) أنبدأ الحديث ؟

مريت – طبعاً .

عمر – (يتناول الميكرفون) هاتى ياصفية .. سأمسكه لك .. (لمريت) تكلمى يا مريم .. دعى الميكرفون لى ، تكلمى .. فقط .

مريت – (تهز رأسها علامة الفهم) .

صفية – (فى الميكرفون) سيداتى سادتى .. معنا الآن الآنسة مريم فرعون .. خريجة قسم الآثار .. لقد التقينا بها هنا أمام الأنفاق على قاع المجرى الجديد للنهر .. فى الوادى الذى شقه عمالقه السد فى الصخر .. مساء الخير يا آنسة مريم .

مريت – مساء الخير .

صفية – أيمكن أن تحدثينا كدارسة لآثار الفراعنة .. عن إحساسك ، وأنت تقفين أمام هذه المعجزة الجديدة لأحفاد الفراعنة ؟

مريت – (تنظر إلى عمر ومصطفى فى شىء من الحيرة .. هل تبدى دهشتها أم لا تبدى) .

عمر – (لا يستطيع التحدث والميكرفون يسجل .. ويهز رأسه مشجعاً إياها على الحديث .)

صفية – طبعاً شىء يبعث على الدهشة .. على الذهول !

مريت – (تنظر إلى عمر بعد أن حذرها من إبداء أى دهشة) .

عمر – (يشجعها على الكلام بهز رأسه) .

مريت – هذه أشياء تبدو غير بشرية .. أشياء لا تصنعها إلا الظواهر الطبيعية .. أو بلغة أخرى لا تصنعها غير الآلهة .. يعنى أن يشق الجبل ، ويحوّل النهر عن مجراه .. أشياء غير متوقعة ولا مطلوبة من البشر .. قد تأتى بالدعوات والصلوات .. للآلهة الكبيرة .. أما أن يفعلها البشر .. بطريق مباشر .. فهذا شيء لم نعتده من قبل .

صفية – الآنسة مريم .. تتحدث بلهجة الفراعنة .. تتحدث عن صلواتهم للآلهة .. واعتقادهم فى أنها قادرة على أن تدك الجبل .. وتحوّل النهر .

مريت – ولكنكم .. أعنى ولكننا نفعله الآن بأيدينا .. أبصر الآلة الضخمة تقضم الصخر .. كأنها الغول يقضم قطعة اللحم .. وأرى نفسى أقف فى قاع الوادى الذى شقه الإنسان بآلاته .. وبأيديه .. وأسنانه .. الوادى الذى سيصبح بعد فترة قاعاً للنهر .. وأحس بفرط قدرة الإنسان .. بقوته .. بعظمته .. إنه أقوى كثيراً من تلك الآلهة .. التى عبدناها .. (عمر ينظر إليها محذراً فتقول مستدركة) التى عبدناها منذ آلاف السنين .

صفية – الظاهر أنك متأثرة جداً بدراستك .. وبهذه المناسبة وما دامت دراستك للفراعنة تغلب دائماً على حديثك .. ماذا تتصورين إحساس أحد الفراعنة لو أنه وقف وقفتنا هذه .. ماذا يمكن أن يقول ؟

مصطفى – (يفرك يديه فرحاً) أهلا وسهلا .. انطلقى ياست مريم .

عمر – (لمصطفى) فرجت .

مريت – لو أن فرعون ، وقف وقفتنا هذه ...

صفية – أجل .. تصورى .. مجرد تصور .

مريت – (تنظر إلى أعلى للجداران الشاهقة الممتدة فى الصخر) هذا

الجبل الذى شق ، والنهر الذى سد ، والمجرى العتيد القديم قدم التاريخ الذى تحول .. بقدرة قادر . والقادر ليس آمون ، ولا أتون ، ولاست ، ولكنه هذا الشعب .. شعبنا القادر على طول الزمن .. بسيط .. هادى .. طيب ، ولكنه قادر .. مسخر .. قادر ، وحر قادر . مازح قادر ، وجاد قادر ، تكمن ، ولا تمحى .. تضمر ولا تزول .. أعرفه جيداً .. فى صمته ، ودأبه ، وصبره وجلده .. هذه الآلات الخطيرة .. قد أعانته على المعجزة ، ولكنى واثقه .. أنه قادر عليها .. بها وبدونها .. قادر بآلاته .. قادر بمعاوله .. قادر بأظافره .. قادر بأنيابه .

صفية - (بمنتهى الإعجاب) برافو .. برافو آنسة .. لو أنها ابنة فرعون .. قد تحدثت .. لما تحدثت بأفضل من هذا .. برافو .

عمر - (لمصطفى) فعلا .. لو أنها ابنة فرعون .. لما كانت خيراً من هذه .

صفية - شكراً يا آنسة مريم . سيداتى سادتى .. لنستمر فى جولتنا بين عمالقة السد.

(تغلق جهاز التسجيل وتسحب الميكرفون من يد عمر) .

صفية - متشكرين ياجماعة .. عن إذنكم (لعمر) متى ستعود ؟

عمر - بعد أن تنتهى جولتنا مع مريم .

صفية - لا تتأخر ... سننتظرك على العشاء .

مصطفى - (مازحاً) عمر وحده ؟

صفية - أتحتاج أنت لدعوة ؟ ... (ضاحكة) أنت صاحب بيت .

(تنصرف صفية ، مصطفى يتابعها بنظره فى إعجاب) .

مصطفى - بنت ممتازة .

عمر - (يفرك يديه مسروراً ويقبل على مريت) .. رائعة .. مدهشة .

مريت - (صامتة) .

عمر - مريت .. لماذا لا تجيبين ؟

مريت - أبداً .

عمر - أضايقك الحديث ؟

مصطفى - لقد كان ممتازاً .

مريت - أستعود إلى البيت ؟

عمر - طبعاً .. بعد أن نوصلك .

مريت - وستتعشى مع أختك ؟

عمر - أجل .. نحن نعيش معاً ، إذا لم أكن مشغولا فى ورديتى !

مريت - (فى صوت به رنة يأس) أتعيشان معاً ؟

عمر - طبعاً .

مريت - (فجأة) هيا بنا .. لابد أن أعود .

عمر - سنشاهد مخرج القناة من الناحية الأخرى .. حيث توضع مولدات الطاقة الكهربائية الضخمة التى ستستخرج من السد .

مريت - (فى ضيق) لا .. لابد أن أعود .. لقد قلت لمخمت إنى لن أتأخر

وأخشى أن تنام .. ويسأل عنى أبى أو أخى حور .. فلا يستطيع أحد أن يستر غيبتى .

مصطفى – سنوصلك حتى البيت .

مريت – أعرف ذلك .. وستنتظراننى حتى أعطيكما الملابس .

عمر – أية ملابس ؟

مريت – ملابسى هذه .. سأبدل ملابسى . وأقذف لكما بها من النافذة .

عمر – ولكنها ملابسك .. لقد اشتريتها لك .. وهى ليست بالشىء الثمين .. اعتبريها هدية .

مريت – ولكنى لم أعد فى حاجة إليها .

عمر – (فى دهشة) كيف !؟ أنت لا تستطيعين أن تسيرى هنا بملابسك بدون إثارة الناس !

مريت – ومن قال إنى سأعود إلى هنا .

مصطفى – ولماذا لا تعودين ؟

مريت – ولماذا أعود .. لقد انتهى الغرض الذى أتيت من أجله .

عمر – أى غرض ؟

مريت – أن أثق من صدق قولك ، أثق أنكم لستم غزاة .. ولا متآمرين .. وأن لكم واقعكم الذى تعيشون فيه ..

مصطفى – لعلك قد اطمأننت .. واسترحت .

مريت – (تتنهد فى حيرة) يعنى ...

مصطفى – ماذا تقصدين بيعنى .. ألم تطمئنى إلينا .

مريت – شيء يبعث على الحيرة .. ليتكم كنتم غزاة ومتأمرين .

عمر – كيف ؟

مريت – لو أنكم كذلك .. لكنتم أقرب إلىّ .. كنتم تصبحون شيئاً كائناً فى حياتى .. وكان يمكن أن يكون هناك أمل فى شيء ما .. ولكنكم بكل هذا الواقع المؤكد الجازم .. قد أصبحتم أسطورة .. وأصبح كل منا بالنسبة للآخر .. مجرد خرافة .. أو وهم .

عمر – لماذا تتحدثين بمثل هذا اليأس . أنت موجودة ، وأنا موجود .. كلانا كائن .. وكلانا يريد أن يبقى مع الآخر .

مريت – أتريد أنت ؟

عمر – ألديك شك ؟

مريت – برغم أنك ...

عمر – إنى ماذا .

مريت – أنك ... (مترددة) أنت ... وأختك .

عمر – (فى دهشة) أنى وأختى ماذا ؟

مريت – تعيشان سوياً .

عمر – وماذا فى ذلك ؟

مريت – (فى غضب) كيف تريدنى .. وفى حياتك أخرى ؟

عمر – إنها أختى .

مريت – ولكنك قلت إنكما تعيشان سوياً ؟

عمر – أجل .

مريت – وتريدنى ؟

عمر – أجل .

مريت – تجمع بين ضرتين .

عمر – (ضاحكا) من قال هذا ؟

مريت – ألم تتزوجا بعد ؟

مصطفى – (ضاحكا) لابعد ولاقبل .

عمر – كيف أتزوج أختى ؟

مريت – وماذا فى ذلك .. أنا مخطوبة لأخى حور .

عمر – (صارخاً) إيه .. أخوك حور .. والعمل ؟

مصطفى – غير معقول .. غير جائز .

مريت – غير جائز .. كيف ؟

مصطفى – لايصح زواج الإخوة .

مريت – لايصح لماذا ؟

مصطفى – لأنه .. لأنه .. غير جائز .. مستحيل .

عمر – من أجل هذا .. خشيت من أختى ؟

مريت – أجل .

عمر – على أية حال .. أختى لم تعد بالمشكلة .. المهم أخوك .. ماالعمل فيه ؟

مريت – لست أظنه أيضاً مشكلة بالنسبة إلىّ .

عمر – حقاً ؟

مريت – لم أشعر قط .. بلهفة على الزواج منه .. هذا الشيء الذى جذبنى نحوك .. لم يشدنى إليه قط .. كنت أبتهل دائماً أن نبقى كما نحن .. أخاً .. وأختاً .

عمر – إذن لم تعد هناك مشكلة ؟

مصطفى – كيف ؟

عمر – لأننا موجودان .. وكل منا يريد الآخر .

مصطفى – والزمن الذى بينكما ؟

عمر – لايهم .. جاذبية الإنسان أقوى من كل حائل ، من جنس .. أو لغة .. أو عرف .

مصطفى – أو زمن ؟

عمر – مادمنا موجودين .

مصطفى – كل فى زمن .

عمر – لايهم .

مصطفى – وأنت يامريت ؟

مريت – أشعر أنى أريده أكثر من أى شىء آخر . الجاذبية التى تشدنى إليه أقوى من كل حائل .. حتى من حائل الزمن ..

مصطفى – على أحدكما إذن أن يتنازل عن واقعه .. إما أن تأتى أنت إلى هنا لتعيشى بعد عشرات القرون من زمنك ، أو تقفز أنت إلى الوراء آلاف السنين .

عمر – أجل .. واحد منا لابد أن يقفز .. هذه الهوة الزمنية .. إما أن تأتى إلىّ .. أو آتى إليك .

مريت – (تنظر إليه فى شغف) سآتى أنا .. سآتى .. سآتى ..

(ستار)

الفصل الثالث

لن نكون غرباء

المنظر : (على شرفة الكتراكت المطلة على النيل في وقت الغروب) .

(مريت وعمر يصعدان الدرج ويسترخيان على مقعدين طويلين مريحين .. بجوار بقية السائحين والزوار الذين جلسوا يتناولون الشاي) .

مريت – (تتنهد تنهيدة طويلة مريحة وهي تنظر إلى الأفق) أشياء كثيرة لم يغيرها الزمن .

عمر – مثل ؟

مريت – الشمس الأرجوانية تتهاوى في الأفق .. هذا القرص الجمري .. تختلط فيه ألوان الورد والبنفسج والياقوت .. طالما تمنيت أن أتحسسه قبل أن ينساب في الماء .. والصخور في عرض النهر .. والنخيلات على شاطئيه .. تنعكس صورتها .. في الماء .. مطرزة بخيوط الأشعة الوردية .

عمر – أتحبين كل هذا يا مريت ؟

مريت – أجل .

عمر – اتجدين فيه دنياك التى ألفتها ؟

مريت – أكاد لا أشعر .. بأنى غريبة هنا .. لم يتغير شىء من حولى .

عمر – وماذا أيضاً لم يتغير ؟

مريت – نحن .. باطننا .. تركيبنا الآدمى .. مشاعرنا آلامنا .. متاعبنا .. حاجاتنا .. أذواقنا .. مطامعنا .. آمالنا .. رغباتنا .

عمر – (يمد يده فيتحسس يدها برفق) أتعرفين مشاعرى ؟

مريت – أحسها .

عمر – وحاجاتى ؟

مريت – ألمحها فى عينيك .

عمر – وآمالى ؟

مريت – لا أظنها تختلف كثيراً عن آمالى .. لست أراك غريباً عنى .. أنت أقرب إلىّ من كل من كان حولى .. تدفئنى مسه يدك وتنشينى نظرة عينيك .. ويمتعنى قربك .. وأتمنى المزيد منه .. أتمناه إلى حد الاندماج فيك .. أتمنى أن نكون شيئاً واحداً .. أنت جزء من عالمى الجميل الرائع .. الثابت على الزمن .. الشمس والنهر .. والصخر فى النهر .. والنخيل على شاطئيه .. وأنت .. أنت .. أجمل مافيه .. وأقرب مافيه .

عمر – (يرفع كفها إلى شفتيه فى شبه عبادة) عجيب هذا الشىء الذى يشد إنساناً إلى آخر .. منذ أن وقع بصرى عليك فى المعبد أول مرة ..

أحسست بفرحة للقائك وتمنيت لو مسستك .. أو ضممتك إلىّ .. ووجدت نفسى أستمتع بوجودك .. برغم هذا الكلام العجيب الذى سمعته منك .. ولم آبه كثيراً .. إن كان بعقلك مس ..أو كنت تعيشين فعلا منذ آلاف السنين .. انجذابى لك كان أقوى من كل هذا .. لم أعبأ كثيراً .. بمشكلة الزمن .. ولا حاولت أن أفكر فيها .. يكفينى أنك حقيقة .. وأنك موجودة .. آتى إليك .. أم تأتين إلىّ .. أثب إلى زمنك .. أم تثبين إلى زمنى .. سواء لدىّ .. ما دمت أحيا معك .. أُحدثك .. وأمسك بيدك .. وأضمك إلى صدرى .. الزمن لم يكن فى نظرى أبداً .. مشكلة .. لن يكون الإنسان .. غريباً .. فى أى زمن .. ما دامت معالم الزمن أقوى على الزمن الباقى من الزمن .. السماء والأرض .. والشمس المشرقة الغاربة .. ونحن .. نحن الناس .. بتركيبنا الآدمى .. بعيوننا ، وأفواهنا .. وقلوبنا .. لن نكون أبداً غرباء .. فى أى عصر .

مريت – (تضغط يده بكفها فى حنان) لن أشعر بالغربة أبداً .. وأنت بجوارى .. والنخيل فى الأفق .. والنهر على مدى البصر .. مادمت بجوارى أستطيع أن أحتمل كل شىء .. لن أشعر بالحنين إلى الزمن الذى عبرته بآلاف السنين .. أهلى .. أمى وأبى وأخى .. وأصدقائى .. ودارى .. ومراتع صباى .. وكل ماارتبطت به .. والذى تسللت منه فى جنح الليل لألقى بنفسى فى عالمك الغريب .. كل هذا أستطيع أن أحتمل بعده .. وأنا بجوارك .. (تصمت برهة ثم تقول فجأة فى جزع) ولكن ..

عمر – لكن ماذا؟

مريت – أستبقى بجوارى دائماً ؟

عمر – (ينظر إلى عينيها فى شغف) دائماً .

مريت – وعملك ؟

عمر – عملى ؟. سأذهب بالطبع إلى العمل .. وبمجرد انتهاء الوردية سأعود إليك .

مريت – ولكنك ستتركنى خلال العمل ؟

عمر – أجل .

مريت – عدة ساعات ؟

عمر – أجل .

مريت – وحدى ؟

عمر – وحدك ؟.. طبعاً لا .

مريت – أعنى بدونك !

عمر – أجل .. ولكن لن تكونى وحدك .. ستكونين دائماً محاطة بالأصدقاء والمعارف .

مريت – الأصدقاء ؟ أى أصدقاء !؟

عمر – الأصدقاء .. أصدقائى .. أخواتهم .. وزوجاتهم .. والأصدقاء الذين ستعرفينهم .

مريت – (فى جزع) إنى أخاف كل هؤلاء .. إنى أصاب بالذعر من كل غريب ألقاه .

عمر – ستألفينهم .

مريت – مستحيل .. إن كل هؤلاء الناس يثيرون رعبى .

عمر – هذا وهم .. الزمن .. كفيل .. بـ ..

مريت – (مقاطعة) زمن ؟ أى زمن .. آلاف السنين .. حتى أصير منهم .

عمر – أبداً .. كما اعتدتني .

مريت – (مقاطعة) أنا لم أعتدك .. لم أكن فى حاجة إلى أن أعتادك .. لقد وجدت نفسي فجأة وكأنى بعض منك وكأنك بعض منى .

عمر – لقد ظننتنى أحد الغزاة .

مريت – ليتك كنيه ..أؤكد لك أن هذا الظن لم يزعجنى كثيراً .. فلقد كان إحساسى بك أغلب من كل شيء ، أتصدق أنى كنت أريد أن أدعو الحّراس لكى أستبقيك ؟ وعندما عرفت منك تلك الأعاجيب التى عرفتها .. لم يستطع شيء منها أن يقتلع وجودك من نفسى .. المسألة إذن لم تكن مسألة اعتياد .. حتى أحاول أن أعتاد هؤلاء .. إنى أحس بالخوف منهم .. أخشى من كل شيء أقوله .. ومن كل شيء أفعله .. ومن كل شيء أراه .

عمر – اذكرى عالمك الجميل هذا .. اذكرى الشمس والنيل والنخيل .

مريت – ولكن عالمكم ملىء بأشياء أخرى غير هذه .. أشياء مفزعة مثيرة على أن أواجهها فى كل لحظة .

عمر – سأكون معك لأعينك على كل شيء .

مريت – لن تكون معى دائماً .. ولست أنت وحدك فى عالمى .. إنى أشعر بالخوف .. عندما أفكر فيما أوشك أن أواجهه من أشياء غريبة .. وما أوشك أن ألقاه .. من بشر غرباء .

(يقبل مصطفى .. فيصافحهما متهللا) .

مصطفى – كنت أبحث عنكما .

عمر – عدنا من رحلة فى النهر .

مصطفى – (لمريت) وكيف الحال ؟

مريت – (تبتسم فى صمت) .

مصطفى – كيف وجدت عالمنا .. وكيف وجدت أهله ؟

مريت – (تهز رأسها فى حيرة) لم أخض التجربة بعد .. مازلت أشعر بأنى فى عالمى .. مع أهلى .. ولست أدرى أين موقعى من عالمكم ومن أهله .

مصطفى – ستكونين فى أجمل موقع .. أنت مخلوقة رائعة .. أرجو أن تعتبرينى دائماً كأخيك .

عمر – (فى جزع) لا .. أرجوك .. دعنا من مسألة الأخوة هذه .

مصطفى – (ضاحكا) أقصد أخوية القرن العشرين ..لا أخوة الفراعنة .

مريت – (تتنهد ويبدو عليها الشرود).

عمر – هاى .. أين ذهبت ؟

مصطفى – وثبة إلى الشاطىء الآخر .. عبر السنين الطويلة .

مريت – (تتنهد) ترى كيف يفتقدوننى هناك ..ماذا حدث لأبى .. ولأمى ؟

عمر – بدأنا الحنين .

مريت – (تهز رأسها كأنها تطرد مابها من أفكار تقلقها .. (تتنهد وتنظر اليه فى شغف) كل شىء يهون .. بجوارك .

مصطفى – (مفكراً) ولكن .. لماذا لا يأتى أحباؤك معنا .. أبوك وأمك وبقية أسرتك ؟

مريت – (فى يأس) أسرتى الملكية .. كيف تقنعهم بالمجىء .. وكيف يعيشون هنا ؟.. ومعابدهم وقصورهم .. وأموالهم .. وممتلكاتهم !

عمر – (مؤكداً) ستصادر حتما .

مريت – تصادر ؟.. ماذا تعنى ؟

عمر – تؤخذ منهم .

مريت – من الذى يأخذها ؟

مصطفى – الشعب .. الناس .

مريت – لماذا ؟

عمر – (ببساطة) لأنهم فى غير حاجة إليها ..والناس فى حاجة إليها .. أليس كذلك ؟.

مريت – (مفكرة) جائز .. أشياء كثيرة كنا نملكها وفى غير حاجة إليها .. هذه الأراضى الموقوفة على بيوت الأبدية .. التى تطعم منها أرواحنا .. كانت تحيرنى دائماً .. لا جدال فى أن حاجة الأحياء إليها كانت أكثر إلحاحاً ، من أرواحنا فى السماء .

مصطفى – على أية حال لن تستعصى عليهم الحياة ، إن هناك نظماً موضوعة لتصفية الأموال المصادرة والحراسات تمنح أصحابها قدراً معقولا ، لمعيشهم .

عمر – (يهز رأسه فى قلق) تظنهم يستطيعون أن يعيشوا بما سيمنحون ؟

مصطفى – عليهم أن يعتادوا حياتهم الجديدة .. فى زمنهم الجديد .

عمر – (فجأة) والضرائب ؟

مصطفى – مالها الضرائب ؟

عمر – بتقديراتها الجزافية سيصبح فرعون مديناً لنا بإذن الله ، بعد كل هذا العمر الطويل من الفرعنة .. سيتحتم عليه أن يدفع بدل أن يأخذ .

مصطفى – يا أخى .. يستطيعون أن يعملوا ..إن هناك فرصة العمل للجميع .. الأب يستطيع أن يفتح مطعماً يقدم فيه المأكولات الفرعونية .

عمر – والأم تستطيع أن تفتح محلا للأزياء .

مريت – (فى دهشة) ما هذا !؟ فرعون ينحدر به الزمن حتى يفتح مطعماً .. والملكة تفتح محل أزياء ؟

عمر – لِمَ لا .. الكل يجب أن يعمل .

مريت – أجل يعمل .. ولكن فرعون يعمل ..صاحب مطعم .

عمر – لا ضرورة بالذات لأن يكون صاحب مطعم .. إنه مجرد اقتراح .. يستطيع أن يعمل أى شىء .

مريت – (تهز رأسها فى يأس) إنه لا يستطيع أن يعمل إلا فرعون .

عمر – (فى حيرة) مشكلة .. لست أظنه بمستطيع أن يجد له مثل هذا العمل فى هذا الزمن .

مريت – لقد قلت لى إن حاكمكم من ؟

عمر – واحد منا .. من الشعب .. يحكم باسم الشعب من أجل الشعب .

مريت – ليس باسم الآلهة ؟

مصطفى – كان زمان .. أما الآن ، هنا .. فى زمننا هذا .. فحكم الشعب من أجل الشعب .. حكم ديمقراطى اشتراكى .

مريت – ديمقراطى ؟

عمر – أجل .. الناس ينتخبون حكامهم والحكام يمثلون سلطة الشعب .. إن الشعب .. يحكم نفسه من أجل نفسه .

مريت – (فى حيرة) والاشتراكية ؟

عمر – العدالة الاجتماعية .. تكافؤ الفرص بين الناس.. أن يمنح كل الناس فرصاً متساوية للعلم والعمل والعلاج والأمان .. أن توضع كل الموارد لخدمة كل الناس .

مريت – (فى دهشة) أنتم إذن تفعلون مالا تفعله الآلهة ؟

مصطفى – كيف ..؟

مريت – آلهتنا لم تكن اشتراكية قط .. لم تمنحنا فرصاً متكافئة .. حتى قبل أن نبدأ السير فى الحياة .

عمر – آلهتكم فعلت هذا !

مريت – (مؤكدة) وأغلب الظن أن آلهتكم تفعله ، إنها لا تمنحنا تكافؤاً فى القدرة .. فى الموهبة .. فى الذهن .. فى الخلق .. فى الشكل .. توجدنا بفوارق هائلة .. وتطلقنا فى الحياة بهذه القدرات المتفاوتة .. كيف يمكن التكافؤ .. بعد هذا ؟

مصطفى – وسط هذا الانطلاق يجب أن يضمن للكل ، حد أدنى للحياة

الآدمية الكريمة .. مهما كانت قدرته .. يجب ألا تدوس الأقدام المنطلقة ، الأقدام المتعثرة .

مريت – أنتم تصلحون إذن باشتراكيتكم . ماأفسدته عدم اشتراكية الآلهة !

عمر – (مأخوذاً) لا .. لا .. يبدو أننا لم نستطع أن نفسر لك ما نقصده جيداً .. نحن نمنح فرصاً متكافئة .. لا يضيع من تكافئها إرث ، أو نفوذ .. أو سلطان .. ولكن يحدد نتاجها .. التفاوت فى القدرة .. الذى قلت إن الآلهة أوجدته . التفاوت فى الموهبة .. فى الذهن .. فى الخلق .. فى أى شىء .. ذلك هو الذى يحدد للإنسان نتاجه فى الحياة .. وبحسبه يمكن أن تتشكل حياته وأن تزداد حصيلته منها .

مصطفى – بشرط ألا تضاف إلى قدرته الغول المسمى رأس المال .

مريت – لا أفهم ما تعنى .

عمر – أعنى أنه يمكن أن ينال دائماً نتيجة قدرته .. من موهبة ذهنية ، أو بدنية أو خلقية ، أو أية موهبة أخرى ، وأن تتاح لآماله فى الحياة فرصة الانطلاق والتحقق حسبما تيسر له موهبته ، وأن يمنح فرصة الاستمتاع بالحياة حسبما يوفره له جهده وكفايته وخلقه ، وأن ينعم من الحياة بثمرة قدرته هو نفسه على العمل .. لا بثمرة استغلاله لقدرة الغير وجهده .. وأن تكون قيمته دائماً فى تلك القدرة الذاتية .. لا أن تكون قدرته فى مال ينمى مالا ، ويتضخم فى يده باستغلال قدرة الغير لكى يزداد مع الأيام نمواً وجبروتاً ، ويصبح كصاحب غول أو وحش يزيده على الأيام ضراوة ، يطعمه من عرق الناس ليزداد شراهة ، وتصبح قيمته فى قدرة هذا الشىء الخارج عنه .. الطيع له .. الجبار على الغير ، الذى ينميه مجرد وجوده .. وقدرته على الاستغلال والسيطرة .. والذى لا هم له سوى النمو والتضخم .. على حساب حاجة

صاحب الجهد ، ولا يعود بضخامته يمثل له أى نفع سوى إرضاء شهوة السيطرة والاكتناز .

مصطفى – هذا المال يا مريت الفائض عن حاجة الإنسان المعتدلة في الحياة يجب أن يكون أداة لخدمة الناس لا لاستغلالهم .. يجب أن تملكه اليد المأمونة الخيرة ، يد كل الناس ليخدم كل الناس ويؤمن كل الناس ، بدل أن تملكه يد تستغل به جهد الناس ولاتمنحهم سوى الفتات الذى يبقيهم قادرين على مزيد من الجهد لمزيد من الاستغلال وتمنح اليد المستغلة كل الثمار لتزداد ضراوة وقدرة على مزيد من السيطرة والاستغلال .. أفهمت يا مريت ؟ .

مريت – أكاد أفهم .. ما كان أحق زمنى بما فعلتم .. فهمت الآن .. لماذا سخرتم من ثورة الشعب من أجل الجنة السماوية .. كان أحق بأن يثور من أجل الحق العاجل لا الحقوق الآجلة .. (تهز رأسها مفكرة) لا .. لست أظن أبى يستطيع قبول اشتراكيتكم .. ولا فهمها .

مصطفى – وسيبقى هناك ؟

مريت – (فى أسى) لا مفر من ذلك .

مصطفى – حتى تغرق الأرض ؟

مريت – (فى تردد) أواثق أنت أنها ستغرق ؟

عمر – ألم ترى بنفسك كل ما يجرى فى النهر .. ألم ترى السد والأنفاق !

مريت – (فى حزن) أجل .. أجل .

(تبدو صفية قادمة ومعها عايدة زميلة لها صحفية تحمل معها كاميرا)

عمر – دعونا من هذا الآن .

(ينهضون ويتبادلون السلام)

(يجلس الجميع وتضع صفية « راديو ترانزستور » أمامها على المنضدة)

صفية – فرصة طيبة أن نسمع البرنامج سوياً .. (تنظر إلى الساعة) بعد دقائق سنبدأ إذاعته (لعمر) ألن تطلب لنا شاياً ؟

عمر – حالا (مشيراً إلى الجرسون) .

الجرسون – أفندم .

عمر – شاى من فضلك .

(صفية تعبث بأصابعها فى الراديو فتصدر أصوات تفزع مريت وتنظر إلى الراديو فى قلق .. عمر يحاول طمأنتها بنظراته) .

صفية – عايدة تقوم بعمل ريبورتاج لجريدتها .. وقد زارت اليوم معبداً من المعابد التى تقرر نقلها قبل أن تغرقها المياه .

مريت – (يبدو عليها الاضطراب وتزدرد ريقها) .

عايدة – شيء رائع .. يستحق الإنقاذ .

صفية – الآنسة مريم .. خريجة قسم الآثار .. لا شك أنها تعرف عنها الشيء الكثير .

عايده – حقاً .. ليتك كنت معى .. كانت هناك أشياء كثيرة وددت الاستفسار عنها .. المرسى .. المؤيدة للنيل كيف كانت تستعمل ؟

مريت – (فى شرود) كانت المراكب تحملنا إلى الشاطىء (مستدركة) أعنى تحملهم .. عند الغروب .. ويخرج فرعون وزوجته وابنه وابنتهم

للصيد ، ويتجهون إلى البحيرة التى يسبح فيها الأوز ويحلق فوقها الطير .. وتمتلىء بأزهار اللوتس الجميلة .. وكشك الحديقة يبدو من شاطىء البركة .

عايدة – (لمريت) .. وكأنك رأيته ؟

مريت – (مرددة) كأنى رأيته .. جميل .. جميل .

(صفية تدير الراديو فيعلو صوت مريت وهى تجيبها على أسئلتها حين سألتها فى النفق) .

صوت مريت – هذه أشياء تبدو غير بشرية .. أشياء لا تصنعها إلا الظواهر الطبيعية .

مريت – (يبدو عليها الذعر ثم تصرخ فزعاً) من .. من ؟ . أنا هنا .. روحى قد استقرت هنا .. أنا ...

(صفية وعايدة تذهلان ثم تغرقان فى الضحك) .

عمر – (يسرع بإغلاق الراديو ويعتذر مرتكباً) .. متأسف .. متأسف جداً ، مريت تصيبها بعض حالات الضيق نتيجة دراستها الطويلة للآثار .

(مريت تحس أنها ارتكبت خطأ وتبدو عليها الحيرة والأسف) .

مريت – (متمتمة) آسفة .. آسفة جداً .

(صفية وعايدة تحاولان أن تكتما ضحكاتهما) .

مصطفى – لا .. لا .. بسيطة .. حصل خير .

(يقبل الجرسون بالشاى ويضعه على المنضدة) .

عمر – (لمريت) هذا جهاز راديو للإذاعة ، أتذكرين الآلة التى عضضتها أمس لقد نقلت حديثك إليه .

مريت – (فى يأس) جائز .. جائز جداً .

(صفية تصب الشاى) .

صفية – (لمريت) قطعة أم قطعتين .

مريت – (تبدو عليها الدهشة ولا تعرف ماذا تقصد صفية وتنظر إلى عمر حائرة) .

عمر – (بسرعة) قطعتين .

(صفية تمد يدها بالفنجان إلى مريت التى تأخذه بخوف) .

عمر – (يهمس لها) لا تخافى .. هذا شاى .. اشربيه .. برفق لأنه ساخن .

(صفية تسمع ما يقوله عمر فيبدو عليها الدهشة)

صفية – (هامسة لعايدة) تصورى ، يقول لها إن هذا شاى .. هذه الفتاة .. مخلوقة عجيبة .. إما أنها مجنونة .. أو ليست من هذه الأرض .

(عايدة تمسك بالكاميرا فى يدها وهى من نوع البولارويد .. تخرج منها الصورة بعد دقيقة من تصويرها)

عايدة – سألتقط لكم صورة وأنتم تحتسون الشاى .

(مريت تنظر إلى آلة التصوير مرتابة)

مصطفى – (هامساً) .. لا تخشى شيئاً .. إنها جهاز لالتقاط الصورة .

مريت – (غير فاهمة) .. صورة ؟ أى صورة .!

عمر – (هامساً) صورتنا نحن . !

مريت - (تهز رأسها فى حيرة) ، جائز .. كل شىء فى عالمكم جائز .. المهم ألا أسمع فيها صوتى .. لأنى أحس أن روحى قد حبست فيها .

(عايدة تلتقط الصورة ، وتعد ١٥ ثم تفتح الكاميرا وتخرج الصورة وتعطيها لمريت) .

مريت - (صارخة) لا .. لا .. غير معقول .. أنا دائماً أخاف السحر .. صوتى فى هذا الصندوق .. وصورتى فى الصندوق الآخر .. لا .. لا .. مستحيل .

(صفية وعايدة تغرقان فى الضحك)

صفية - غير معقول .

(مريت يبدو عليها الحيرة والخوف واليأس) .

عمر - (ينهر صفية) صفية .. كفى .

صفية - (فى ذهول) عمر .. هذا غير معقول .. أيعنى هذا أنها لم تسمع راديو ولم تر صورة من قبل ؟

مصطفى - طبعاً لا .

عمر - قلت لك إن لها حالة خاصة تصيبها أحياناً .

صفية - (كأنها أدركت أن مريت بها خبل) ها .. فهمت .. فهمت (تنظر إليها فى رقة) أنا متأسفة .. (تتناول الصورة) إنها شىء سخيف حقاً .. (فى لوم لعايدة) ما كان لك أن تفعلى هذا .

(صفية وعايدة تنهضان) .

صفية - عن إذنكم .

عمر – مع السلامة .. سأراك فى البيت

مريت – (منهارة) غير معقول أن أستمر هكذا .. إنهم ينظرون إلّى كأن بى خبلا .. وهم على حق .. إنى وراءهم بآلاف السنين . كل ما لديهم وما اعتادوه .. غريب علّى .. أنا غريبة بينهم .. إنى لست حتى مجرد طفلة.. وفى كل يوم .. بل فى كل ساعة .. سأواجه بجديد لا أعرفه .. هذا الإناء لم أكن أعرف ما بها .. كيف يشرب .. لم أعرف حتى ماذا تعنى بقطعة أو قطعتين .. لو أنى معك وحدك لهان الأمر . ولكن علىّ أن أعيش فى عالمك الواسع .. على أن أواجه فى كل خطوة شيئاً مذهلا .. وعلّى ألا أذهل .. وأن أبدو كأنى أعرفه .. وإلا اتهمت بالجنون .. وحتى أعرف كل هذا يكون العمر قد ضاع .. ليس لى مكان هنا .. بين هذه اعجائب .. إلا أن أكون أنا مجرد أعجوبة .

عمر – (فى يأس) وبعد .. !

مريت – لابد أن أعود .. إنى خائفة .. إنى أرتعد .. من كل شىء .. وأخشى إن طال بى الخوف .. أن أخافك أنت .. وأن أشعر بغربتى معك ، لست أريد هذا أبداً .

عمر – تعودين ؟! أتحتملين الفرقة ؟

مريت – لا .. سأموت إن بقيت .. وأموت إن تركتك .

عمر – والعمل .. ؟

مريت – تعال معى .

عمر – آتى معك ؟

مريت – أجل .. لن تجد هناك مايفزعك .. كل شىء يسير فى هدوء .. لن تخافى من أى شىء .. كل ما هنالك تعرفه .. كل شىء بسيط .. بسيط .

عمر – (يفكر برهة) سآتى .. لأنى لاأستطيع أن أتركك ، ولاأستطيع أن أعذبك هنا .

مصطفى – أحقاً ستذهب ؟

عمر – أجل .

مصطفى – وحدك ؟

عمر – وماذا يمكن أن يكرهك على المجيء ؟

مصطفى – لست أتصور .. كيف أتركك وحدك .. سأذهب معك .. على الأقل لأطمئن عليك .

مريت – (فى فرحة) هيا بنا .

عمر – انتظرى حتى ندبر الأمر .

مريت – سأدبر أنا كل شيء .. لن تجدنى بمثل هذا العجز والحيرة .. سأكون ابنة فرعون .. فرعون الأصيل .. لاصاحب المطعم .. وستكون أنت بجوارى .. سيدى .. وسيد الأرض .. وسيد الناس .. لن نكون أبداً غرباء .. هيا بنا .

(ينهض الثلاثة .. ويدفع عمر الحساب .. ثم يغادرون الشرفة) .

(ستار)

الفصل الرابع
ماذا يريد ؟

(المنظر : القاعة الكبيرة في القصر الفرعوني تبدو أمامها البحيرة يسبح بها الأوز وتحلق فوقها الطيور .. وتتناثر في وسطها الزهور .. القاعة تبدو فسيحة قائمة على الأعمدة الفرعونية ، وتبدو الشرفة في المواجهة تطل على البحيرة وقد رصت فيها الموائد .. وفي الركن الأيسر البعيد مقعد كبير تحيط به بعض المقاعد الصغيرة ، وفي الركن الأيمن منضدة ومن حولها المقاعد . وفي الجانبين القريبين رصت الأرائك ، وعلى اليسار بدا باب كبير في الوسط يبدو خلاله بهو صغير قائم في مدخل القاعة .. وعلى اليمين بابان صغيران أحدهما يفضي إلى بقية حجرات القصر والآخر يفضي إلى مدخل خلفي .

(الأسرة الفرعونية في اجتماع عائلي .. رع يجلس على المقعد الكبير وبجواره زوجته نفرو وابنه حور وابنته مريت وأمامهم الوزير موس وقائد الجيش مين وكبير الكهان بوتو .. أحد الحراس يقف بالباب الكبير) .

رع – كان من العسير علىّ يامريت أن أقطع برأيي في الأمر .. خلال ساعات الليل الطويلة استبد بي الأرق وأنا أحاول أن أصل إلى رأى حاسم حكيم .. يحفظ ملكنا من الدمار .. ويحفظ أرواحنا من الضياع .. واستشرت الآلهة فلم تحسم أمرى .

بوتو – الآلهة تثق يامولاى في سديد رأيك ونافذ حكمتك .

رع – أعلم يا باتو أعلم .. ولكنى كنت أشد حاجة إلى رأيها منى إلى ثقتها .. كنت أحس أنى غارق في بحر من الضياع ، كنت واثقاً أن الآلهة راضية عن زواج حور بمريت .

حور – لاجدال في هذا ياأبى .. لم تكن الآلهة لتسمح لغريب يتسلل إلى أسرتنا أن يشاركنا الملك ويقاسمنا المجد الأرضى .. والنعيم السماوى .

(بوتو يهز رأسه موافقاً)

مريت – لأن يأتى غريب يقاسمنا ملكنا ويصبح واحداً منا .. خير من أن نفقد ملكنا كله . ونهيم على وجوهنا في الأرض ونشرد في السماء .

حور – من قال هذا ؟

مريت – لاتحاول أن تنكر النبوءة ياحور .. سل أبى . عن الجحافل التى تنبئوا بأنها ستجتاح أرضنا .. والمياه التى ستغرقها .. سله كيف أكدتها الرؤى في المنام .

رع – أجل .. أجل . لقد باتت كالشبح يطاردنى ليل نهار .

(بوتو يهز رأسه موافقاً)

مريت – وموس يعرف جيداً .. إن حالتنا لاتحتمل خوض حرب .

موس – إننا لم نخلص بعد من ثورة الشعب ، من أجل حق الجنة السماوية وشائعات الفيضان والدمار تسرى بينهم .

مين – وجيشنا فى حالة لاتبعث على الطمأنينة .

مريت – ثم تسنح لنا هذه الفرصة الذهبية فلا نحاول أن نقتنصها .. لماذا نصر على انتظار الغزو إذا كنا لانملك دفعه !؟ ولماذا نصر على خوض حرب نعرف جيداً مصيرنا فيها !؟ ولماذا لانمد أيدينا إلى غصن الزيتون المبسوط لنا !؟ لقد التقيت بهم أكثر من مرة ، ولقد فضلت أن أواجههم مباشرة ، مادام الأمر يعنينى أنا وعرفت نواياهم جيداً .. واطمأننت إليهم كل الطمأنينة .

نفرو – ولكن ياحبيبتى .. لماذا يقع عليك وحدك عبء التضحية ؟

مريت – (فى دهشة) تضحية !؟ (مستدركة) لست أظن أحدكم أقل منى قدرة على التضحية .. أو رغبة فيها .. لو أن أحدكم فى موضعى لما تردد لحظة فى أن يفعل مافعلت .

رع – (متنهداً) على أية حال .. لقد حتمت الحكمة علينا القبول .

موس – إنى واثق أن هذه المصاهرة امتداد لنفوذنا فى الشمال .. وأمان لنا من أى غزو يخشى من هناك .

حور – إن هذا امتداد لنفوذ أهل الشمال فى أراضينا .. إن هذا هو الغزو المقنع .. إنى أخشى على حضارتنا من همجيتهم .. و .. تأخرهم .

مريت – (مقاطعة) حضارتنا .. نخشى عليها من همجيتهم وتأخرهم .. (تغرق فى الضحك) .

حور – ماذا يضحكك ؟

مريت – يضحكنى .. يضحكنى .. لاشىء .. لاشىء . (لنفسها) ليتهم كانوا أقل حضارة .. ليتهم كانوا أكثر همجية وتأخراً .. إذن لهان الأمر .. ولاستقررت بينهم ، وكفيت نفسى كل هذه المتاعب .

حور – مهما كانوا .. أنا لا أوافق .. لاأوافق أبداً على تشتيت أملاكنا .

رع – مفهوم .. وجهة نظرك .. مفهومة تماماً ، ولكن لابد مما ليس منه بد .

نفرو – على أية حال .. المسألة أولا وآخراً مسألة زواج .. مسألة شركة ، وأصحاب الحق فيها .. هما طرفا الشركة ، ومامن أحد يستطيع أن يكره أحداً على شركة لايريدها ، ولمريت أن تقرر ما تريد ، ولنا أن نتمنى لها أسعد الأيام .

حور – أنت دائماً تدللينها .. هذه ليست مسألة شخصية .. مسألة بلد .

نفرو – يابنى .. إنها مسألة مريت أولا .. لاتدع أنانيتك تعمى بصيرتك (لمريت) مادمت يامريت تعتقدين أن هذا الزواج سيسعدك فإننا ندعو الآلهة أن تباركك وتحفظك وترعاك .

مريت – (تضم أمها إلى صدرها) ياأماه .. سأكون دائماً فى حاجة إلى دعواتك الطيبة .

رع – متى تتوقعين حضورهم ؟

مريت – عندما تسقط الشمس فى الأفق .. سيحضر الأمير ومعه قائد الجيش وكبير الكهان .

رع – (لموس) هل أعددت العدة للاحتفال ؟

موس – أجل يامولاى .. بقدر ماتسمح الظروف .. الموائد مدت فى الخارج والموسيقى والراقصات والمنشدات .

رع – (لبوتو) والعقد .. هل أعددته يابوتو .؟

بوتو – جاهز يامولاى .. ولتمنحنا بركاتها .. صل من أجل مريت يابوتو .. إنها طيبة وتستحق كل خير .

بوتو – سأصلى لها دائماً يامولاتى . إنى أعرف قدرها لدى الآلهة ولدى الناس جميعاً .

(مريت تنظر إلى الباب فى قلق فتجد سخمت خادمتها تطل فى حذر فتذهب إليها) .

مريت – (هامسة لسخمت) ها . ماذا فعلت .؟

سخمت – لقيتهم فى المعبد ، وسلمت إليهم الملابس .. كم كان الأمير رائعاً يامولاتى ، وكان صاحبه معقولا .. أما ثالثهم الذى يبدو كالبغل فغير معقول بالمرة .. لايمكن يامولاتى أن يكون كبير كهان أبداً .

مريت – (فى قلق) لماذا ؟

سخمت – لقد قرصنى هنا (تشير إلى مؤخرتها) .

مريت – لابأس ياسخمت يجب أن نحتمله .

سخمت – لو استمر فى حركاته .. فلن يكون محتملا بالمرة .

مريت – هل أكدت عليهم ما سبق أن اتفقنا عليه ؟

سخمت – أجل .. أجل .. كل شيء كان مفهوماً لديهم .

مريت – وأين هم ؟

سخمت – إنهم آتون في أعقابي .

(تزداد الحركة في القاعة .. يحضر بعض الكهان وكبار رجال الدولة .. حور يقف جانباً ، وهو يتهامس مع بعض أتباعه ، وعلى رأسهم خنوم رئيس القضاة) .

حور – يبدو أنه لم يعد هناك مفر من هذه المصاهرة .

خنوم – كيف تم كل هذا بمثل هذه السرعة ؟

حور – لأن مريت تريد هذا .

خنوم – وكيف استطاعوا التأثير عليها .. متى اتصلوا بها ؟ . وأين ؟

حور – (يهز كتفيه في حيرة) وكيف أدرى .. إنها وحدها التي دبرت الأمر .. قالت إنها اجتمعت بهم مرة في المعبد ، ومرة أخرى ذهبت إليهم في الضفة الغربية .

خنوم – هذا أمر عجيب .

حور – إن في المسألة سراً خطيراً .. إما أن تكون مريت مخدوعة .

خنوم – أو ..

حور – متآمرة .

خنوم – على أية حال .. بعضاً من الصبر وسيتكشف كل شيء .

حور – أجل .. لابد أن أعرف الحقيقة . إن ما حدث شيء أشبه بالسحر .

خنوم – كيف ؟

حور – لقد كانت راضية تماماً عن زواجنا .. كان كل شيء مقرراً .. وفجأة .. (يهز رأسه في حيرة) .

خنوم – ماذا حدث ؟

حور – تبدلت تماماً .. كانت تبدو كالشاردة .. وكثر أختفاؤها .. ثم أقبلت علينا فجأة بهذا التدبير الجديد مصرة عليه في ثقة وإيمان .

خنوم – صه .. أسمع بالباب ضجة .. لابد أنهم قد أقبلوا .

مريت – (يبدو عليها الاضطراب .. تتجه نحو الباب ويقف الجميع ، وقد بدت على وجوههم اللهفة مشرئبين بأعناقهم إلى الباب الكبير) .

الحارس – (صائحاً) .. أمير الشمال .

(يدخل عمر ، وقد ارتدى ملابس فرعونية ووراءه مصطفى وصبحي يرتدي أولهما ملابس قائد الجيش والثاني ملابس كبير الكهان) .

(مريت تتقدم لتحيتهم والقيام بواجب تقديمهم إلى فرعون وأسرته وحاشيته) .

مريت – الأمير محب أمير الشمال .

(ينحني عمر تحية للحاضرين ويتقدم لمصافحة فرعون) .

مريت – (تقدم مصطفى وصبحي) القائد أزيرو قائد جيش الشمال .. السيد سمنكرع كبير كهان الشمال .

(ينحنيان ثم يتخذان مكانهما وراء عمر) .

رع – أهلا وسهلا .. مرحباً بكم فى بلدنا .. لقد حدثتنا مريت عن نواياكم الطيبة نحونا .

عمر – طيبة دائماً .. لقد كنا دائماً فخورين بآثاركم .. أعنى بأعمالكم الرائعة ، بحضارتكم ، وتقدمكم ، إنها تثير العجب والدهشة فى أيامنا هذه .

رع – (فى دهشة) أيامكم .. (ضاحكا) لعلنا لم نهرم كثيراً !

عمر – أبداً .. أبداً .. ستبقون دائماً فى أوج شبابكم .. ومجدكم .

رع – (فى سخرية) لعلكم لم تسبقونا كثيراً فى تقدمكم .. وحضارتكم .

عمر – أنتم الأصل دائماً .. مهما فعلنا .. إنكم الجذور العميقة المتشعبة فى باطن الزمن .

رع – على أية حال .. إنى سعيد بأن تقوم بيننا رابطة من المودة والمحبة والقرب .. إن هذا يمنحنا القوة .. ويقضى على الشائعات التى لاتفتأ ، تقض مضاجعنا وتسبب لنا القلق .. والتى تثير بيننا المخاوف والشكوك .

عمر – ليس هناك أبداً ما يبعث على المخاوف والشكوك .

حور – أما كانت هناك نوايا غزو ؟

عمر – غزو ؟ .. لا .. مطلقاً .

حور – لنسأل السيد أزيرو قائد الجيش .. ألم يحشد جنوده فى الضفة الغربية .

مصطفى – (ينظر شارداً غير مدرك أنه المقصود بالحديث) .

صبحى – (يدفعه بمرفقه هامساً) أجب .. ياباشمهندس .. أنت أزيرو قائد الجيش .. هل حشدت جنوداً فى الضفة الغربية ؟

مصطفى – أبداً .. أبداً .. ليس هناك جنود سوى البوليس الحربى والشئون العامة .

حور – يعنى هناك جنود .. يعنى هناك احتمال .. قتال .

عمر – قتال !! لا .. لا .. إنهم للأعمال التنظيمية فقط .. أليس كذلك ياأزيرو ؟

مصطفى – طبعاً .. طبعاً .

حور – وآلهتكم ألا تنوى إغراق أراضينا بالمياه .. ياكبير الكهان ؟

مصطفى – (يدفع صبحى بمرفقه) أجب .. ياسمنكرع .. أنت كبير الكهان . هل ستغرق أراضيهم ؟

صبحى – (هامساً) الشهادة لله .. ستغرق .

حور – لماذا لاتجيب ياسمنكرع ؟

صبحى – (لنفسه) سمنكرع .. اسم غير معقول ، ولكن ما علينا .. (لحور) تسأل عما إذا كانت الأرض ستغرق ؟

حور – أجل .

صبحى – (فى لهجة ممدودة) الله رحيم بعباده .. وجعلنا من الماء كل شىء حى .. نغرق شبراً .. ونزرع عشرة .

حور – يعنى ستغرق آلهتكم الأرض ؟

(تحدث ضجة بين الحاضرين وتسود موجة تذمر) .

(مريت تنظر إلى عمر نظرة توسل .. عمر يتلفت إلى صبحى فى غيظ) .

عمر – السيد سمنكرع لايقصد أبداً أن الأرض ستغرق ، إنه يؤكد أن آلهتنا تبارككم جميعاً ، وأنها تدفع عنكم الضر وتهبكم الخير .. أليس كذلك ياسمنكرع ؟

مصطفى – (يزغد صبحى) انطق ياغبى .

صبحى – طبعاً .. طبعاً .

(يحدث مرج وينشاغل رع بالحديث مع عمر) .

صبحى – (هامساً لمصطفى) متى سننتهى من كل هذا ؟

مصطفى – بعد كتابة العقد .

صبحى – أهناك عقد ؟

مصطفى – أجل .. سخمت أنبأتنى بهذا .

صبحى – عقد واحد !

مصطفى – ماذا تعنى ؟

صبحى – أعنى أسيتزوج الباشمهندس وحده ؟

مصطفى – طبعاً .

صبحى – كنت أظننا سنتزوج كلنا .

مصطفى – (فى دهشة) ألست متزوجاً ؟

صبحى – واحدة فقط .. والست سخامة هذه تعجبنى .. لحمها طرى .. وجسدها يملأ الحضن .. قل لمريت إنى أريد زواجها .

مصطفى – ليس هذا وقته ياصبحى .

صبحى – لماذا ؟ .. بدل العقد .. نجعله عقدين .

مصطفى – أنت كبير كهان .

صبحى – وماذا فى ذلك ؟

مصطفى – وهى وصيفة .

صبحى – يعنى إيه وصيفة ؟

مصطفى – خادمة .

صبحى – ليكن .. أنا خادم بيت الله .

(رع يحاول إسكات الضجة) .

رع – صمتاً .. لقد أكد لنا الأمير محب أنه ليس فى نيتهم غزو بلادنا ، ولا إغراق أراضينا .. وهذا وعد كاف لاضرورة لكل هذه الضجة .

(نفرو تنهض من مقعدها وتقترب من عمر ومريت) .

نفرو – ياولدى .. أهم عندى .. من أن بلدك لن تغزو بلدنا .. وقومك لن يغرقوا أراضينا .. هل تحب مريت ؟

عمر – (فى حرارة) أجل .

نفرو – أتشعر بالسعادة وأنت بجوارها ؟

عمر – لاأعرف السعادة إلا بجوارها .

نفرو – أتفكر فيها إذا غابت عنك ؟

عمر – لم يعد ذهنى يستطيع الخلاص منها .

نفرو – وسعيد أنت بهذا ؟

عمر – لم تعد المسألة بالنسبة لى سعادة أو شقاء .. لقد أصبحت ضرورة لازمة .. لزوم كل مقومات الحياة .. لزوم الماء والهواء .

نفرو – (لمريت) ، وأنت يامريت ؟

مريت – (هامسة) بت شرأ منه .

نفرو – (لنفسها) بعد كل هذا لم تعد هناك أى مشكلة .

عمر – مشكلة !؟ .. لو تدرين !! الزمن نفسه لم يكن مشكلة .

نفرو – هيا يارع .. مر الكهان أن يبدءوا إجراءاتهم .. ولتباركنا الآلهة .

بوتو – أنا جاهز يامولاى .

رع – ناد الكهان .

(رع يخرج إلى الشرفة وينادى) .

رع – توت .. نحت .. هاتوا أوراقكم .

(تدخل مجموعة من الكهان ويجلسون فى ركن القاعة ، ويأخذون فى الكتابة) .

رع – (لموس) لتبدأ الاحتفالات ياموس .

(موس يشير لأحد معاونيه) .

موس – لتبدأ الرقصات .. وليقدم النبيذ والأطعمة .

(يخرج معاونه لإعطاء الأوامر ببدء الاحتفالات) .

(بوتو يتقدم من الكهان ويقف فى وسطهم ثم يتناول الورقة التى كتب عليها العقد ويأخذ فى القراءة) .

بوتو – يا أمير الشمال .. ياابن الفراعنة .. اتل معى الوثاق المقدس الذى سيربطك بزوجتك ابنة رع .. سليلة الآلهة .. أجاهز أنت ؟

عمر – أجل .

بوتو – يامريت يابنت رع .

(عمر يردد كل فقرة من فقرات العقد) .

عمر – يامريت يابنت رع .

بوتو – لقد اتخذتك زوجة[1] ، وللأطفال الذين تلدينهم لى كل ما أملك وما سأحصل عليه .

عمر – لقد اتخذتك زوجة ، وللأطفال الذين تلدينهم لى كل ما أملك وما سأحصل عليه .

بوتو – ولن يكون فى مقدورى أن أسلب منهم أى شىء مطلقاً لأعطيه إلى أحد من أبنائى أو إلى أى شخص آخر فى الدنيا .

عمر – ولن يكون فى مقدورى أن أسلب منهم أى شىء مطلقاً لأعطيه إلى أحد من أبنائى أو إلى أى شخص آخر فى الدنيا .

بوتو – (يجد بعض الفقرات غير واضحة فيقدمها إلى مساعده) ، أصلح هذا .

---

(١) عقد الزواج مأخوذ من نص عقد زواج يرجع تاريخه إلى عام ٢٣١ ق . م .. أبرم بين أمحوتب وتاحاتر (وهو محفوظ فى المتحف المصرى بالقاهرة) .

مصطفى – (لصبحى) .. أما زلت تصر على الزواج ؟

صبحى – ولِمَ لا ؟

مصطفى – وتحرم أولادك ؟

صبحى – من أى شيء .. ماذا تأخذ الريح من البلاطة ياباشمهندس .. دعنا .. نتمتع .

(صبحى يقترب من سخمت .. ثم يرفع يده ويضعها على كتفها ويتحسسها كأنه يمنحها البركة) .

صبحى (لسخمت) باسم الله ماشاء الله .

مصطفى – إحتشم ياصبحى ، أنت كبير كهان .

صبحى – (مستمراً فى التحسيس) الله جميل يحب الجمال .

بوتو – (مستمراً فى تلاوة العقد بعد أن يتناوله من مساعده الذى أصلحه) .. سأعطيك من النبيذ والفضة والزيت مايكفى لطعامك وشرابك كل عام .

عمر – (فى دهشة يتساءل) نبيذ وفضة وزيت !

مريت – (تشير إليه برأسها كى يستمر فى الترديد) .

عمر – سأعطيك من النبيذ والفضة والزيت مايكفى لطعامك وشرابك كل عام .

صبحى – نبيذ !؟ (متحسساً سخمت) تشربين نبيذ ياسخمت .. وتأكلين فضة وزيتاً .. (صائحاً كأنه اكتشف غلطة) تقصد فولا وزيتاً ياسيدنا .

بوتو – (فى دهشة) ماذا ياسيدى ؟

صبحى – تقصد .. فول .. وزيت .

بوتو – (فى إصرار) فضة وزيت .

صبحى – كيف تأكل الفضة والزيت .. أنا لا أوافق إلا على فول وزيت ، ويمكن إضافة الليمون .. يكون أطعم .

بوتو – (فى إصرار) فضة وزيت .

صبحى – ولكن ..

مصطفى – (يهزه بمرفقه) ياصبحى .

صبحى – فضة .. وزيت .. ماذا تفعل بالفضة والزيت ؟

عمر – تشترى بالفضة فول .. وتأكله بالزيت .

صبحى – آه .. فهمت .. (لبوتو) لماذا لاتفهمنى هذا ؟

بوتو – (يهز رأسه فى أسف ويستمر فى قراءة العقد) ستضمنين طعامك وشرابك الذى سأجريه لك شهرياً وسنوياً وسأعطيه إليك أينما أردت .

عمر – ستضمنين طعامك وشرابك الذى سأجريه عليك شهرياً وسنوياً وسأعطيه إليك أينما أردت .

بوتو – وإذا طردتك أعطيتك خمسين قطعة من الفضة ، وإذا اتخذت لك ضرة أعطيتك مائة قطعة من الفضة .

عمر – وإذا طردتك أعطيتك خمسين قطعة من الفضة .. وإذا اتخذت لك ضرة أعطيتك مائة قطعة من الفضة .

(بوتو يكمل إجراءات الزواج)

صبحى - (متحسساً) سخمت يحسب الحسبة فى بطء) الطرد بخمسين والضرة بمائة .. طبعاً أطردك أرخص .. ثم أتزوج من جديد .. لاداعى أبداً لمسألة الضرة .

مصطفى - ياغبى .. إن لها ضرة جاهزة .. عليك أن تدفع المائة .. بمجرد الزواج .

صبحي - غير معقول .. (يتحسس سخمت) مائة .. كثيرة .

سخمت - كثيرة .. ماذا تعنى ؟

صبحى - كثير .. كل شىء فيك كثير .. لحمك .. وشحمك .

سخمت - كأنك أنت القليل .. وأنت تبدو كالعجل .. يا سيدى .

صبحى - (غاضباً) عجل ؟ !

مصطفى - لا تغضب هكذا .. أنت لاتعرف قيمة العجل عندهم .. إنه من بين الآلهة .

صبحى - (يعاود تحسيسها) مائة .. لا .. يفتح الله .

مصطفى - عدلت .

صبحى - ليس بالضبط .. سأعاملها ككبير الكهان .. أمنحها البركات .. مجاناً .. (لسخمت) تعالى يا سخامة البرك .. لاداعى لمسألة الزواج هذه . سنمنحك البركات .. فقط .. بركاتك ياست سخمت .

(بوتو مستمر فى بقية إجراءات الزواج .. ويتمتم بعض أقوال غير مفهومة ويلوح بيديه كأنه يطرد الشياطين .. ثم يعطى العقد لبعض الحاضرين لإمضائه كشهود ومن بينهم صبحى ومصطفى) .

(بوتو يناول عقد الزواج لعمر ويربت كتفه) .

بوتو — (لمريت) تناولى عقد الزواج من يد زوجك كى يعمل بكل كلمة فيه .. إنه موافق على ذلك .

(الموسيقى تتعالى والراقصات يرقصن على شاطىء البحيرة خارج الشرفة وأكواب النبيذ تقدم للحاضرين) .

نفرو — (لعمر) أشعر أنى قريرة العين .. لأن ابنتى سيرعاها من يحبها .. كن لها .. كما أكون أنا .. وكما يكون أبوها .

عمر — سأكون لها كل شىء .. فى كل مكان .. وفى كل زمان .

مريت — (مؤكدة) فى كل زمان ؟

عمر — أجل يامريت .. أنت تعلمين .. أن الزمن لم يكن أبداً بالنسبة لنا مشكلة .

مريت — (تسير معه لتقف بجوار الشرفة بعد أن يأخذ الحاضرون فى الخروج إلى الحديقة وينهمكون فى الطعام والشراب والرقص . ويختفى فرعون وزوجته داخل القصر) لن تضيق بزمنى .

عمر — مادمت فيه ، فلن أضيق به .

مريت — أتحتمل أن يسلب منك حضارة كل هذه القرون .. كل تجربة الإنسان طوال تلك السنين . كل نتاج ذهنه .. وجهده .. تتنازل عنه بمثل هذه السهولة !

عمر — كل تجاربه .. وجهوده ، وإنتاجه .. قد بذله من أجل أن يشعر بما أحس به بجوارك . أن يشعر بحلاوة الحياة ، بنعمة الاستقرار ، والراحة .. لكي يوفر لنفسه السعادة والطمأنينة والأمن .

مريت – هل .. وفرة ؟

عمر – (يتنهد) لاأعلم يا مريت ، لاأعلم .. بعد كل الذى فعله الإنسان من معجزات .. بعد كل هذه الأعاجيب التى صنعها منذ البخار إلى الذرة .. بعد كل وسائل الراحة التى ابتكرها هل استراح ؟ . هل حصل على قدر أكبر مما تحصلون عليه أنتم ؟

مريت – (فى لهفة) هل حصل ؟

عمر – أشك يامريت .

عمر – كل ما يحصل عليه فى الحياة .. يحدده تركيبه البشرى ، وتركيبه يامريت لم يتغير .. تركيبه الجسمانى والعاطفى ، والذهنى ، نفس الانفعالات ونفس المشاعر ، ونفس الآلام ، والمتاعب .. لم يستطع برغم كل ما ابتكر أن يزيد من قدرة معدته على استيعاب المزيد من الطعام .. لكى يستمتع بالمزيد مما ابتكر من أطعمة .. لم يستطع أن يمنح لنفسه قدرة على الاستمتاع بالجنس أكثر مما لديكم من قدرة .. لم يستطع أن يغير كثيراً .. أو حتى قليلاً من تركيبه البشرى .. نفس النسيج الواهن والخلايا المستهلكة التى تدمرها جرثومة وتحطمها لفحة هواء وتمضغها الأيام حتى تتآكل مع الزمن . لم يستطع أن يخفف من أحقاده . من مطامعه .. من أنانيته . لم يستطع أن يلغى انفعال الحب أو الغيرة .. أو الحسد ، وبات كل ما طوره خارج نفسه ، لا يجد مقابلا له داخل نفسه ، وأصبح من أجل ذلك محدود القيمة .. ما قيمة أن أبدل لك كوب العسل .. بحراً .. إذا كانت قدرتك لا تحتمل أكثر من الكوب . إن الفارق بين اليد الخالية ، واليد التى تحمل السكين .. واليد التى تحمل المدفع .. أو القنبلة الذرية – إذا كان الانفعال الذى يحركها هو الشر والحقد – لن يكون أكثر من الفارق بين الخنق والذبح ، وغيرها من وسائل الفتك .. لم نسترح يامريت ،

لأن شيئاً في تركيبنا .. يأبى علينا الراحة . عندما أفكر في السنين الطوال التي بيننا ، وأسأل نفسي ماذا فعلت بنا .. لا أستطيع أن أقنع نفسي بأنها فعلت شيئاً عميقاً .. لم تمنحنا الشيء الحقيقي الذي نريده .. بل لعلها .. سلبت منه بعضه .

مريت -- ما هذا الشيء الذي تقصده ؟

عمر -- نعمة الراحة .. نعمة الاكتفاء .. نعمة الأمان من الخوف .. الخوف من أنفسنا .. وممن حولنا ، ومما حوانا .. بكل هذه المخترعات ، والمبتكرات التي عملها الإنسان من أجل الإنسان ، لم يحاول واحد من أصحابها أن يسأل نفسه .. ماذا يريد الإنسان ، وكيف يناله ؟

مريت -- وهل سألت أنت نفسك ؟

عمر -- ماذا يريد .. وكيف ؟ .. ماذا يريد .. هي المشكلة . إنها مشكلة معقدة .. لأن تركيبه معقد .. لو أن مايريده الإنسان في بساطة ما يريده الحيوان .. أكل وجنس ونوم لأصبح حلها واضحاً ، وأضحى عليه أن يعمل لتدبير احتياجاته الواضحة ، ولكنه يبدأ بهذا .. ثم تنمو مطالبه وتتعقد وتتشابك وتتعارض ، ويحركها في اتجاهاتها المختلفة الخليط العجيب الذي يتركب منه الإنسان .. خليط الحنان والقسوة والحب والبغض والألفة والنفور والخير والشر .. والإيمان والكفر .. والاستسلام والثورة ، والشجاعة والجبن . والغباء والذكاء ، والبله والمكر.. هذا الخليط العجيب الذي يوجد كله في المخلوق الواحد .

مريت -- كأني بك تحس يأساً من الزمن أن يفعل بالإنسان شيئاً ما .

عمر -- بعد كل هذا الزمن الذي بيننا .. عندما أشعر في بعض الليالي أن خير ما أستطيع الحصول عليه هو إغفاءة في الفراش .. عقب يوم شاق ..

عندما أحس أن أمتع ما يمكن أن يمنحنى زمنى هو إغماضة عين .. لا أظننى آمل فى الزمن أن يفعل جديداً فى الإنسان .. أو فى الإنسان أن يأتى لنفسه بجديد على الزمن .

مريت – أتقول هذا .. بعد كل ما رأيت فى زمنك من معجزات ؟

عمر – معجزات .. يعادل خيرها شرها .. لم ترى أنت .. كيف استعمل الإنسان معجزاته .. فى تأكيد كل مالا يتمناه .. وتحقيق كل مالا يصبو إليه .. تأكيد القلق والخوف .. وتحقيق الدمار .. كل ما يصنعه من معجزات ، يسلمه ببساطة إلى يد الفتك .. اليد التى تحركها الأحقاد ، ويتساوى لدينا أن تكون فارغة لتخنق .. أو محملة بقنبلة ذرية لتفتك .. ولعلها تكون السخرية .. إذا قلت لك إن أقصى مايفعله الإنسان هو تطوير وسائل الفتك لكى تلائم نمو البشرية وتكون أقدر على الفتك بها .

مريت – ووسائل الراحة .. والاستمتاع ؟

عمر – لست أدرى .. ماذا منحتنا حقيقة .. أو لعل طبيعتنا الإنسانية التى يفقدها تعود الشيء متعته .. هى التى أنستنا قيمتها .. ولكن الشيء الذى لايمكن إنكاره أن باطننا وأحاسيسنا النابعة منه وانفعالاتنا المتبادلة وعلاقة الإنسان بالإنسان هى السبب الحقيقى لسعادتنا أو شقائنا .

مريت – (تتنهد) حديثك يطمئننى على مصيرنا معاً .. وإن كان لايطمئن على مصير الإنسان فى الدنيا .

عمر – لايقلقك الإنسان .. فلست أظن أن هذا الذى قلته لك إلا ملائماً لتركيبه وطبيعته .. حياته صراع .. كما قلت لك .. مع نفسه .. ومع من حوله .. ومع ماحوله .. يبدأ منذ أن يولد ولايفرغ حتى يموت .

(مصطفى مقبلا عليهما)

مصطفى – (ينظر فى ساعته خلسة) أظن الوقت قد حان .

مريت – حان لأى شىء ؟

مصطفى – للعودة .

مريت – العودة إلى أين ؟

مصطفى – موعد الوردية .. لم يبق عليه سوى ..

عمر – (مقاطعاً) وردية .. أى وردية ؟

مصطفى – وردية العمل .

عمر – أى عمل ؟

مصطفى – العمل فى الموقع .

عمر – أى موقع ؟

مصطفى – موقع السد .

عمر – أتعنى .. أنك تنوى العودة ؟

مصطفى – طبعاً .

عمر – كيف ؟ لقد انتهينا من هناك .. لقد أصبحنا هنا ، ارتبطنا بهذا الزمن .

مصطفى – أنا .. أنا .. لم أرتبط .. ليس هناك مايربطنى .

عمر – ولكنك قلت إنك آت معى .

مصطفى – قلت إنى آت للاطمئنان عليك .

(تفرو تنادى مريت فتذهب إليها)

عمر – ولكن .. كيف تتركنى وحدى ؟

مصطفى – وحدك !؟ أنت عريس .. والمفروض أن تبقى مع زوجتك وأهل زوجتك .. ماذا يحشرنى أنا وسطكم ؟

عمر – ولكنك أنت قائد جيش .

مصطفى – (يقهقه) أصدقت أنى قائد جيشك ؟

عمر – أنا أتحدث بواقعى .. أنا أعيش فى زمنى الجديد .. أعنى فى زمنى الغابر .

مصطفى – ولكنى لست كذلك .. أنا المهندس مصطفى عبد الرازق فى شركة المقاولين العرب .. أعمل فى السد العالى بالجمهورية العربية المتحدة فى عام ١٩٦٣ ، ولست بالتأكيد أوزيرو قائد جيش الشمال .

عمر – أنت إذن ستخذلنى ؟

مصطفى – كيف أخذلك ؟ إنى أتركك فى كل هذا المجد والسعادة .. تتزوج ابنة فرعون .. فتاة شهية كالتفاحة الناضجة .. وتتهمنى بأنى أخذلك . (منادياً لصبحى) ياصبحى (مستدركا) ياسمنكرع (يقبل صبحى وقد بدا عليه السكر)

(عمر يتجه إلى مريت ويتشاغل معها)

صبحى – ماذا تريد ياأوزيرو ؟

مصطفى – نهارك أسود .. لقد سكرت .

صبحى – أنا مبسوط فقط ياأوزيرو .. الست سخمت ممتعة جداً .. قرصتها في ساقها .. كأنى أغرس أصابعى فى طبق بالوظة .. تعال خذ لك قرصة .

مصطفى – اسمع ياصبحى .. كفى عبثاً .

صبحى – لست صبحى .. أنا سمنكرع كبير الكهان .

مصطفى – (يهزه من ذراعه) .. اسمع .. هنا .. أنت صبحى السائق .

صبحى – أنا سمنكرع .

مصطفى – سمنكرع .. سمنكرع .. هيا بنا ياسمنكرع .

صبحى – إلى أين ؟

مصطفى – إلى الموقع .

صبحى – موقع !؟

مصطفى – أجل موعد الوردية قد حل .

صبحى – أنا سمنكرع .. أنا ذاهب إلى سخمت .. لابد أن أمنحها البركات . (هامساً) بينى وبينك ، ستبيت معى .. فلقد أفهمتها أن البركات تحتاج لوقت طويل .

مصطفى – اسمع ياصبحى .. أفق لنفسك .. سنعود الآن إلى الموقع .

صبحى – لا .. لا .. أنا لن أعود .. لن أترك سخمت ، وأذهب إلى نبوية أبداً .

مصطفى – إذن اذهب بى .. وعد .. أوصلنى فقط .. مسافة الطريق .

صبحى – وأعود ثانية ؟

مصطفى - أجل .

صبحى - ومن يضمن لى ؟

مصطفى - أعدك .

صبحى - (متردداً) تترك كل هذا العز .. والشرب والأكل .

مصطفى - نصف ساعة فقط .. هيا .

(عمر عائداً)

مصطفى - (لعمر) عن إذنك .. تصبح على خير .

عمر - أمصر على العودة ؟

مصطفى - طبعاً .

عمر - هكذا ببساطة .

مصطفى - ماذا تعنى ببساطة ؟

عمر - تذهب وكأننا سنلتقى فى الغد !

مصطفى - فعلا .

عمر - كيف ؟

مصطفى - لعل مركزك الجديد ، فى أسرتك الفرعونية الجديدة لايجعلك تترفع علىّ .

عمر - ليست مسألة ترفع .

مصطفى - مسألة ماذا إذن ؟

عمر – هل ستضمن أننا سنستطيع اللقاء .

مصطفى – ولِمَ لا ؟!

عمر – لست أدرى .. هل هذا الفارق الزمنى القائم بيننا .. هذا العصر الذى سأندمج فيه .

مصطفى – لاتكن سخيفاً .. سآتى لأراك هنا .

عمر – من يدرى .

(يبدو حور وخنوم متسللين وراء عمود وينصتان إلى حديثهما) .

مصطفى – يدرى ماذا ؟

عمر – هل يمكن أن تجدنى ؟

مصطفى – ولِمَ لا ؟!

عمر – أنت تعرف أن هذه الأرض ستغرق كلها .

مصطفى – (فى شرود) أجل .

عمر – وستغمر المياه كل ما عليها .

مصطفى – أجل .. أجل .

عمر – وكل من عليها .. بما فيهم أنا .

مصطفى – أنت ؟

عمر – أجل أنا .. ألست واحداً من هؤلاء الذين يعيشون هنا ؟

مصطفى – ولكن .. لماذا لاترحلون مع الباقين إلى كوم امبو ؟

عمر – كيف ؟ الأسرة الفرعونية ترحل إلى كرم امبو ؟

مصطفى – ماذا ستفعل إذن ؟!

سنبقى فى المعبد حتى نغرق .

مصطفى – غير معقول .

عمر – بل معقول .. أنت تعرف كيف أكدت لنا مريت أنهم سيستقرون فى المعبد .. وسنذهب إلى الجنه السماوية .

مصطفى – وأنت ؟

عمر – معهم .. إلى حقل القربان بين الآلهة الذين ذهبوا إلى أرواحهم .

مصطفى – مستحيل .. غير معقول ، هذا كلام فارغ .

عمر – وستجدنى فى المعبد عندما يرفع . محنطاً .. وملفوفاً فى الشاش ، فى أحد التوابيت .. بعد أن تغرق الأرض .

(حور وخنوم ينصتان فى اهتمام بعد أن أحضرا بقية الحاشية ومن بينهم موس وبوتو) .

حور – أرأيتم بعيونكم .. أسمعتم بآذانكم .. المؤامرة الدنيئة .. التى توشك أن تودى بنا وتغرق أراضينا !

خنوم – كنت أشعر بهذا .

موس – عجب .. لم يخطر ببالى أن تفعل مريت بنا هذا .

بوتو – لاشك أنهم غرروا بها .

حور – على أية حال لابد أن نأخذ إجراء سريعاً .. لابد من القبض عليهم .

موس – لنستأذن أولا من مولانا رع .

حور – أنا مسئول .. سآمر الحرّاس بالقبض عليهما فوراً .. وإيداعهما السجن .

خنوم – سيحاكمون أمام الجميع .. وسأوقع بهم أشد الجزاء .

حور – أنت قاضى القضاة .. وقد سمعت بنفسك اعترافهم .

(حور صائحاً بالحرّاس)

حور – أيها الحرّاس .. اقبضوا على هؤلاء .. أودعوهم السجن .

(الحرّاس يقفون مشدوهين برهة .. حور يصيح بهم)

حور – أنا آمركم .

(الحرّاس يحيطون بالثلاثة ويمسكون بهم)

عمر – ماهذا ؟

حور – لاداعى للإنكار .. لقد سمعنا اعترافكم .. سمعنا كلنا تآمركم على إغراق البلاد .

(مريت مقبلة على صوت الضجيج)

مريت – ماذا .. ماذا حدث ؟

حور – اصمتى أنت .. سيأتى دورك بعد .

مريت – ماهذا الذى تقول ؟

حور – اسألى موس .. واسألى خنوم وبوتو كيف اعترف الأشرار بعزمهم على إغراق البلد .

(يهزون كلهم رءوسهم بالموافقة) .

مريت - سأذهب إلى أبى .. سأخبره بهذه الوقيعة .. والدس الدنىء .

حور - سيعرف أبوك كل شىء .

حور - (للحرّاس) إلى السجن .

مصطفى - (وهو يجر إلى الخارج) موعد الوردية ياناس .. ياصبحى ، مالى أنا ولكل هذا ؟

صبحى - سخمت .. سخامة البرك .. سآتى إليك .. سأمنحك البركات .. أنا عائد إليك .. لاتخافى .. سأعود حتى لو طلقت نبوية .

عمر - غير معقول .. السجن .. فى هذا الزمن .. لماذا ؟ . نحن لم نغرق أحداً .. الأهالى هاجروا .. والمعابد سترفع .. لقد كنا حريصين على ألا نضيع شيئاً .. حتى مع كل هذا الزمن الذى مر .

حور - قل هذا فى المحاكمة .. سترى أى مصير ينتظركم .

(يسدل الستار)

الفصل الخامس

متى وكيف وأين ؟

(المنظر : حجرة فى السجن .. عمر ومصطفى يجلسان على الأرض فى حالة يأس ، تبدو فى المواجهة بضع درجات تؤدى إلى باب كبير به فتحة يطل منها حربو حارس السجن الذى يتحدث مع صبحى الجالس على الدرج بجوار الباب .. على اليسار فى أعلى الجدار تبدو نافذة مستطيلة ضيقة تطل على النيل) .

صبحى – (صائحاً) .. ياسيدنا .. ياباشسجان .

حربو – وبعد .. ماهذا الصياح الذى لا ينتهى .. ماذا تريد ؟

صبحى – سيجارة .. سيجارة يا حربو .. سيجارة .. ياحربايه الكلب .

حربو – رجل كبير وقبيح .. شايب .. وعايب .

صبحى – لاتؤاخذنى .. حاجة الكيف تردى .. حقك علىّ .. هات سيجارة .

حربو – قلت لك مائة مرة .. لا أعرف ماهى السيجارة .

صبحى – أهذا كلام !! أأنتم .. ناس !! أهذا زمن !! سيجارة .. ياأستاذ .. دخان .. (يرفع يده إلى فمه وينفخ كأنه يدخن) دخان .

حربو – لا .. لا أستطيع أن أسمح بحريق .. ليس من عملى أن أنفذ حكم الإعدام .. أنا سجان فقط .

صبحى – إعدام .. يانهار أسود .

حربو – طبعاً إعدام .. لقد أصدر رئيس القضاء خنوم حكمه على كبيركم بالإعدام .

صبحى – حكم على كبيرنا بالإعدام ، سامع ياباشمهندس .. هذه نتيجة اللعب مع المجانين .. رحنا فى شربه ماء .. تصور هؤلاء المخابيل يفعلونها ويعدموننا .

حربو – ليس كلكم .. كبيركم فقط .

صبحى – وأنا ؟

حربو – سيقطعون أنفك .

صبحى – (يمسك بأنفه فى خوف) ياحفيظ .

مصطفى – (يتحسس أنفه فى صمت)

حربو – لا .. أنت .. سيقطعون أذنيك .

صبحى - هذا ظلم .. ظلم .

حربو - هذا حكم المحكمة .

صبحى - محكمة .. محكمة .. هات سيجارة .

حربو - قلت لك نحن لا نعرف هذه السيجارة التى تتحدث عنها .. والتى قلبت دماغنا عليها .. بصراخك هذا .

صبحى - ماذا تعرفون إذن .. ألديكم .. جوزة ؟

حربو - لم نسمع عنها .

صبحى - شيشة ؟

حربو - ولا هذه .

صبحى - ماذا لديكم إذن غير خبز السن الذى تطحنونه على الرحاية .. قل ماذا لديكم فى هذا الزمن النحس .. الذى ساقنا إليه الحظ العكر ؟

مصطفى - (يتمتم فى أسى) وياليتنا عجبنا .. رضينا بالهم .. والهم لم يرض بنا .. يعدموننا .. ويقطعون آذاننا وأنوفنا .

عمر - (فى يأس) وحتى كلمة وداع .. حرمنا منها .. ليتنى لم أذعن لها ، وما عدت معها .. ليتنى أبقيتها فى زمنى .. كان أقصى ما يصيبها .. خوف يسير .. بعده تتعوّد على كل هذه الأشياء التى تفزعها .. مهما حدث لها هناك .. فى عالمنا الذى ضاقت به وفزعت منه ، لم يكن يتعدى الهزؤ بها والسخرية منها .

مصطفى - لم يكن يصل أبداً .. إلى حد السجن والإعدام .

صبحى – وإعدام حاف .. بلا عقب سيجارة .. الذى أعلمه عندنا .. إنهم يسألون المحكوم عليه بالإعدام .. عما يشتهى قبل أن ينفذ فيه الحكم .

حربو – (معترضاً) قلت لك إنك غير محكوم عليك بالإعدام .. أنفك فقط هو الذى سيقطع .

صبحى – فقط .. (يهز رأسه فى دهشة) ليكن .. هذا الرجل المسكين الذى ستعدمونه .. هات له سيجارة .

حربو – (فى ملل) .. مائة مرة قلت لك .. ليس لدينا سجائر .

صبحى – لاسجائر .. ولا غير سجائر .. ليس لديكم أى شىء فى هذا الزمن النحس ؟

حربو – وماذا لديكم أنتم .. لديكم معابد كهذه ؟ .

صبحى – طبعاً .. بمآذن وقباب .

حربو – ومقابر كهذه ؟ .

صبحى – شىء يقضى .. يلم عظامنا ورممنا .

حربو – وتقدم لكم كل هذه القرابين ؟

صبحى – شىء على ما قسم .. فطير .. وشريك .. وبلح .

حربو – فقط ؟

صبحى – طبعاً .. ماذا تريد .. ذبائح ؟

حربو – ونبيذ وعطر .

صبحى – لا .. لا .. أمواتنا لا تحب الرمرمة .. ولا العياقة ولا العربدة .

حربو – ماذا لديكم إذن فى زمنكم الذى تعايرنا به ؟

صبحى – لدينا .. لدينا .. عربيات . قطارات .. طائرات .

حربو – لماذا .. كل هذا؟ .

صبحى – للركوب .. للتنقل .. لكى لا نتعب فى المواصلات .

حربو – لابد أنكم مستريحون جداً ؟

صبحى – ممستريحون ؟ .. (فى تردد) مستريحون فى المواصلات ؟ (محدثاً زميليه) أنحن مستريحون ياباشمهندس فى المواصلات ؟ وأزمة المواصلات .. ويوم الحشر فى الأوتوبيسات ، والعذاب الذى نلقاه من المحصلين والسائقين ، ماذا أقول له ؟

عمر – قل له مستريحون طبعاً .. لا داعى للفضائح .

صبحى – مستريحون طبعاً .. ليس لدينا أزمة مواصلات .. مثل التى عندكم .

حربو – من قال إن عندنا أزمة مواصلات ؟

صبحى – لديكم أتوبيسات ؟

حربو – لا .

صبحى – ولا عربات ؟

حربو – ولا ترام ؟

حربو – لا .

صبحى – ولا تاكسيات ؟

حربو – لا .. لا .. ليس لدينا شيء من كل هذا الذى تقوله .

صبحى – وليس لديكم أزمة مواصلات . ؟

حربو – قلت لك لا .

صبحى – (سائلا زميليه فى دهشة) الله .. لماذا إذن اخترعنا نحن كل هذه المواصلات ؟

مصطفى – (ضاحكا لنفسه) لكى نحدث بها أزمة مواصلات .. (لصبحى) اسمع .. قل له لكى نقرب المسافات البعيدة ؟

حربو – ولماذا تقرّبون المسافات البعيدة ؟

عمر – لكى نوفر الوقت .

حربو – ولماذا توفرون الوقت ؟

صبحى – (فى حيرة) نوفر الوقت .. نوفر الوقت .. (لعمر) أجل ياباشمهندس .. لماذا نوفر الوقت ؟

عمر – لكى .. لكى .. تذهب إلى السينما .. وتسمع الراديو وتشاهد التليفزيون .

حربو – ما كل هذا ؟

مصطفى – اختراعات .. تميز عصرنا .

صبحى – ونلعب طاولة .. وكوتشينة .

حربو – لماذا تفعلون كل هذا ؟

مصطفى – لكى.. لكى (فى حيرة لعمر).. أيمكن أن أقول له لكى نقتل الوقت

عمر – غير معقول .. سيقول عن زمننا زمن مجانين .. نصف اختراعاتنا لقتل الوقت الذى نوفره بالنصف الآخر .. لا .. لا تضحك هذا اللئيم علينا .. (لحربو) لأجل أن نتثقف .

حربو – (ببساطة) ولماذا تتثقفون ؟

عمر – (لمصطفى) هذا الغبى لن ينتهى من أسئلته .. إنه يتسلى بنا .. دعك منه .

حربو – (يعاد السؤال) لماذا تتثقفون ؟

مصطفى – لكى .. لكى .. نزيل غشاوة الجهل عن نفوسنا .. لكى نعرف المزيد .. من عالمنا .. الذى نعيش فيه .. لنطوره إلى أفضل .

حربو – لكى تقوموا بالمزيد من الاختراعات .. التى تسبب لكم المزيد من المتاعب .. أو تقتل لكم المزيد من الوقت الذى توفرونه بها .. أو المزيد من النسل الذى تنجبونه .. قل .. ماذا يميز زمنكم .. عن زمننا الذى ترمونه بالنحس ؟

مصطفى – ماذا أقول له .. هذا الغبى الذى يحاول أن يقارن زماننا بزمانه .

عمر – قل له إننا سنصعد إلى القمر .

حربو – قمر !؟ أنتم تصعدون إلى القمر .. ماذا ستفعلون هناك ؟

صبحى – أجل ياباشمهندس .. حقيقة .. ماذا سنفعل هناك ؟

عمر – سنكتشفه .

حربو – وبعد ؟

عمر – لننعم بخيراته .

حربو – لاأظن الأرض قد ضاقت بكم .

مصطفى – بدأت تضيق .

حربو – إذن ستنتقلون إليه ؟

عمر – أجل .

حربو – بما أنتم عليه .

عمر – ماذا تعنى ؟

حربو – أعنى .. بما أنتم عليه فى الأرض .

مصطفى – طبعاً .

حربو – بكل ما تحملونه فى نفوسكم من متناقضات .

مصطفى – (لعمر) الظاهر أنه سيقل أدبه .

حربو – (مستمراً) بحروبكم ومطامعكم .. ورذائلكم .. وذنوبكم .. بكل ما يحمله الإنسان من نقائص .

عمر – وما يحمله من مزايا .. بحبنا وتكاتفنا .. وخيرنا .. وصبرنا .. فى التعمير والبناء .. والعدالة والمساواة .

حربو – بحصيلة كل هذا الذى فى أرضكم .. والذى جعل الأرض .. بكم .. ما هى عليها .

مصطفى – أجل .

حربو – باختصار .. ستجعلون منه أرضاً أخرى .

صبحى – (بفخر) طبعاً .

حربو – (بمنتهى الأسى) عليه العوض .

مصطفى – فعلا .. عليه العوض .. (لعمر) أترى مشكلة البشر هى أن الأرض قد ضاقت بهم فعلا ؟

عمر – الحقيقة .. لا .. بإمكانات البشر الحالية .. لم تضق بهم الأرض .. وإنما يهدر خيرها من البعض ..ويعيش البعض الآخر محروماً .. ميزانيات التسليح التى تهدر فى الأرض .. يمكن أن تقضى على كل ما بها من حرمان وعوز .

مصطفى – وبإمكانات البشر المقبلة .. يمكن أن تضاعف طاقات الأرض فى تهيئة الرخاء

عمر – المشكلة إذن لم تصبح بعد مشكلة طاقة الأرض .. أو طاقة البشر فى استغلال الأرض .. وإنما هى مشكلة سوء تدبير أمر البشرية كوحدة نتيجة لسوء التفكير ، وسوء الخلق .

مصطفى – أجل .. لو دبر البشر أمرهم كوحدة واحدة .. بحسن فهم وتعاون .. فإن خير الأرض يكفى البشر جميعاً ..ولتوافرت للبشر جميعاً سبل من الرخاء .. تقضى على الصراع الذى ينشب بينهم من أجل أن يوفر كل منهم الرخاء لنفسه ويحرم الآخرين .

عمر – لو فعل الإنسان هذا .. لفرغ من الصراع الداخلى .. وتفرغ لصراع أعداء البشر فى الأرض .. من الجرثومة إلى الزلزال .

مصطفى – واستطاع أن يحصل على المزيد من الرخاء فى أرضه .. والمزيد من الخير فى عالمه .

عمر – والمزيد من الفضل فى نفسه .. لطوّر نفسه إلى مخلوق أفضل .. فى كل شىء .

(حربو يهز رأسه فى دهشة ويسأل صبحى) .

حربو – ماذا يقول صاحباك ؟

صبحى – كلام فارغ .. مما يكتبونه فى الكتب .. أشياء تقال ولاتحدث .. أشياء لاتتحقق كما قال الباشمهندس إلا بحسن الفهم بين البشر وحسن الخلق ، ومن أين لنا هذا ياحربو ؟

حربو – من يدرى .. قد يقتنع البعض بهذا .. ويدعون إليه ويدبرن أمر البشرية .

صبحى – (مقاطعاً) تدبير أمر البشرية ليس مهماً الآن ياحربو .. المهم تدبير سيجارة . سيجارة ياحربو ؟

(يسمع ضجيج فى الخارج) .

حربو – ماعلينا .. يبدو أنهم قادمون لتنفيذ الحكم (لعمر) طبعاً .. أنت لا تعرف كيف تلقى آلهتنا ؟

عمر – أعرف كيف ألقى إلهى .. أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

حربو – اسمع .. نصيحتى .. عندما تذهب بعد الموت إلى قاعة الحساب ستجد القاضى أوزيروس يساعده الاثنان والأربعون إلها فى محاسبة المتوفى وهؤلاء شياطين مخيفة يحمل كل منهم اسماً بشعاً مثل آكل الظل الذى يخرج من الكهف وكاسر العظام الذى يخرج من أهناسيا .

صبحى – ياحفيظ .

حربو – (مستمراً) وتبرىء نفسك من كل الذنوب .. التى ترتكب فى زمننا هذا .

عمر – ولكنى ارتكبتها فى زمنى .

حربو – اسمع لما أقوله ولا تضيع الوقت .. قل لهم إنى لم أقتل ، إنى لم أسرق ، ولم تعظم ثروتى إلا من ملكى الخاص ، إنى لم اغتصب طعاماً ، إنى لم أثر الخوف ، ولم أذك الشجار .

عمر – هذه كلها ذنوب زماننا .

حربو – إنى لم أطفف الكيل ، ولم أطمع ، ولم أغتصب ، ولم أسب ، ولم أتكبر .. إنى لم أرتكب الفحشاء .

عمر – لا جديد هنالك فى الذنوب ؟

حربو – إنى لم أكذب .

عمر – هذه أكبر كذبة .

حربو – تلك ذنوب زماننا التى عليك أن تبرىء نفسك منها أمام الآلهة ... لقد قلتها لك حتى تتذكرها جيداً .. أتريد أن أعيدها عليك ؟

عمر – لا داعى .. إنها بعينها ذنوب عصرنا .

حربو – عجيبة !! ألم يتغير الإنسان فى زمنكم ؟ شىء ما كان لابد أن يحدث له ؟

مصطفى – كيف ؟

حربو — بعد كل هذا الزمن ، وبعد أن التصقت به تلك الذنوب المعادة المكرورة .. كان المفروض أن تصبح جزءأمنه .. من طبيعته .

عمر — الذنوب تصبح جزءاً من طبيعته .. معنى هذا أنها لن تصبح ذنوباً .

حربو — أجل .. عندما يلتهم الأسد طعامه .. أتحسب عليه جريمة ؟

مصطفى — لا .

حربو — عندما يمكر ابن آوى ... أيصبح مذنباً

عمر — لا ..

حربو — أيعتبر الديك وسط الدجاج زانياً ؟

صبحى — (مؤكداً فى حماسة) طبعاً لا .

حربو — لماذا تعتبر مساوىء الإنسان النابعة من طبيعته .. الملتصقة به على مدى الزمن .. ذنوباً

عمر — لا ياحربو .. الذنوب ستظل ذنوباً .. مادامت تنتج أذى .. والإنسان ملزم أن يمنع الآخرين من الأذى .. الحيوان يرد الأذى بالأذى ، ولكن الإنسان يرد الأذى بتحريم إتيانه ، بتحديد الأعمال المؤذية .. فى ذنوب لا يسمح بارتكابها ويعاقب من يمارسها .

حربو — وهل استطاع العقاب منعها ؟

مصطفى — لا أظن .

حربو — لماذا ؟

مصطفى — لأنها .. لأنها نابعة من طبيعته .. من تركيبه .

عمر – هذه هى المشكلة .. إذا كانت ذنوب الإنسان لا يمكن السماح بها .. لأنها أعمال مؤذية .. ولا يمكن الامتناع منها لأنها نابعة من طبيعته .. فقد كان عليه طوال تلك السنين ، أن يطور طبيعته .

حوير – كيف ؟.

عمر – متاعب الإنسان .. لن يحلها تطوير الأشياء الخارجة عنه .. بقدر مايحلها تطوير الأشياء الداخلة فيه .

حربو – (يهز رأسه فى غير فهم) .

صبحى – أنا أيضاً لم أفهم !

عمر – إن كل ما استطاع الإنسان أن يصل إليه من اختراعات لم يحقق له فعلا ما يمنحه .. شيئاً أكثر مما حصل عليه الإنسان فى الزمن الغابر .. إننا نتساوى وإياهم فى المتاعب والآلام والقلق والخوف والمرض والعراك .. وحصيلة المتع لا تكاد تتفاوت كثيراً برغم كل ما حققه الإنسان بعد السنين الطوال مما ظنه مسببات للمتع .

عمر – إن الإنسان برغم كل ما طوره مما حوله .. لم يطور شيئاً من نفسه .. الأخ حربو الواقف بباب السجن .. ينكر أمام آلهته هذه الذنوب التى يرتكبها أى إنسان الآن .

حربو – أظنك أكدت هذا ؟

عمر – وهى وكل متاعب الإنسان .. لاشك ناتجة من طبيعته .. من طريقة تركيبه .. من خامة خلقه وعاطفته وذهنه ، وجسده .

مصطفى – أجل .

عمر – لماذا لا يوجه الإنسان إذن جهده .. لتطوير نفسه .. لتطوير الأجيال التالية له .

حربو – كيف .. أيمكن هذا ؟

عمر – لقد فعلها فى النبات والحيوان .. لقد أنتج من الحيوان سلالات أنضج .. بطرق علمية ، وطور النبات بطريقة .. لو تصورنا حدوثها فى الإنسان .. لأصبح القزم عملاقاً .. وأصبح المجرم قديساً .. ماحدث فى النبات من وفرة المحصول .. وجودة النوع جيلا بعد جيل .. لو أنه طُبق على الإنسان لرأينا منه عجباً .

صبحى – أجل .. أجل .. لم نكن فى الماضى نعرف البرتقال أبو صرة .. ولا العنب الجانكليز .. ولا المنجة الفونس .

مصطفى – هذه أصناف طورت بالتطعيم .. ولكن كيف يمكن أن نطور الإنسان ؟

صبحى – جهود يجب أن تبذل لتطوير بنيانه .. وتركيبه الذهنى .. والعصبى .. يجب ألا نكتفى بعلاجه وصد عادية الأمراض عنه .. ولكن يجب بذل أكبر جهد فى تطويره .. فى تحسينه .

مصطفى – أظن الجهود التى تبذل من أجل التربية والثقافة الاجتماعية والدينية هى التى يمكن أن تطوره ؟

عمر – لست أقصد التطوير من خارجه .. أقصد تطويراً عميقاً من داخله .. نحن لا نقنع شجرة النارنج أن تعطينا برتقالا ، ولكن نحولها لكى تعطى برتقالا .

مصطفى – هذه أشياء بالنسبة للنبات معقولة ، ولكن للإنسان تبدو غير معقولة .

عمر – أبعد كل الذى اخترعه من العجائب .. يبدو لنا .. تطوير جنسه غير معقول .. أينجح الإنسان فى خلق سلالات رائعة من الدجاج .. والبقر .. ولا ينجح فى خلق سلالات متطورة من الإنسان ؟

حريو – لست أعرف .. ماذا تعلمتم فى زمنكم .. (لصبحى) أيمكن هذا ؟

صبحى – يمكن أو لا يمكن .. ماذا يهمنا نحن ؟.. وماذا يمكن أن نفيد نحن من تحسين أجيال قادمة .. لكى تصبح أفضل جنساً .. إن تطوير الدجاج والبقر أفضل لنا كثيراً .

عمر – أترى تلك هى العلة .. فى أن الإنسان لا يركز جهوده فى هذا .. أتراه لا يبذل جهداً إلا فيما يحصل هو على ثمرته ؟

(تسمع الضجة مرة أخرى)

حريو – استعدوا .. يبدو أنهم قادمون فعلا هذه المرة .. عن إذنكم .

صبحى – (صائحاً) سيجارة ياناس .. سيجارة يازمن خرمان .

(يسمع صوت مريت فى الخارج ومعها سخمت)

مريت – أسرعى يا سخمت .

عمر – (يقفز من مكانه) مريت .. إنها قادمة .. كنت أتمنى أن أراها .

مصطفى – وما الفائدة .. إذا كان الحكم سينفذ بعد هنيهة ..(لنفسه) هذا غير معقول يجب أن نبلغ إخواننا هناك .. فى الضفة الأخرى .. فى زمننا .

مريت – (من الخارج) مساء الخير ياحريو .

حريو – سيدتى الأميرة .. مساء الخير .

مريت – أريد أن أرى مساجينك ياحريو .. أتفتح لى ؟

حريو – أوامر سيدى حور .. ألا أفتح لأحد .

مريت – حتى أنا ؟

حريو – أوامر سيدى حور .. حتى أنت .. أو على الأصح .. لاسيما أنت .. ولكن ...

مريت – لقد أتيت الليلة .. لأنى أعلم أنك هنا ياحريو .. انتظرت حتى نام الجميع .. وتسللت من حجرتى مع سخمت ، ولم أشك لحظة فى أنك ستفتح لى .. فأنا أعلم أنك طيب القلب ، نقى السريرة .

حريو – (متمتماً) وإنى لا أنكر الجميل ، ولا أنسى الفضل .

مريت – لست أنكر فضلا لى على أحد .

حريو – ولكن الناس كلهم يذكرون أفضالك عليهم ، وأنا بينهم .. لن أنسى ذلك اليوم الذى كنا ننقل فيه الحجارة إلى المعبد فى الهجير ولهب الشمس يلسع ظهورنا .. وقد أثقلت كواهلنا ، وجفت حلوقنا .. وجلست ألتقط أنفاسى .. وأنا أحس أنى أوشك أن أتهاوى عندما أحسست بيد رقيقة تربت ظهرى وتناولنى إناء الماء البارد ، ووجدتك ياسيدتى الأميرة تأمريننا بالعودة إلى بيوتنا وإلى حقولنا .

مريت – لم تكن هناك فائدة .. فيما فعلت .. فلقد أعادكم أبى إلى العمل فى اليوم التالى .. لم تكن المشكلة مشكلة مشقة العمل بقدر ما كانت مشكلة الهدف

الذى تعملون من أجله .. لقد رأيت هناك من يعمل أضعاف عملكم .. وكانوا يتسابقون إلى العمل بابتسامة على شفاههم وأغنية على ألسنتهم .

حربو – مهما كان الأمر ياسيدى ، فإنى على أتم استعداد لكل ما تطلبينه .

مريت – أتفتح لى يا حربو .. إنى أريد أن ألقى مساجينك .

حربو – (يفتح الباب) تفضلى ياسيدتى .

(تدخل مريت وراءها سخمت .. حربو يغلق الباب وراءهما) .

حربو – لاتتأخرى كثيراً ياسيدتى .

(عمر يندفع إليها ويمسك بيديها فى شغف) .

عمر – مريت .. كنت أخشى أن أحرم من كلمة وداع .

مريت – (ترفع يديه إلى شفتيها وقد انهمر الدمع من عينيها مبللا كفيه) كنت السبب فى كل ما حدث لك .. أنا الذى جررتك إلى هنا .. خطفتك من عالمك ، لألقى بك فى هذه الغياهب .. لأقذف بك آلاف السنين وراء عالمك المتحضر .

عمر – لم يقلقنى هذا قط .. وإنما أرقنى بعدك عنى .. أرقنى أن أفقدك .

مصطفى – تفقدها فقط .. إنك ستفقد حياتك .

صبحى – وسأفقد أنا أنفى .. لماذا ؟ .. ماذا فعل لهم أنفى ؟

مريت – أنا آسفة .. كم أحزننى أن أسبب لكم كل هذا .. ولكنى كنت واثقة أنه لن يمسكم ضرر وأنا على قيد الحياة .. إنى لم أذق طعم النوم حتى استطعت أن أدبر أمر إنقاذكم .

مصطفى – هل سيفرجون عنا ؟

مريت - لقد حاولت عبثاً أن أقنع أبى بكذب الفرية ، التى نقلت إليه ، وبالمؤامرة المحكمة التى دبرت ضدكم .. ولكن حور كان قد أقنعه هو وحاشيته بمدى خطورتكم على ملكه .

صبحى - خطورتنا نحن على ملكه ، أين هذا الملك الذى ليس به سيجارة واحدة ؟ .. ياستى يشبع به .. قرّبى يابت يا سخمت خذى البركة وهاتى تحسيسة .

(يقرص سخمت) .

سخمت - (تبتعد عنه) سيدى سمنكرع ، لقد أخطأ خنوم كبير القضاة فى حكمه عليك عندما أمر بقطع أنفك .

صبحى - لماذا ؟

سخمت - (ضاحكة) كان يجب أن يأمر بقطع يدك حتى تقتصد فى بركاتك .. إن كبير الكهان ...

صبحى - (مقاطعاً) ياستى .. انتهينا .. لم أعد كبير كهان ، ولا حتى إمام زاوية .. فقط خلصونا .

مريت - حاضر يا سمنكرع .

صبحى - صبحى .. صبحى وحياة والدك .. لاداعى للمسكرع والمنكرع .

مريت - لقد دبرت أمر فراركم من هنا .

عمر - كيف ؟ .

مريت - (هامسة) وراء هذه النافذة .. يعمل أعوانى طوال الليل لخلع الحجارة من أسفل النافذة .. والليلة سينتهى خلعها جميعاً .. وعندما تسمع

ثلاث طرقات من الخارج سيكون كل شيء معداً .. وعندما يسمعون رد طرقاتهم بثلاث طرقات مثلها ، سيرفعون الحجارة من مكانها حتى تستطيعوا الخروج من فتحة النافذة .

عمر – وبعد الخروج ؟

مريت – سيكون هناك قارب معد .. لنقلكم إلى الشاطيء الآخر .

عمر – تقولين .. نقلكم ؟

مريت – (تهز رأسها فى أسى) أجل .

عمر – أم نقلنا ؟

مريت – نقلكم .

عمر – ألن تأتى معنا ؟ .

مريت – إلى أين ؟

عمر – إلى الضفة الشرقية .

مريت – ليتنى أستطيع .

عمر – ولماذا لا تستطيعين ؟

مريت – إنها بعيدة .. بعيدة .

عمر – بضع دقائق .

مريت – بل بضعة قرون .

عمر – لم تعد غريبة عنك .

مريت – أخشى كل مافيها .

عمر – حتى أنا ؟

مريت – أنت أكثر ما أخشى هناك .

عمر – كيف ؟

مريت – أخشى أن تمسى .. وتصبح .. فتجدنى غريبة عنك .. غريبة عن زمنك .. تجدنى أعيش فى أقصى الزمن ..

عمر – يامريت .. أنت تعيشين فى دمى .. فى كيانى .

مريت – وأنت كيانى .. أنت حياتى .. ولكن التجربة المروعة التى خضتها فى عالمك تجعلنى أرتجف .. تجعلنى أحس بهوة الزمن بيننا كالغول يفتح فاه .. ليلتهم كل من يحاول تخطيه إلى الآخر .

عمر – الزمن يا مريت .. إنى لا أخشاه أبداً .. أحس بأنفاسك على يدى .. أشد جاذبية من كل ما بيننا من فوارق .. أحس برغبتى فيك .. أقوى من الزمن .. لقد قفزت من عالمى إليك ولم أضق به .

مريت – ولكنه ضاق بك .

عمر – سأبقى معك .

سخمت – أجل ، لماذا لا يهربون ويبقون معنا ياسيدتى !

مريت – كيف .. كيف يبقون .. وأين ؟

سخمت – بعيداً عن القصر .. وسط الحقول المترامية يزرعون الأرض .

مريت – أنت لا تعرفين يا سخمت .. لاتعرفين ماذا يفعلون فى زمنهم ، لديهم صناديق صغيرة تتحدث كالروح ، وآلات تقضم الجبل .. كيف نريد منهم

أن يزرعوا الأرض بالفأس .. ويخرجوا فى الصباح إلى الحقول ومعهم كسرة الخبز والبصل وقطعة السمك المقدد ويشربوا من ماء النهر .

مصطفى – السمك المقدد ؟ .. فلاحكم يأكل السمك المقدد ؟ .

سخمت – أجل .

صبحى – عجيبة !

سخمت – لماذا ؟

مصطفى – لأن فلاحنا .. لايكاد يجده .. فلاحنا مازال يفعل ما يفعله فلاحكم .. عدا السمك المقدد .

مريت – ولكن زمنكم .. زمن العجائب .

عمر – لايغرنك يامريت ما رأيت .. مازال هناك فى عالمنا .. أناس يعيشون أسوأ مما يعيش الإنسان فى زمنكم ، مازالوا يشربون ماء النهر ولا يجدون أكثر من العيش والبصل ، ومن أجل هذا تقوم الثورات .

مصطفى – لكى يلحق الذين وجدوا فى زماننا .. بالزمن الذى يعيشون فيه .. لكى يعيش أهله .. كما ينبغى أن يعيش الناس فيه .

مريت – ألم ينصفهم القدر بعد كل هذا الزمن ؟

عمر – القدر .. يا مريت .. لم نعد نلقى عليه بكل أعبائنا .. أشياء كثير بتنا نفعلها نحن لأنفسنا .. لقد بات علينا أن ندبر أمرنا .. تدبيراً محكماً .. لم نعد نترك للقدر شيئاً .. بل بات علينا أن نقوم شطحات القدر .

مريت – ومفاجآته ؟ .. وألاعيبه ؟

عمر – توضع فى الحسبان .. كشىء متوقع منتظر .. فتفقد قدرتها على المفاجأة ، والخذلان .

مصطفى – لم يعد المستقبل ينمو كما يريد .. بل بات ينمو بإرادة الإنسان .. برغبته في الإنماء .. وبقدرته عليه في الحدود التي يريدها .. وبالقدر الذي يريده .. من أجل حاجاته .. وآماله .

عمر – شيء واحد هو الذي لاقدرة للإنسان على التخطيط له .. أو رسم حدود أيامه .. ولياليه .. شيء واحد .. احتفظ به القدر .. لنفسه .. فلم يستطيع الإنسان أن ينزعه منه .

مريت – ما هو .. ؟

عمر – الإنسان نفسه .. لقد ملك السيطرة على كل ما حوله .. والتخطيط له .. إلا نفسه .. أشياء كثيرة استطاع أن يرسم لها الحدود .. ويضع لها خط السير .. لكي يعرف .. متى ستصبح كيف .. ولكن عن نفسه .. عن الشيء البسيط المحرك .. لذاته .. لم يستطع أبداً .. أبداً .. أن يعرف .. متى سيصبح كيف .. ولا أين .. المخططون المفكرون العباقرة .. الذين يحددون لكل شيء متى سيصبح كيف .. وأين .. لا يستطيعون أن يعرفوا لأنفسهم ، متى ستصبح كيف .. وأين .. متى ستتوقف دقات قلوبهم وكيف وأين .. متى ستعجز أذهانهم عن التفكير .. وكيف وأين .. متى ستتوقف أجسادهم عن الحركة .. وكيف وأين .. متى سيتحول هذا الشيء القيم الأنيق المفكر العامل .. الذي يسمى الإنسان إلى رمة ينتيها التراب . وروح مبهمة غامضة أقرب إلى الأمنية منها إلى الحقيقة .. وكيف وأين .. ذلك هو الشيء الذي عجز عنه .

مريت – الميزة الوحيدة الباقية للإله .

صبحي – (متمتماً) .. الله .. لا إله إلا هو .. الحي القيوم .. لا تأخذه سنة ولا نوم .. له مافي السموات وما في الأرض .. من ذا الذي يشفع عنده

إلا بإذنه .. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم .. ولا يحيطون بشيء من علمه .. إلا بما شاء .

(تسمع فجأة ثلاث طرقات على الجدار)

(ينصت الجميع مأخوذين ثم تتحرك مريت بسرعة تجاه النافذة)

مريت – لقد أعدوا كل شيء .. هذه هي الطرقات الثلاث التي اتفقنا عليها .. ارقبي الباب ياسخمت ..شاغلي حربو إذا بدا منه أي قلق أو شك .

(تتجه سخمت إلى الباب)

صبحي – شاغليه ، من غير تحسيس .. فاهمة .

(مريت تدق على الجدار ثلاث دقات)

(تمتد يد إلى الأ حجار التي أسفل النافذة فتنزعها في يسر بعد أن خلعت من موضعها)

عمر – (ينظر إلى مريت في لهفة وأسى) .. مريت .. أيمكن أن يكون هذا وداعنا الأخير ؟

مريت – لا أستطيع أن أفكر في هذا .. حتى أحتمل الحياة . لا أستطيع أن أتصور الحياة .. بغيرك .. أبداً .

عمر – إذن ستأتين إليّ ؟

مريت – من يدري .

عمر – أو آتي إليك ؟

مريت – هوة الزمن سحيقة .. سحيقة .

عمر – ما بيننا .. من كل الفواصل .. والسدود .

مريت – والزمن ؟

عمر – والزمن يا مريت .. قولى إننا سنلتقى .

مريت – سنلتقى .. سنلتقى .. فلتعنّا الآلهة .. حتى نلتقى .. عبر هذه السنين الطوال .

(تسمع حركة فى الخارج) .

مريت – (بسرعة) هيا .. أسرعوا .

(يخرج مصطفى مودعاً مريت)

مصطفى – لا أظنى أسفت على فراق إنسان .. كما أسفت على فراقك . إنك يامريت أجمل ما فى زمنك .

مريت – شكراً .. مع السلامة .

صبحى – (خارجاً) السلام عليكم .. سأعود إليكم .. بعد أن اشترى علبة بلمونت .. انتظرينى ياسخامة البرك .. إياك أن تلعبى بذيلك .

(تزداد الضجة فى الخارج)

مريت – هيا أرجوكم .

عمر – (يضمها إليه فى لهفة) .. سأنتظرك .. ياحبيبتى .. فى أى زمان .. وفى أى مكان .

مريت – (تضمه إليها ثم تدفعه إلى الخارج) .. اذهب ، وليحفظك الله .. ياحبيبى .. فى كل زمان .. وفى كل مكان .

(ستار)

الفصل السادس

المعجزة ..

المنظر الأول

(موقع السد في يوم تحويل مجرى النيل .. في مكان على الضفة الشرقية للقناة المحفورة في الجبل يشرف من ناحية اليسار على السد الرملي الذي يحجز مياه النيل عن القناة ويوشك أن ينسف لتتدفق منه المياه إلى القناة بعد أن تمت المرحلة الأولى للسد العالي .. وتم سد المجرى الأصلي للنيل .. على اليمين تبدو فتحات الأنفاق التي ستندفع فيها المياه لتتدفق من الجانب الآخر حيث تتحكم فيها البوابات وتتولد منها الكهرباء .

جمهرة من العمال والمهندسين والخبراء يجلسون على صخور الضفة وقد بدت عليهم الفرحة وأخذوا يتبادلون التهاني ومن بينهم عمر ومصطفى وقدري وجمال وقد جلس بجوارهم ستيفانوف المهندس الروسي الشاب ، وعلى مقربة منهم جلست صفية تسجل صورة صوتية لعملية التحويل) .

صفية – (فى الميكرفون) فى هذه اللحظات الحاسمة يعيش شعب مصر أروع لحظات عمره بعد سنوات من النضال كافح فيها من أجل بناء السد العظيم ، بعد معارك الدفاع ضد قوات الاحتلال والنزاة.. بعد الحصار الاقتصادى .. بعد حروب التشكيك والصراع مع الماء والجبل .. بعد كل هذا النضال حقق الشعب المعجزة .. لقد بدأت ساعة الانتصار أمس حين تم وضع اللمسات الأخيرة فى الاستعدادات لتحويل النهر من مجراه القديم ، وفى هذه اللحظات ستغمر فيها المياه المجرى الجديد رمزاً حياً للإرادة والعمل .

عمر – لقد أعد كل شىء للحظة التاريخية .

مصطفى – وصدرت الأوامر بنقل الكهرباء إلى أسلاك التفجير التى تتصل بشحنة الديناميت المثبتة فى السد الرملى الأمامى .

عمر – أرى قناة التحويل قد غمرت بالمياه إلى ارتفاع خمسة أمتار لتخفيف قوة اندفاع الماء بعد التفجير حتى لاتؤثر على أساسات الأنفاق والمحطة الكهربائية .

قدرى – والسد الرملى قد أخلى تماماً ولايبدو فوقه سوى آثار أقدام أمضت الليل تشرف على التحوّل التاريخى .

مصطفى – وصندوق التفجير فى مكانه ينتظر اللمسة الحاسمة .

(من مكبرات الصوت يسمع صوت الرئيس عبد الناصر فى خطبته التاريخية) :

«يارجال مصر .. ويانساءها وأطفالها ، هنا أمام الدنيا كلها .. رمز حى لإرادتكم وتصميمكم ومقدرتكم على العمل وعلى الفداء .. هنا بهذا السد العالى

تذكار لانتصاركم على كل اعتداء .. وعلى كل الصعوبات .. هذه صورة رائعة لأحلامكم صنعها العمل الذى يحرك الجبال ويخضع الطبيعة لإرادة الإنسان مهما دفع من الدم والعرق وليؤكد سيطرة الإنسان بروح ربه وهداه على الحياة لتكون شرفاً له وليكون شرفاً لها .. تحت الظلام الذى فرضته الغارات أثناء معركة السويس وفى الخنادق ووسط المعارك العسكرية والاقتصادية والنفسية كانت أغنية الرجال والنساء والأطفال من أبناء مصر بأنهم سوف يبنون السد .

«يارجال مصر ونساءها وأطفالها لقد تحققت المعجزة وبنيتم السد ؛ إن الله منحكم الشجاعة على الصمود ومنحكم القدرة على العمل» .

«إننا الآن ننظر إلى المعجزة أمامنا ونقول كما قلنا دائماً بعد كل انتصار : الحمد لله ..» .

(يسمع صوت انفجار الديناميت الذى ينسف السد الرملى ، ثم يسمع هدير المياه المتدفقة فى القناة) .

عمر – لقد حركت ضربة الانفجار الجانب الأيمن من السد .. الرمل يتحرك .. ظهر خيط من المياه .. خيط رفيع كأنه يتسلل من وراء السد .. يحفر لنفسه طريقاً .. إنه يتسع ويتسع ويزداد عمقاً فى باطن السد .

قدرى – ماأجمل تدفق المياه وسط الصخور .

جمال – تبدو كشرايين تتدفق منها الحياة .

مصطفى – لن نسير بعد ذلك فى القاع .

عمر – كل مرة إذ أسير فى أرض القناة .. وأخوض وسط الأنفاق .. كنت أحس بالنشوة وأنا أتصور ما سأقوله للجيل القادم من أحفادنا .. بعد أن يغمر كل هذا بالمياه .. ولايعودون يبصرون منه سوى مجرى طبيعى للنهر .. هل

سيصدقون أننا سرنا على أقدامنا في قاعه .. وفي أنفاقه .. وأننا حفرناه بسواعدنا .

قدري – (ضاحكا) لقد أحضرت ابني لكي يسير معي .. ولكي يرى بنفسه المعجزة .. ولكي يروى هو لأولاده .. ما فعل أجدادهم .. ليروا ما حققته عزيمة قائد وصلابته وإصراره .. وقوة شعب وجلده وصبره .

مصطفى – خير ما في هذا العمل أنه دليل على إرادة الإنسان .. وعلى تفوّقه المطلق في هذه الأرض .. لم يعد له أن يستسلم لشيء ما .. لمجرد أنه وجد هكذا .. لأن إرادته قادرة على أن تحوله إلى ماينبغي أن يكون عليه .. هذا الجبل الذي كان هنا .. عليه أن ينقض وأن يخلي مكانه .. وهذا النهر الذي كان يسير هناك .. ينبغي له أن يسير هنا .. إن هذا العمل يملؤنا إيماناً بالإنسان وبإرادته .

عمر – (يهز رأسه في دهشة) الآن وأنا أجلس هنا . وأرى المياه تتدفق في القناة .. لا أكاد أصدق أن كل هذا العمل قد أنجز في هذا الزمن .. من يصدق أننا حفرنا عشرة ملايين من الأمتار في الصخور .

قدري – وردمنا مثلها في النهر .

مصطفى – والأزمات التي مررنا بها ، أتذكرون يوم أنهار السد الرملي حيث تتدفق المياه الآن .. وكان يحجز تيار النيل عن العاملين في القناة وفي الأنفاق .

جمال – عندما تساقطت أجزاء منه في النيل وأخذ التيار يأكل الشريط الضيق الباقي .

قدري – كل معنى هذا أن تغرق الأجهزة والكراكات والسيارات ويتوقف

العمل عاماً كاملا حتى يتم بناء السد الرملى الجديد وتنزح المياه المتدفقة فى موقع العمل .

مصطفى – واندفعنا جميعاً وكأن بنا مساً من جنون .. اندفع كل عامل وكل مهندس فى إرادة عنيدة وإصرار عجيب لنقل الرمال والحجارة .

قدرى – ودون أن يختل سير العمل الأصلى فى السد سُدَّت الفجوة التى كاد التيار يفتحها فى دقائق قليلة .

رئيس العمال – كان يوماًمخيفاً ، كنت أدعو الله أن ينقذنا .. وقبل الله الدعوة .. ولكن (عنتر) راح منا فى ذلك اليوم .. عندما انقلبت به العربة وهو يسرع نحو السد .

جمال – رحمه الله ... ورحم شهداءنا جميعاً .. ليتهم كانوا هنا معنا ليروا نتيجة جهدهم .

ستيفانوف – هذ السد ثمن دمائكم التى أريقت فى معارك الكفاح المريرة التى خضتموها من أجل حقكم .. إنه ثمن دماء شهدائكم الذين سقطوا فى كل ميادين النضال التى خضتموها .. فى بور سعيد .. وفى القناة .. وعلى مدى التاريخ .. هذا السد دليل على انتصار حق الإنسان فى الحياة .. إنه إشراقة الأمل فى أفق كل مكافح من أجل حريته .. ومن أجل حقه فى الحياة الكريمة .. هذا هو العمل الجاد الحقيقى .. يشرق على قارتكم المكافحة .. ليؤكد لشعوبها أن كفاحها لن يضيع سدى ، وأن اليد التى فك قيدها لن يقف فى سبيلها شىء من أجل توفير الرخاء والرفاهية .. والمشاركة فى الحضارة الإنسانية وإقرار السلام فى العالم كله .. هذا السد دليل على أسمى المعانى الإنسانية .

قدرى – أجل .. أجل .. هذا السد لايعنى فقط إضافة مليونى فدان تزرع فى أرضنا .. أو عشرة مليارات كليوات تضاف إلى قوانا الكهربائية .. ولكنه

يعنى .. مثلا جديدة فى علاقات البشر .. مثلا رائعاً فى تعاون الشعوب القائم على الثقة والمحبة .. لا على الاستغلال والشك وسوء النية .

عمر – أنت هنا ياستيفانوف نموذج لكل تلك المثل الطيبة .. أنت الذى تعودت حياة الثلوج فى سيبيريا .. تجلس هنا بيننا لتصلى سعيرنا .. أنت وزوجتك إيلينا وولداك .. أتيت لتمنحنا خبرتك وجهدك وستعود غداً إلى بلدك دون أن تأخذ منا شيئاً أكثر من أجرك ودون أن تترك بيننا إلا العمل الطيب والذكرى الحسنة .. لم تأت بسلاح .. ولم تذهب بغنيمة .. لم تمنح لنفسك حقاً فى أرضنا ، ولا حاولت أن تفرض علينا أسلوباً فى التفكير أو فى الحياة .. احترمت حريتنا فى العمل وفى التفكير .

مصطفى – أجل ياستيفانوف .. لم تفعل شيئاً من هذه الأشياء التى كانت تملأ نفوسنا ريبة فيكم .. وخشية منكم .. لم تحاول أن تخلط ببضائع السد .. بضائع مذهبية .. ولا حاولت أن تسرب مع خبرتك الفنية .. خبرة حزبية .. لم تحاول أن تخص بعضنا بصلات خاصة .. لتكون منهم جماعة يدينون بالتبعية لكم .. كنت دائماً مستقيماً فى عملك واضحاً فى علاقاتك .

قدرى – أسلوب جديد فى تعاملكم مع الناس ياستيفانوف – (مفكراً) قد يكون هذا مظهراً لأسلوبنا الجديد فى الحياة .. وفى العلاقات مع الناس .

جمال – كيف ؟

ستيفانوف – الأسلوب الذى اتهمنا من أجله رجعيو الشيوعية بالبورجوازية .. والخروج على المبادىء الأصلية للشيوعية .. أن نجعل الإنسان أثمن مافى الحياة .. وأن نمنحه أقصى ما يمكن تيسيره من سبل الراحة والاستمتاع بالعيش .. أن نوفر له الطعام الشهى والملبس الجيد والمسكن

المريح .. لكى نزيد من قدرته على الإنتاج .. وأن نكافئه على قدر جهده .. لكى نزيد من رغبته فى الإنتاج .. ألا نساوى العامل بالخامل .

قدرى – تعنى اشتراكية إنسانية ياستيفانوف .. أن يكون الإنسان سيد الآلة .. وليس عبداً للآلة .. أن يكون الإنسان هدفاً .. ليس وسيلة .. أن يكون غاية .. لاسبيلا إلى غاية .

ستيفانوف – لقد قاسى الإنسان عندنا كثيراً .. كانت علاقته بالسعادة والراحة والحياة الطيبة .. لاتوجد إلا فى الأفلام التى تعرض علينا .. وكانت الحكومة تفرض على المزارع الجماعية سعراً للمحصول الزراعى لايمنح الفلاحين فى المزارع إلا حياة الكفاف .. وكانوا يعملون بالسخرة من أجل أن يوفروا الكمية المطلوبة من المحصول بالسعر المفروض . كانت الدولة عندنا قادرة ، والناس تعساء مساكين .. ولقد آن للناس أن يعيشوا .. وأن يكافئوا عن جهدهم .

جمال – تغيير خطير فى أسلوبكم فى الحياة .. كان لابد منه .. فالإنسان ينتصر دائماً .. الإنسانية قبل كل شيء

مصطفى – ولست أظن علاقاتكم بالناس ستصير قائمة على التسلل المذهبى .. ولست أظن الأحزاب الشيوعية قد باتت الوسيلة المثلى .. فى ارتباطهم بالغير وصداقتكم له .

ستيفانوف – جائز .. (ضاحكا) لم لا .. ألسنا كذلك ؟

عمر – الاشتراكية .. كفاية وعدل .. ليحققها كل منا بأسلوبه النابع من أرضه ومن تراثه الفكرى .. ولنكن جميعاً أصدقاء .

(عمر ينهض وقد بدا عليه الإجهاد)

مصطفى – عمر .. ماذا بك ؟

عمر – لاشىء .

مصطفى – أين كنت في الصباح ؟ لقد مررت عليك فأخبرونى أنك خرجت مبكراً .. وحاولت عبثاً أن أعثر عليك فى أى مكان .

قدرى – (لجمال) كان هائماً فى الضفة الغربية .

جمال – يبدو عليه الإرهاق .

قدرى – شىء ما قد حدث له .. لم يعد أبداً .. الإنسان المرح اليقظ .

جمال – (مشيراً إلى المياه المتدفقة فى القناة) انتهينا ياعمر .. لن تجرى بعد ذلك فى قاع النهر .. أغرقت المياه كل شىء .

عمر – (متطلعاً إلى الأفق الغربى) ليس بعد .. لم تغرق كل شىء .

قدرى – (ضاحكاً) ياأخى غداً .. ستغرق كل شىء .

عمر – (فى صوت خفيض) أجل ، غداً ستغرق كل شىء .. (يطرق فى حزن) غداً .. سيغرق كل شىء .

(مصطفى ينتحى بعمر جانباً .. ويتشاغل الباقون بمراقبة ماحولهم ويلتف البعض حول صفية وهى تسجل الصورة الصوتية) .

مصطفى – أما زلت تذهب إلى هناك ؟

عمر – (يطرق)

مصطفى – ومآخرة كل هذا .. أما لهيامك من نهاية ؟

عمر – النهاية ؟! أجل .. ستحل النهاية .. عندما يغرق كل شبر من

الأرض هناك .. لن يعود هناك أثر لأى شيء .. حتى هذه البقايا والأطلال .. أشم منها عبيرها .. وأسمع من أحجارها صدى صوتها .

مصطفى – كف عن هذا ياعمر .. لاتدع الناس يتهمونك بالجنون .. انس كل شيء .

عمر – أنسى ؟ كيف أنسى !

مصطفى – كما نسيت أنا .

عمر – لقد نسيت أنت .. لأن قلبك لم يخفق بحب .. ولكن . أنا ؟ . مع كل هذه المشاعر التى تضطرم فى صدرى أيمكن أن أعتبره وهماً كما اعتبرته أنت ؟

مصطفى – أو يمكن أن يكون غير ذلك ؟

عمر – الإحساس العجيب الذى أحس به لهذه المخلوقة .. مصر على أن يجعله غير ذلك .. مصر على أن يتشبث به كحقيقة .

مصطفى – وما الحل .. ؟ أتنوى أن تقضى عمرك .. هائماً منقباً .. بين الرمال والأطلال .. على الشاطىء الغربى .

عمر – ليتنى أستطيع .. مادام هناك أمل .. فالحياة محتملة .. فى ذات يوم .. سأجد الحقول الخضراء والبحيرة حيث الزهور والطيور .. وأجدها هى ..

مصطفى – عبث .. عبث .. إننا لانستطيع أن نغمض عيوننا لنستعيد أحلامنا الجميلة .

عمر – ليتنى بقيت هناك .. عندما أعود إلى الضفة الغربية فلا أجد سوى

المرسى حيث رسا القارب الذى حملنا من السجن فى تلك الليلة .. أتمنى لو عدت إلى السجن مرة أخرى .

مصطفى – لكى تلقى حتفك هناك ؟

عمر – كان يمكن أن نهرب سوياً .

مصطفى – وتعيش بين الحقول .. لتأكل الخبز والبصل والسمك المقدد .

عمر – كنت أستطيع أن أحتمل أى شىء إلا ضياعها كل شىء ممكن قبوله .. إلا أن تتبدد هكذا كالدخان .. هى وكل ما حولها .. حتى المعبد .. حتى أطلال المعبد ، وجدته بين عشية وضحاها أكواماً من الحجارة .. يفكه العمال .. كأنه بيت من بيوت الأطفال ، وتحمله روافع الشركة الألمانية .. لتنقله إلى أعلى الجبل ، وأحسست كأنهم يحطمون آخر أمل للقاء .. ويمحون ما تبقى من أثر ملموس لكل ما عشناه فى حلمنا الرائع .

مصطفى – أكنت تتوقع أن تراها هناك مرة أخرى ؟

عمر – ولِمَ لا .. ألم نرها من قبل ؟

مصطفى – وترى الحقول والقصر الفرعونى .. وكل ما رأيت من أعاجيب ؟

عمر – لا يهمنى كل هذا .. المهم أن أراها هى .

مصطفى – وتبقى معها ؟

عمر – أو آتى بها معى . إننى لم أشعر قط أن الزمن كان مشكلة .. إن ما بيننا كان دائماً أقوى من الزمن .

مصطفى – لم يكن مشكلة لأنها انتزعتك من واقعك . لقد سيطرت على

كل جوارحك .. يجب عليك أن تتخلص من سيطرتها .. يجب عليك أن تنساها .. أن تنسى كل ما حدث .

عمر – مستحيل .. إنى أذكرها فى كل شىء .. هنا وهناك .. فى زمنى وفى زمنها .. أذكرها كلما وقفت لأرى حائط السد يعلو .. أو رأيت القناة تغمرها المياه .. أذكر وقفتها ترقب العربات تقذف بالصخور إلى الصنادل ، وقفتها فى قاع النهر .. تقول إن كل هذا حدث بقدرة قادر ، والقادر هو الشعب .

مصطفى – أجل .. أجل .. أذكر حديثها العجيب فى الميكرفون على لسان فرعون .

عمر – وأذكرها فى مغرب الشمس وقد سرى النسيم بين النخيل .. أذكرها فى غابرها ، وأذكرها فى حاضرها ، بين أطلالها الصامتة ، وآلاتنا الصارخة الصاخبة .

مصطفى – اترك كل هذا .. اترك المكان برمته . انزل إلى القاهرة ، واشغل نفسك بأشياء أخرى .. غير هذه الأشياء التى تشدك إليها وتربطك بذكرياتها .

(تقبل صفية وهى تضع الميكرفون فى الحقيبة) .

صفية – (لعمر) .. عمر .. لقد سجلت صورة رائعة للاحتفال بتحويل مجرى النيل . لقد عشنا لحظات تاريخية . هذا التسجيل سأحتفظ بنسخة منه لأهديها إلى أبنائى .

مصطفى – سيكون أبناؤك فخورين بأمهم .

صفية – لماذا ؟! أنا لم أفعل سوى أن سجلت صورة لما حدث .. كم تمنيت لو شاركت فى رفع الحجارة ، وحفر القناة .. أنتم الذين سيفاخر بكم أبناؤكم .

مصطفى – (ضاحكا) إذا كنت مؤمنة بهذا .. فأنا على استعداد لأن أمنح أبناءك هذا الفخر .

صفية – (ضاحكة) لطيفة .

مصطفى – العرض .

صفية – لا .. النكتة .

مصطفى – ليست نكتة .. إنه عرض جاد .. ويمكن أن احوّله إلى عمر .. باعتباره ولى أمرك .. فوراً .

صفية – هكذا ؟

مصطفى – ولِم لا .

صفية – وهنا .. فوق الصخر .. على ضفة القناة ؟

مصطفى – لكى تزيديهم فخراً .

صفية – (تبتسم) يبدو أنك مهتم .. بتفاخرهم .

مصطفى – وتفاخرى أنا أيضاً .

صفية – بمن ؟

مصطفى – بك .

صفية – أخجلتم تواضعى .

مصطفى – ما رايك ؟

صفية – (باسمة) لست أمانع فى أن أمنح أولادى هذا الفخر .. أقبل فقط من أجلهم .

مصطفى - (فى فرحة) إنى أتحدث جاداً .

صفية - وأنا أتحدث جادة .

مصطفى - (لعمر) مارأيك ياعمر ؟

عمر - (شارد الذهن فى الأفق الغربى) فى ماذا ؟

مصطفى - فيما اتفقنا عليه .

عمر - اتفقتم على ماذا ؟

مصطفى - أمنح أولادها شرف أبوتهم .

عمر - (ضاحكا) هكذا .. مرة واحدة .. وبدون سابق إنذار !

مصطفى - من ناحية الإنذار .. فأعتقد أنى أحسست بعدة إنذارات فى باطنى .

عمر - وما رأيها هى ؟

مصطفى - سلها .

عمر - مارأيك ياصفية ؟

صفية - (تهز رأسها وتقول فى استحياء) لاأظن أن هناك مايمنع .. فى وقت ما .. لابد أن تتزوج الفتاة .. شخصاً ما .

عمر - أو قد حل «وقت ما» هذا ؟

صفية - لقد جاوزت الثالثة والعشرين .. أخشى أن أعنس .

عمر - وهذا الشخص .. أيصح أن يكون «شخصاً ما» ؟

صفية - ممكن احتماله .

مصطفى – حتى آخر العمر ؟

صفية – إذا استطاع أن يحتملنى حتى آخر العمر .. فلا جدال أنى سأحتمله .

عمر – (يهز رأسه) مبروك .. هذه فيما أعتقد أول خطبة تتم فوق المجرى الجديد للنيل .

مصطفى – إن لدينا إجازة نستطيع أن ننزل فيها إلى القاهرة .. لإتمام كل الإجراءات .

صفية – إنى سأنزل إلى القاهرة غداً .. (لعمر) أظنك ستنزل معى ؟

عمر – (مأخوذاً) أنا .. أنزل إلى القاهرة ؟

مصطفى – أجل .. إن لدينا إجازة .

عمر – سأقضيها هنا .

مصطفى – هذا غير معقول .

عمر – غير معقول .. لمه ؟

مصطفى – لأنه يلزم لك أن تستريح .. إنك فى أشد الحاجة إلى الراحة .

عمر – أنت تعرف أنى لن أستريح .. سأبقى هنا .

صفية – إن والدتك فى انتظارك .. وليلى بنت خالتى قد وصلت إلى القاهرة عائدة مع أبيها من لندن .. والمفروض أن تلقاها .

عمر – مفروض .. لماذا ؟

صفية– أنت نفسك كنت فى شوق لرؤيتها .. أنسيت أنك كنت تود خطبتها؟

عمر – لاأريد أن أرى أحداً .. ولا أن أخطب .. سأقضى إجازتى هنا .

صفية – (لمصطفى) لماذا لاتحاول أن تقنعه ؟

مصطفى – حاولت من قبلك .

صفية – أمعقول أن يقضى إجازته هنا بعد كل هذا التعب ؟

مصطفى – (يهز رأسه) لافائدة من محاولة إقناعه .

(يقبل صبحى ، وهو يلهث) .

صبحى – (لعمر) العربة جاهزة ياباشمهندس .

(عمر يقفز من مكانه) .

مصطفى – إلى أين .. ؟

صبحى – سنذهب لزيارة المعبد فى موقعه الجديد فوق الجبل .

مصطفى – (يهز رأسه فى يأس) غير معقول .. يجب أن يكف عن كل هذا .

صبحى – أتأتى معنا ياباشمهندس ؟

مصطفى – (ينظر إلى صفية متردداً) إذا كان سير المروحة متيناً ، ولن نحتاج إلى مياه للعربة ..

صبحى – (ضاحكا) لاتخش شيئاً .

مصطفى – أتأتين ياصفية ؟

صفية – لِمَ لا .. هيا بنا .

(يتجه الأربعة إلى العربة ذاهبين إلى المعبد) .

الجزء الثانى

(المعبد من الداخل بعد أن نقل إلى أعلى الجبل ، الزوار والسياح يملئون ردهاته .. بعض مهندسى الآثار والمهندسين الألمان الذين أشرفوا على عملية النقل .. يصاحبون الزوار ويشرحون لهم .

(عمر يدخل ومعه مصطفى ، وصفية تتركهما وتتجول فى المعبد بين الزوار .

(عمر يقف ممسكا بذراع مصطفى ، وقد بدا عليه الشرود .

(حريش (حارس المعبد) يبدو من ظهره مرافقاً لبعض الزوار ، وهو يشرح لوحة مكتوبة باللغة المصرية القديمة ومنقوشة على الحجر .

حريش – هذا هو بهو الأعمدة لقد ظل كل شيء فيه كما هو .. على اليسار المعبد ، وفى المواجهة المرساة التى كانت تفضى إلى شاطىء النيل عندما كان المعبد على مكانه الأول .. ومن هذه الفتحة كان يبدو منظر القصر الفرعونى تحيط به البحيرة .

عمر – (ينصت مأخوذاً إلى صوت الحارس ، ويقول لمصطفى) أجل .. أجل .. كان يبدو رائعاً .. لقد رأيته بعيني .

حريش – وهذا الدرج الذى على اليمين .. يفضى إلى قدس الأقداس .

عمر – (لمصطفى) لقد بدت منه أول مرة .. أتذكر .. كانت رائعة .

مصطفى – أجل .. أجل ، وكانت تريد أن تسلمنا للحراس .

عمر – لم تكن تعرفنا .

مصطفى – على أية حالة لقد سجننا أهلها .. بعد أن عرفونا .

حريش – (مستمراً فى الشرح وظهره لعمر) ، وفى أقصى البهو وراء هذا الباب ، وعلى اليمين توجد الحجرة التى وضعت بها التوابيت الأربعة التى استقرت فيها أسرة رع .

إحدى الزائرات – أما زالت موجودة ؟

حريش – أجل .. رع وزوجته نفرو وابنه حور .. وابنته مريت .

عمر – أتسمع .. إنها موجودة .

مصطفى – جثة فى تابوت .

حريش – (مستمراً فى حديثه) إنها تبدو آية فى الجمال .. وعلى وجهها ابتسامة ساحرة .. وكأنها لم تمت .

عمر – كأنها .. لم تمت !!

مصطفى – كأنها .. لم تمت ، وماذا يفيدك ذلك .. على العكس .. إنه يؤكد أنها ماتت .. كونها تبدو بابتسامة ساحرة كأنها لم تمت .. لن يعنى سوى أنها مومياء محنطة بمهارة ملفوفة جيداً بالشاش .. أتذكر .

عمر – أنكر – ماذا ؟

مصطفى – كنت .. نفسك تخشى هذا المصير .. قلت لى عندما أوشكت أن أعود إلى الموقع .. وخشيت أن أتركك وحيداً .. إن الأرض ستغرق والمعبد سيرفع .. وإنك ستكون فيه مومياء ملفوفة بالشاش .

عمر – ليتنى بقيت .

مصطفى – لترقد فى التابوت ؟

عمر – بجوارها .

مصطفى – وتصبح فرجة للناس .. يشير إليك هذا الرجل حربش قائلا : وهذا جسد .. عشيقها ؟

عمر – زوجها .. لقد كتب الكاهن العقد .

مصطفى – لتكن من تكون .. المهم أنك ستكون فرجة لكل من هب ودب ، حتى راحة الموت وحرمته لن تنعم بها .

(صفية تقبل لتسمع إلى الشرح مع الزوار)

حربش – (مستمراً فى الشرح وهو يشير إلى اللوحة الحجرية) وفوق هذه اللوحة نقشت أسطورة تروى محاولة غزو الشمال لأرض فرعون .. كيف تقدموا بجحافلهم على الضفة الشرقية ، ولكن ابنة فرعون أحبت أميرهم .

صفية – وهل أحبها ؟

عمر – (مؤكداً وبلا وعى) جداً .

صفية – (تلتفت إليه فى دهشة) .

مصطفى - (يزغد عمر بمرفقه) اثبت .. لا داعى للفضائح .

حريش - يقال إن أمير الشمال حاول أن يستغل حبها .. للاستيلاء على ملك فرعون ، ولكن أخاها حوراً اكتشف الخديعة فى اللحظة الأخيرة .. حين علم أن الأمير وأعوانه يدبرون مؤامرة لإغراق الأرض .

عمر - (فى غيظ) حور الكلب .. لاشك أنه هو الذى نقش هذه اللوحة .

حريش - وقد قبض ابن فرعون على المتآمرين وأودعهم السجن ، وحكم على أمير الشمال بالإعدام .

صفية - (فى أسف) وأعدم ؟

مصطفى - فال الله ولا فالك .

حريش - يقال إن الأميرة .. قد أنقذتهم من السجن فى اللحظة الأخيرة ، وإنها أطلقت سراحهم فى جنح الليل .

صفية - وهربوا ؟

حريش - أجل .. عبروا النيل على مركب

صفية - وهى .. والأميرة .. ماذا افعلت ؟

حريش - تركت ملكها ، وقصرها .. تركت كل شىء ، ولحقت به .

عمر - (متنهداً) ياليت .. ربنا يسمع منك .. وتلحق بى .. أو ألحق بها .

مصطفى - (يجذبه من ذراعه)... هيا بنا .. هيا .

عمر - (شارداً) أسمعت .. إنها لحقت بى .

مصطفى – هذه أسطورة .. منقوشة على الحجر .. لقد سمعناها من قبل عندما زرنا المعبد أول مرة وهو على الشاطىء .. أتتكر ؟

عمر – ولكنها لم تعد أسطورة .. لقد وقعت فعلا .. أنت نفسك كنت أحد أطرافها .. أتتكر ؟

مصطفى – أتكر .. أو لاأتكر .. ما جدوى كل هذا ؟

عمر – إنها موجودة هنا .. موجودة .

مصطفى – جثة فى تابوت ياأخى ، كل ما نملكه لها .. هو الفاتحة .. إذا قبلتها آلهتها ، وقربان من تين ونبيذ وعطر .. حسب تقاليدهم ، أو فطير ويلح حسب تقاليدك .

عمر – (مسمراً فى مكانه) .

مصطفى – هيا بنا .. هيا (منادياً) صفية .. هيا بنا .

(تلتفت صفية وتقترب منهم ويلتفت حريش لأول مرة منذ بدأ الشرح ليواجه عمر ومصطفى)

(عمر يجد فيه صورة طبق الأصل من حريو حارس السجن فيصبح مشدوهاً)

عمر – حريو .. أجل .. هو بعينه .. (يقترب من حريش ويهتف به) اسمع ياحريو .

(مصطفى يلحق به ويجره من ساعده)

مصطفى – عمر .. اسمع .

عمر – (لحريش) أنت تعرف الأميرة بالطبع .

حريش – طبعاً يا أفندم .. رأيتها كثيراً ...

عمر – (لمصطفى) أسمعت .

حريش – (مستطرداً) وهى راقدة فى التابوت .

عمر – (لحريش) اسمع ياحربو .

حريش – محسوبك حريش .

عمر – حربو .. حريش .. المهم .. أنك تعرف الأميرة .

حريش – طبعاً يا أفندم .

عمر – إذن لابد أنك تذكرنى .

حريش – (يهرش فى رأسه محاولا التذكر) والله ذكرنى سيادتكم .. أين ؟

عمر – فى السجن –

حريش – السجن !؟ مرة واحدة ، لا ياسعادة البيه .. حد الله بينى وبينك .. ربنا لا يحكم علينا .. أنا رجل .. فى حالى .. ولست رد سجون .

عمر – أنا الذى كنت مسجوناً .

حريش – سيادتك رد سجون .. أنت حر .. ولكن أنا لا .. لم أتشرف بزمالة سيادتك .

عمر – ياأخى .. لم نكن زملاء .. كنت سجانى .

(صفية مذهولة وهى تنظر إلى عمر كأنه جن وتهتف به)

صفية – عمر .. ما هذا ؟

عمر – اسكتي أنت .. هذه أشياء بيننا .

صفية – (لمصطفى) مصطفى .. ما هذا الذى يقوله ؟

مصطفى – (يجذبها نحوه) .. لا تفزعى هكذا .. أنت تعرفين عمر يحب المزاح .

صفية – مزاح .. أهذا مزاح ؟

حريش – (يسير مع الزوار وهو يهز رأسه) إذا كان هو رد سجون .. مالى أنا . سجان !! أنا سجان ؟

عمر – (صائحاً) ولا أحد جدودك .. ياأخ حربو .

حريش – حريش يا أخى حريش .

عمر – (مؤكداً) كنت حربو .. والله .. وكنت رجلا طيباً .

صفية – أى مزاح هذا .. عيب .. عيب جداً .

مصطفى – (يجذب عمر محاولا إخراجه) هيا بنا ياعمر .. هيا .. أرجوك .

(يدخل صبحى ومعه صفيحة ماء)

صبحى – عن إذنكم .. نملأ الصفيحة من البئر .

مصطفى – ياأخى .. أى بئر هذه التى ستملأ منها الصفيحة ؟

صبحى – (مشيراً إلى البئر) هنا .

مصطفى – ياأخى .. هذه بئر جافة .

صبحى – (ضاحكا) أنا أعرفها خيراً منك ياباشمهندس ، لقد ملأت الصفيحة بنفسى فى المرة السابقة ألا تذكر .

مصطفى – (محاولا إخراجهم) تعال يا أخى تعال .. لا ندرى من أين نلاقيها .. منك أم من الباشمهندس . هيا بنا .

(صبحى ينظر نحو الدرج ويرى مريم عز الدين موظفة الآثار التى تعمل فى نقل المعبد صورة طبق الأصل من مريت وهى تهبط الدرج فيصرخ مشدوهاً) .

صبحى – الله .. ست مريت .

عمر – (يلتفت نحو الدرج فيبصر مريم ويصيح مندفعاً نحوها) مريت .. مريت .. غير معقول .

(مصطفى – وصفية ينظران إليه فى ذهول)

(مريم تبدو عليها الدهشة وهى ترى عمر يندفع إليها)

عمر – كنت واثقاً أنك ستأتين .. أجل .. كنت واثقاً من هذا يا مريت .

مريم – (فى هدوء) اسمى مريم يا سيدى .. لست مريت .. وأنا خريجة قسم الآثار .. وأعمل ضمن بعثة معهد تسجيل الآثار التى تعمل فى نقل المعبد .

صفية – (فى دهشة) ما هذا الذى يفعله عمر .. لماذا يسميها مريت ويندفع إليها هكذا كالمخابيل .. أليست هى مريم التى سجلنا لها الحديث فى القناة ؟

مصطفى – (لنفسه فى ذهول) غير معقول !! مريم التى سجلنا لها الحديث لابد وأن تكون راقدة فى التابوت .. مستريحة أربعة وعشرين قيراطاً .

عمر – (مؤكد لمريم) خريجة الآثار .. أعرف .. أعرف .. لقد اتفقنا على هذا .

مريم – على ماذا ياسيدى ؟

عمر – على أن تكونى مريم .. خريجة قسم الآثار .

مريم – ولكنى أنا فعلا كذلك .

عمر – أيا كنت .. مريم أو مريت .. يكفى أنك عدت .. يكفى جداً .. لست أريد شرحاً .. سأقبل أى تفسير .. يكفينى أنك موجودة .. ستذهبين معى يامريم .

مريم – إلى أين ؟ .

عمر – لنتزوج ..

مريم – (ضاحكة) هكذا مرة واحدة ؟

عمر – أجل .

مريم – ولكنك لم تعرف عنى شيئاً .

عمر – بل أعرف كل شيء .

مريم – وأنا لا أعرف عنك شيئاً .

صفية – (هاتفة لمصطفى) أتسمع ؟ إنه يريد أن يتزوجها .. وهى تتجاهله تماماً .. كأنها لم تره من قبل .. هذا غير معقول .. يرج من عقلى يكاد يطير .

مصطفى – (هامساً) لقد طار كل عقلى .

عمر – أنا مهندس فى السد .. ويكفى أن تعرفى أنى أريدك .. شريكة عمرى .. وأن حياتى وكل ما أملك فى حياتى لك وحدك .

مريم – هذه أعجب طريقة للزواج .

عمر – ألا تثقين بى ؟

مريم – أحس أنى أثق .. لست أدرى لمه .

عمر – وتقبلين ؟

مريم – أحس أنى أريد أن أقبل ، لست أدرى كيف ؟

عمر – (يجرها من ذراعها) هذا يكفى .. يكفى جداً .. لاداعى أبداً لأن تعرفى لمه .. ولا كيف .. هيا بنا .

صفية – (مذهولة) .. لا .. لابد أن أردعه عن كل هذا .. إنى لا أكاد أفهم أبداً .. لا أفهم شيئاً !!

مصطفى – لاداعى لأن تفهمى .

صفية – هذا جنون .

مصطفى – وكل الناس مجنون ولكن على قدر الهوى اختلف الجنون .

صفية – ولكن ...

مصطفى – ولكن ماذا !؟ ألا تعجبك .. كزوجة لأخيك ؟

صفية – إنه حر .. مادامت تعجبه .

مصطفى – تعجبه جداً .

صفية — فليشبع بها .. ولكن .. هذه الطريقة المذهلة .

مصطفى — ماذا تهم الطريقة .. ما دامت النتيجة طيبة .. هيا بنا .. هيا .

(يهم الجميع بالخروج من المعبد عندما يبدو حريش عند الدرج من الباب الذى خرجت منه مريم) .

حريش — (صائحاً) يابوليس .. يابوليس .

صبحى — مالك .. جرى إيه ؟.

حريش — اللصوص .. يابوليس ؟.

صبحى — ياأخى .. لصوص إيه !؟ ماذا يأخذ منكم اللصوص !؟ ماذا تأخذ الريح من البلاطة .

حريش — (مستمراً فى الصياح) مومياء .. ضاعت .. مومياء سرقت .. يابوليس .

صبحى — مومياء .. سرقت ؟

حريش — أجل .. بنت فرعون .. ضاعت .. فقدت من التابوت .

صبحى — (لنفسه) يا نهار أسود .

(مريت تلتفت خلفها فى فزع) .

مريت — ابنة فرعون ضاعت .

صبحى — (لنفسه) طبعاً ضاعت .. كيف يمكن أن تبقى فى التابوت .. وأنت معنا هنا (صائحاً) هيا بنا .. هيا يا جماعة .

مريت — لا .. لابد أن أرى ما حدث .

صبحى – (هامساً) هيا ياست .. قبل أن يعيدوك إلى التابوت .. هيا بنا يا جماعة .

عمر – (يجذب مريم من ذراعها) أجل .. هيا يامريم هيا بسرعة .

حريش – يابوليس ..

صبحى – (وهم يهرولون إلى الخارج) طول عمرك حارس خائب ..يهرب منك الأحياء .. والموتى .. هيا بنا .. هيا ..

(ستار الختام)

للمـــؤلف

أطيـاف	قصص قصيرة
نائب عزرائيل	رواية
اثنتا عشرة امرأة	قصص قصيرة
خبايا الصدور	قصص قصيرة
يا أمة ضحكت	قصص قصيرة
اثنا عشر رجلا	قصص قصيرة
أرض النفاق	رواية
فى موكب الهوى	قصص قصيرة
من العالم المجهول	قصص قصيرة
هذه النفوس	قصص قصيرة
انى راحلة	رواية
مبكى العشاق	قصص قصيرة
بين أبو الريش وجنينه ناميش..............	قصص قصيرة
أغنيات	قصص قصيرة
أم رتيبة	مسرحية
هذا هو الحب	قصص قصيرة
صور طبق الأصل	قصص قصيرة
بين الاطلال	رواية
السقا مات	رواية

سمار الليالى .... قصص قصيرة

الشيخ زعرب .... قصص قصيرة

نفحة من الايمان .... قصص قصيرة

وراء الستار .... مسرحية

ست نساء وستة رجال قصص قصيرة

هذه الحياة .... قصص قصيرة

البحث عن جسد .... رواية

جمعية قتل الزوجات .... مسرحية

فديتك يا ليلى .... رواية

ليلة خمر .... قصص قصيرة

همسة عابرة .... قصص قصيرة

رد قلبى .... رواية فى جزأين

ليال ودموع .... قصص قصيرة

طريق العودة .... رواية

أيام تمر .... مقالات

من حياتى .... مقالات

لطمات ولثمات .... مقالات

نادية .... رواية فى جزأين

جفت الدموع .... رواية فى جزأين

أيام مشرقة .... مقالات

أيام وذكريات .... مقالات

أيام من عمرى	مقالات
ليل له آخر	رواية فى جزأين
أقوى من الزمن	مسرحية
نحن لا نزرع الشوك	رواية فى جزأين
لست وحدك	رواية
من وراء الغيم	مقالات
أيام عبد الناصر	مقالات
ابتسامة على شفتيه	رواية
طائر بين المحيطين	رحلات
العمر لحظة	قصة

رقم الايداع ٩٠٢٩ / ٨٧

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن : ٦٥٠ قرشا